

تأليف

الدكتور عبد الرحمن بدوي

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

تاريخ التصوف الاسلامي

تاريخ التصوف الإسلامي

من البداية حتى نهاية القرن الثاني

تأليف
الدكتور عبد الرحمن بدوي

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

الطبعة الاولى

١٩٧٥

تصدير عـــام

التصوف جانب من أخصب جوانب الحياة الروحية في الإسلام ، لأنه تعميق لمعاني العقيدة ، واستبطان لظواهر الشريعة ، وتأمل لأحوال الإنسان في الدّنيا ، وتأويل للرموز والشعائر يهبها قيماً موغلة في الأسرار ، وانتصار للروح على الحرف ، ومعلوم أن « الروح تحيى ، والحرف يميت » .

وآفة التصوف هي آفة كل علم انساني ، أعني : الانحراف عن روحه والابتعاد عن الغاية منه ، واساءة فهم مقاصده : فكما أن آفة الفقه والقانون هي التزام الشكل واطراح المقصود ، وآفة العلوم الطبيعية اساءة استخدامها من أجل التدمير أو الاستطلاع الزائف ، وآفة التاريخ توهم إمكان عودة الماضي وتكراره — كذلك آفة التصوف هي اتخاذ المظهر في اللباس والبوادر بدلاً من السلوك المطابق في روحه لمبادىء التصوف ؛ والتعلّق بالمجاهدات الخارجية ، بينما الباطن خَرِب يتردى في هاوية الرذائل ، والتبطل وعدم السعي ، ابتغاء العيش والتنعم على حساب الآخرين ومن ثمار جهودهم .

ثم إن الصوفية صفوة مختارة ، تقدم بسلوكها نماذج عليا للسلوك ، ومثلاً للاستلهام والتأسي قدر الطاقة . وليس من المطلوب إذن أن يكون عامة الناس صوفية ، وإلاّ لاختل نظام الحياة الإنسانية ، كما أنه ليس من المطلوب أن يكون عامة الناس علماء مبتكرين عاكفين على البحث العلمي الخالص ، ولا أن يكونوا شعراء أو فنانين . فمن السخف كل السخف ومن سوء النية الخبيثة أن

يطعن على الصوفية طاعن فيقول : لو صار الناس صوفية لاختل نظام الإنسان . فلم يوجد صوفي واحد ، في أي دين من الأديان ، قد طالب بأن يعمّ التصوف الناس ، بل ولا أن يتكاثر عددهم ، لأنه يرى التصوف من شأن خاصة الخاصة ، ولو اقتصر عددهم على واحد في كل مليون من الناس لكان أفضل .

هذا عن الصوفيّ السالك . وهذا شيء ، والتأثر بمعاني الحياة الصوفية واستلهام القدوة من سلوكهم : شيء آخر مختلف تماماً ، وهو أمر ميسور لكل الناس أو جُلّهم .

وفي هذا الكتاب ندرس المرحلة الأولى من مراحل التصوف الإسلامي ، وهي مرحلة تتسم باشراقة الفجر ونضارة تفتح براعم الحياة الروحية في الإسلام ، هذه الطاقة الروحية الكبرى التي أعطت للحياة الروحية للإنسانية ، قوة جديدة هائلة .

ففي هذه المرحلة سنجد نضارة الزهد ، وقشعريرة الورع ، وخصب القلق الملهم . ويتوسط عقدها شخصية من أعظم الشخصيات الروحية في تاريخ الإنسانية ، ونعني بها شخصية : الحَسَن البصري ، وإلى جانبه كوكبة من النماذج الإنسانية الرائعة مثل ابرهيم بن أدهم ومالك بن دينار والفضيل بن عياض وأويس القرني .

ولئن لم نجد لديهم مذاهب كاملة في التصوف النظري ، ولا نظريات عميقة في الكون والعلاقة بين العبد والرب ، ولا مراتب منتظمة للعالم الروحي ، فإن لديهم ميزة كبيرة هي نصاعة التقوى الخالية من التهاويل اللفظيـــة والاصطلاحات الإيهاميّة ، مما سيبالغ فيه أمثال ابن عدبي وابن الفارض ، وخلوّ ورعهم من كل الظواهر غير السويّة التي سيغالي في استجلابها الصوفية المتأخرون . صحيح أن هذا التطور الذي حدث في التصوف الإسلامي — وفي سائر ألوان التصوف ، إلى أية ديانة انتسب — كان أمراً محتوماً يقتضيه منطق التطور الروحي والحضاري ، ولكنه من غير شك يمثل انحلالاً بالنسبة إلى هذه المرحلة الأوّلى التي عنينا بدراستها ها هنا .

وكان ضرورياً ، وطبيعياً ، أن نقدم بين يدي هذه الدراسة بمناقشة المشاكل الحادّة التي تثار حول التصوف الإسلامي : اشتقاق لفظه ، والمؤثرات الأجنبية التي ربما تكون قد أثرت في نشأته ثم تطوره ، والجوانب الايجابية الخصبة في التصوف الإسلامي مما يبرّر العناية به والرد على الطاعنين عليه من سائر الاتجاهات الإسلامية . وكلها مشاكل حية معقدة ، ستظل دائماً مفتوحة أمام الباحثين ، رغم ما دار حولها من مناقشات بين كبار الباحثين المحدثين طوال قرن أو يزيد .

وسنوالي دراسة سائر مراحل تاريخ التصوف الإسلامي ، قرنين ، قرنين حتى نستقصي تاريخ هذا الجانب الأصيل العميق في الحياة الروحية في الإسلام .

طهران
ديسمبر — يونيو
١٩٧٤

عبد الرحمن بدوي

فهرس الكتاب

الفصل الثاني : زهد النبي والصحابة

الفصل الثالث : الحسن البصري وأصحابه

الفصل الرابع

كبار الصوفية في القرن الثاني

الفصل الأول

مقدمات ومشاكل

— ١ —

اسم التصوف

أول مشكلة تثار بالنسبة إلى التصوف الاسلامي ، هي مشكلة اسمه ، من أين اشتق ، شأنه شأن علم « الكلام » . وهي مشكلة قديمة نجدها تثار في أقدم ما لدينا من كتب في التصوف الاسلامي ، مثل كتاب « اللمع » لأبي نصر السرّاج [1] ، ثم تناولها من بعده من كتبوا في التصوف ، مثل « الرسالة القشيرية » لعبد الكريم بن هوازن القشيري ، التي كتبها مؤلفها في سنة ٤٣٧ هـ .

فالسرّاج (المتوفى في شهر رجب سنة ٣٧٨ هـ / اكتوبر نوفمبر سنة ٩٨٨ م) يعقد فصلاً بعنوان : « باب الكشف عن اسم الصوفية ، ولم سُمّوا بهذا الاسم ، ولِمَ نسبوا إلى هذه اللبسة » يبدأه بالسؤال عن السبب في تسمية « الصوفية » بهذا الاسم ، دون نسبتهم إلى حال ولا إلى علم مُعيّن ، كما يُنْسَب الفقهاءُ إلى الفقه وأصحابُ الحديث إلى الحديث ، ويجيب عن هذا

(١) ابو نصر السراج: كتاب « اللمع » ص ٢٠ وما يتلوها ، نشرة نيكلسون، لندن ١٩١٦

قائلاً : « لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسّموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، وذلك لأنهم مَعْدِن جميع العلوم ، ومحلُّ جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفاً ومستأنفاً ، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة . فلما كانوا في الحقيقة كذلك ، لم يكونوا مستحقّين اسماً دون اسم . فلأجل ذلك ما أضفتُ اليهم حالاً دون حال ، ولا أضفتهم إلى علم دون علم » . وينتهي إلى القول بأنه يسميهم بهذا الاسم نسبةً « إلى ظاهر اللبسة ، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام ، وشعار الأولياء والأصفياء » . فرأيه إذن أن اسم الصوفية مأخوذ من كون اللباس الغالب عليهم هو لبس الصوف « لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء – عليهم السلام ! – والصّديقين وشعار المساكين المتنسّكين » .

وَيَرُدُّ السرّاج على من يقول إن اسم الصوفية محدث ، ولم يوصف به أحد من أصحاب رسول الله ولا مَنْ بعدهم ، ولا يعرف الناس « إلاّ العُبّاد والزهاد والسيّاحين والفقراء ، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ : صوفي » – بأن السبب في ذلك أنهم نسبوا إلى الصحبة ، صحبة رسول الله ، وهي أشرف من النسبة إلى الصوف .

فإن قال قائل « إنه اسم مُحْدَث أحدثه البغداديون » – ردّ السراج على هذا بقوله إن هذا محال « لأن في وقت الحسن البصري – رحمه الله – كان يُعْرف هذا الاسم ... وقد روي عنه أنه قال « رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي» . كما يروى عن سفيان الثوري أنه قال: « لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء » . بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إنه في الكتاب الذي جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحق بن يسار ، وعن غيره يذكر أنه قبل الاسلام قد خلَتْ مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد . « وكان

يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف . فإن صحّ ذلك يدلّ على أن قبل الإسلام كان هذا الاسم يعرف ، وكان ينسب اليه أهل الفضل والصلاح » (ص ٢٢) .

وخلاصة رأي السراج :

ا) أن اسم الصوفية مشتق من الصوف ، بوصفه اللبسة الغالبة على هؤلاء ؛

ب) وأنه اسم قديم ، قد وجد حتى قبل الإسلام ؛

جـ) إنهم لم ينسبوا إلى حال معينة أو علم معين لأنهم يتخلقون بكل الأخلاق الفاضلة ويتّسمون بكل الأحوال الشريفة ، فلا محلّ لتمييزهم بحال دون حال ، ولا بخلق دون خلق .

وإذا نظرنا في قوله إنه اسم قديم ، واستبعدنا ما جاء في « أخبار مكة » على أساس أنه وصف لحال شخص ، وليس رواية لقول حتى يكون الاسم معروفاً بهذا الوصف : الصوفي ، فمن المهم قوله إن الحسن البصري استعمل هذا اللفظ : « صوفي » ، والحسن البصري توفي سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) ، ثم ما روي عن سفيان الثوري (المتوفى في شعبان سنة ١٦١ هـ - مايو سنة ٧٧٨) من ذكره أبا هاشم الصوفي ، لأنه إذا صحّ هذان القولان وأنهما رويا بحروفهما ، لكان علينا أن نستنتج أن كلمة « صوفي » كانت معروفة وشائعة للدلالة على الزهاد السالكين في أوائل القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) أو قبله بقليل ، وكان يسمّى بها بعض الناس في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة .

وعبد الرحمن الجامي [1] (المتوفى سنة ٨٩٨ هـ) يرى أن أول من حمل اسم « صوفي » هو أبو هاشم الكوفي هذا ، الذي عاش في النصف الأول من

---

(١) عبد الرحمن الجامي : « نفحات الأنس » ص ٣٤ ، نشرة W. N. Lees في كلكتة سنة ١٨٥٩ .

القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) . والقشيري [1] (المتوفي سنة ٤٦٦ هـ) يرى أن هذا الاسم انتشر قبل سنة مائتين للهجرة (= سنة ٨١٥ ميلادية) .

لكن هذه كلها أقوالٌ لمتأخرين عن القرن الثاني ، وليست لدينا روايات كتابية وثيقة من القرنين الأول والثاني ورد فيها اسم « الصوفي » . ولعل أقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت اسم الصوفي والصوفية هو كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ [2] (المتوفى سنة ٢٥٠ أو سنة ٢٥٥ هـ) إذ يذكر « الصوفية من النسّاك » ويورد أسماء من عرف بالفصاحة منهم .

ورأي السرّاج هذا في اشتقاق أو في سبب التسمية بالصوفي والصوفية هو أرجح الآراء ، وإن طعن فيه القشيري على أساس أن الصوفية لم يختصوا بلباس الصوف دون غيره من الأقمشة . أما الآراء الأخرى الواردة في المصادر العربية فبعيدة الاحتمال ، ونذكر أهمها هنا على سبيل الاستقصاء فحسب :

١) منها أنّهم سمّوا بذلك نسبة إلى أهل « الصُّفّة » وهي «المقعد» ، وكان لقباً أعطي لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، ممن لم تكن لهم بيوت يأوون إليها فكانوا يأوون إلى مقعد مغطى خارج المسجد الذي أمر الرسول ببنائه في المدينة .

٢) ومنها أن اسم الصوفية مشتق من « الصفاء » ، وأن الصوفي هو الذي:

صَافى فصُوفِي ، لهذا سُمّي الصوفي

كما قيل في بعض الشعر ، بمعنى أنهم صفوا من الشرور وأكدار الدنيا وشهواتها .

٣) ومنها أنهم ينسبون إلى « الصفّ » الأول من بين المؤمنين في الصلاة .

(١) « الرسالة القشيرية » ص ٢٩ القاهرة سنة ١٣١٨ هـ .

(٢) الجاحظ : « البيان والتبيين » جـ ١ ص ١٣٨ ، القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

٤) ومنها أنهم ينسبون إلى بني صوفة، وهي قبيلة بدوية كانت تخدم الكعبة في الجاهلية .

٥) ومنها أنهم ينسبون إلى « الصفوانه » وهي نوع من البقل .

٦) ومنها أنهم ينسبون إلى «صوفة[1] القفا » وهي خصلة الشعر على القفا .

وكما لاحظ القشيري* بحقّ فإن هذه الآراء لا يشهد لها اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، وكلها بعيدة من جهة القياس اللغوي .

* * *

فلما جاء الباحثون من المستشرقين في العصر الحديث حاولوا أن يجدوا لهذا الاسم أصلاً غير عربي :

١) فجاء أولاً يوسف [2] فون همّر ١٨١٨ فأكد أن ثم علاقة بين الصوفية وبين الحكماء العراة الهنود — Gymnosophistes ، وكأن

(١) هكذا صوابها (لا كما كتبها ماسينيون في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الأولى جـ ٤ ص ٦٨١ عمود ب من النسخة الانجليزية) . يقولون : أخذ بصوفة قفاه : إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته . ويقال : أخذ بصوف رقبته وبصافها ، أي بجلدها ، أو بشعره المتدلي في نقرة قفاه .

(٢) Joseph von Hammer : **Geschichte der Schönen Redekünste Persiens, p. 346, n.J. Vienna 1818.**

* يقول القشيري : « التصوف ... هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي ، والجماعة : صوفية . ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف ، والجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق . والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال إنه من الصوف ، وتصوف : إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص — فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف — ومن قال إنهم منسوبون إلى « صفة » مسجد رسول الله (ص) فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو : الصوفي . — ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . — وقول من قال إنه مشتق من : الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى : الصف » « الرسالة القشيرية » ص ١٢٦ طبع صبيح ، القاهرة بدون تاريخ) .

الكلمتين العربيتين « صوفي » و « صافي » ترجع إلى نفس المصدر ، مثل الكلمتين اليونانيتين σοφός (= كليم) و σαφής (= صافي) واضح ، متميز ، ظاهر) .

لكن رفض هذا الرأي ف ا . ج . تولك [1] في سنة ١٨٢١ .

غير أن أدلبرت مركس جاء فأيّد رأيَ يوسف فون همّر وهو إرجاع كلمة صوفية إلى الكلمة اليونانية . σοφός

لكنّ البحث الحاسم في هذه المسألة هو ذلك الذي قام به تيودور نيلدكه ، المستشرق الألماني العظيم ، في مقال له نشر في مجلة الجمعية المشرقية الألمانية ZDMG في سنة ١٨٩١ (المجلد رقم ٤٨) ص ٤٥ وما يتلوها) . بيّن نيلدكه أن كلمة σοφός اليونانية غير معروفة في الآرامية ، ولهذا يصعب العثور عليها في العربية نقلاً عن الآرامية . ومن ناحية أخرى نجد في الآرامية وفي العربية الكلمات σοφιστής (سوفسطائي) وفيلوسوفس – φιλόσοφος . والحرف اليوناني σ قد عرّب إلى س، كما هي الحال في معظم أو في كل الأحوال التي عربت فيها كلمات يونانية تحتوي على حرف س اليوناني ؛ ولا تعثر عليها معرّبة إلى حرف ص . فلو كانت كلمة « صوفي » مشتقة من كلمة يونانية ، لكانت الصاد التي في أولها شاذة تماماً . ومن ناحية أخرى ليس ثم دليل حقيقي على أن كلمة « صوفي » مشتقة من (سوفس) σοφός اليونانية، بينما اشتقاقها من كلمة « صوف » العربية تقرّه اللغة العربية والمصادر العربية .

ثم أورد نيلدكه Th. Nöldeke بعد ذلك عدة نصوص من القرنين الأول والثاني للهجرة تدلّ على أن لبس الصوف الخشن كان شائعاً عند

---

(١) F.A.G. Tholuck : **Soufismus sive Theosophia Persarum pantheistica, Berlin, 1821, pp. 30 sqq.**

عامة الناس وخصوصاً عند أولئك الذين سلكوا سبيل الزهد . وعبارة « لَبِس الصوف » ترد مراراً في النصوص القديمة (القرنين الأول والثاني للهجرة) بمعنى أن الشخص زهد في الدنيا وصار زاهداً . وينتهي إلى تأييد ما ذهب إليه السّرّاج وكثيرٌ من المؤلفين المسلمين من أن « الصوفي » نسبة إلى الصوف .

وبرأي نيلدكه — وهو رأي معظم المؤلفين المسلمين كما رأينا — أخذ نيكلسون في مقاله في « دائرة معارف الدين والأخلاق [1] ، ولوي ماسينيون في مقاله عن « التصوف » في دائرة المعارف الاسلامية » [2] . ويُضيف نيكلسون أنه في الفارسية يقال پشمينه پوش » على المتصوف ، ومعناها « لابس الصوف » . والزهّاد المسلمون القدماء الذين كانوا يلبسون الصوف قد استمدوا هذه العادة من الرهبان النصارى . ويورد شاهداً على ذلك أنه حين ورد حمّاد بن سلَمة (المتوفى سنة — ٧٨٤ م) إلى البصرة قال لفرقد السنجي (أو السبخي) الذي تبدّى أمامه في ثوب من الصوف : دع عنك هذه (الشارة) النصرانية [3] . وهذه الثياب التي من الصوف كان يطلق عليها اسم « زيّ الرهبان » . ونسب إلى النبي ﷺ حديث مفاده أن عيسى المسيح كان يلبس الصوف .

ويحدد ماسينيون أول تاريخ لظهور اللفظ « صوفي » بالنصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) مع جابر بن حيان الذي كان يسمى الصوفي وكان له مذهب صوفي خاص (راجع كشيش النسائي المتوفى سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م : « الاستقامة » ، تحت اللفظ) ، ومع أبي هاشم الكوفي ، الصوفي الشهير . وأما الجمع : « صوفية » الذي يظهر في سنة ١٩٩ هـ بمناسبة فتنة صغيرة

---

(١) Reynold A. Nicholson, s.v. **Sufis,** in **Encyclopaedia of Religion and Ethics,** volume XII, p. 10. New-York, 1928.

(٢) Louis Massignon, s.v. **Tasawwuf,** in The **Encyclopaedia of Islam,** vol. IV, p. 681. Leyden, 1934.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٣ ص ٣٤٨ ، القاهرة سنة ١٢٩٣ هـ .

قامت في الاسكندرية (راجع الكندي : « قضاة مصر » ، نشرة Guest ص ١٦٢ ، ٤٤٠) فيدل في ذلك التاريخ – تبعاً للمحاسبي (« المكاسب » ، مخطوط باريس ، ص ٨٧) والجاحظ (« البيان والتبيين » ج ١ ص ١٩٤) على فرقة صغيرة شبه شيعية من الصوفية الذين أصلهم من الكوفة ، كان آخر رؤسائها هو عبدك الصوفي ، المتوفى في بغداد حوالي سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) . واقتصر اسم « الصوفي » آنذاك على من في الكوفة . ولكن بعد مرور ٥٠ سنة كان يطلق على كلّ صوفية العراق (في مقابل « ملامتية» خراسان) . وبعد ذلك بقرنين أطلق اسم « الصوفية » على كل الصوفية المسلمين . ويشير إلى ما أشار اليه نيكلسون من قبل من أن عادة لبس الصوف كانت مسيحية المصدر ، وإن ثم عدة أحاديث رواها الجويباري – وربما كان هو الذي اخترعها – تشير إلى أن النبيّ ﷺ كان يرى أن الصوف هو اللباس اللائق بالرجل المتديّن .

ونودّ أن نعترض هنا على هذا الربط المغتصب في نظرنا – بين لبس الصوف وبين التأثر بالرهبان النصارى . إذ يجب أن يلاحظ أوّلاً ، كما قال القشيري(« الرسالة » ص١٢٦) أن الصوفية المسلمين « لم يختصوا بلبس الصوف» بل كان الأغلب عليهم لبس المرقّعات ، وهي ثياب مؤلفة من قطع مختلفة الأشكال وأنواع الأقمشة والألوان ؛ كما كان البعض يلبس الجلود بفرائها ، وخصوصاً جلود الأغنام والماعز . ويحكي السرّاج [1] أن يحيى بن معاذ الرازي (المتوفى سنة ٢٥٨ هـ) « كان يلبس الصوف والخُلقان في ابتداء أمره ؛ ثم كان في آخر عمره يلبس الخزّ واللّين » ، وأن أبا حفص النيسابوري (المتوفى سنة ٢٦٥ تقريباً)«كان يلبس قميصاً خزّاً وثياباً فاخرة » . ومعنى هذا أن الصوفية المسلمين الأوائل ، الذين يزعم لهم نيكلسون وماسينيون التأثر بلباس الرهبان النصارى ، لم يختصوا بلباس الصوف ، ولا بنوع من القماش

(١) أبو نصر عبدالله بن علي السراج الطوسي : « اللمع » ص ١٨٨ ، نشرة نيكلسون ، لندن سنة ١٩١٤ .

دون نوع . ويقرر السراج هذا بصراحة فيقول : « آداب الفقراء في اللباس أن يكونوا مع الوقت : اذا وجدوا الصوف أو اللّبد أو المرقعة لبسوا ؛ وإذا وجدوا غير ذلك لبسوا . والفقير الصادق أيش ما لبس يحسن عليه ، ويكون عليه في جميع ما يلبس الجلالة والمهابة ، ولا يتكلّف ولا يختار ؛ وإذا كان عليه [1] فضلٌ يؤاسي من ليس معه ، ويؤثر على نفسه إخوانه بإسقاط رؤية الإيثار . ويكون الخُلْقان أحبّ إليه من الجديد . ويتبرّج بالثياب الكثيرة الجيدة ، ويَضَنّ بالخُرَيْقات الخَلَق القليلة ، ويتكلّف للنظافة والطهارة » .

ويلاحظ ثانياً أن الرهبان النّصارى لم يقتصروا على لبس الصوف . بل كان الكثير منهم يلبسون ثياباً مصنوعةً من جلد الماعز أو شعر الجمل [2] . وكان الواحد منهم يشد إلى وسطه زُنّاراً ، ذكرى لما كان يلبسه يحيي المعمدان [3] ؛ وصار هذا الزنار جزءاً أساسياً من لباس الرهبان ؛ وكان من الجلد عادة ويسمى في اليونانية ζωνή ، وفي اللاتينية balteus, Zoma, cinctura cingulum ، و cingulum ، الخ . كذلك اتخــذ الرهبان النصارى غطاءً للرأس سُمّى cucullio, cucullus وكـــان في الأصل الغطاء العادي للرأس عند الفلاحين في الغرب والشرق ، وكان أحياناً منفصلاً وأخرى متصلاً بسائر الدثار ؛ ثم استعملوا غطاءً للأكتاف سُمّي scapulare (من scapula = كتف) ، وإن كان القديس بندكتوس هو أول من استعمله .

ومن هذا نرى أنه لا محل أبداً للربط بين ثياب الرهبان النصارى وبين فكرة تأثر الصوفية المسلمين بهم .

ولكن هذا شيء ، وأمرٌ آخر أن يكون اشتقاق اسم « الصوفية » من لبس

---

(١) ثوب زائد .

(٢) راجع Cassian : De Institutione Coenobiorum I, 8, Patrologia Latina, XLIX, 74.

(٣) «انجيل متى» اصحاح ٣ عبارة ٤ .

الصوف ، فهذا لا يزال أرجح الآراء .

ومن الصوفي اشتُقّ الفعل : « تصوّف » — بمعنى : سَلَك مَسْلَك الصوفي .

ومن أسماء الصوفية أيضاً : الفقراء . ويقول السراج إن « أهل الشام يسمّون الصوفية : فقراء ، ويقولون : قد سمّاهم الله تعالى فقراء ، فقال : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم » الآية (سورة الحشر : ٨) وقوله تعالى : « للفقراء الذين أحْصِروا في سبيل الله » الآية (البقرة : ٢٧٣) [1] » .

ولكن الأصحّ عدم اعتباره مرادفاً للصوفية ، وإنما الفقر مقام من مقامات الصوفية .

كذلك الحال في تسميتهم بالعارفين : فالعرفان مرتبة من مراتب الطريق فحسب ، ولا يصل إليها من الصوفية إلاّ من بلغ درجة عالية في سُلّم الطريق .

وقد يفرّقون بين الصوفي والمتصوف ، كما يفرقون بين الفيلسوف والمتفلسف . وتظهر هذه التفرقة بوضوح في كلمة جميلة للحلاج ، قال : « مَنْ أشار إليه فهو متصوّف ، ومَنْ أشار عنه فهو صوفي » [2] . فالأول لا يزال يفرّق بين الرب والعبد ، والثاني قد اتحد بالذات الإلهية حتى صار يتكلم عنها وباسمها .

---

(١) أبو نصر السراج : « اللمع » ص ٢٦ ، نشرة نيكلسون ، لندن سنة ١٩١٤ .

(٢) المناوي : « الكواكب الدرية » ، أورده ماسينيون في النصوص الحلاجية التي ألحقها بكتابه « بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي » ص ٤٤٠ . باريس ، سنة ١٩٥٤ .

— ٢ —

حدّ التصوف

فإذا انتقلنا الآن من مشكلة اسم التصوف ، إلى مشكلة حدّه ، وجدنا أنفسنا بإزاء حشد هائل من التعريفات جمع منها نيكلسون [1] ٧٨ تعريفاً . لكن الأغلب على هذه التعريفات هو الجانب الأدبي والبلاغي ، دون التحديد العلمي الدقيق . ونجتزىء هنا بشواهد [2] مِنْها للدلالة على هذا :

١ — « سئل الجنيد عن التصوف فقال : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة » ؛

٢ — « وقال الجنيد : التصوف عنوة لا صلح فيها »

٣ — وقال أيضاً : « هم أهل بيت واحد ، لا يدخل فيهم غيرهم »

٤ — وقال أيضاً : «التصوف ذكرٌ مع اجتماع ، ووَجْد مع استماع ، وعملٌ مع اتباع »

٥ — « وقال أيضاً : الصوفي كالأرض : يُطرح عليها كلُّ قبيح ، ولا يخرج منها إلاّ كل مليح ؛

٦ — وقال أيضا : إنه كالأرض : يطؤها البَرُّ والفاجر ، وكالسحاب

---

(١) في مقال له في « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » JRAS سنة ١٩٠٦ ص ٣٠٣ — ٣٤٨ .

(٢) « الرسالة القشيرية » ص ١٢٧ وقارن أيضاً « اللمع » للسراج ص ٢٥ .

يُظِلّ كل شيء ، وكالقطر يَسْقِي كلّ شيء » .

٧ — « وقال سهل بن عبد الله : الصوفي مَنْ يرى دمه هدراً ، ومِلْكه مباحاً » .

٨ — « وقال الثوري : نعت الصوفي : السكون عند العَدَم ، والإيثار عند الوجود » .

٩ — « وقال الشبلي : التصوف الجلوسُ مع الله بلا هَمّ » .

١٠ — « وقال الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، لقوله تعالى : « واصطنعتك لنفسي » (سورة طه آية ٤١) قطعه عن كل غير » . ثم قال : « لن تراني » ؛

١١ — وقال الشبلي أيضاً : « الصوفية أطفال ، في حِجْر الحق » .

١٢ — وقال أيضاً : « التصوف بَرْقة مُحْرِقة »

١٣ — وقال أيضا : هو العصمة عن رؤية الكون »

١٤ — « وقال الجريري : التصوف مراقبة الأحوال ، ولزوم الأدب »

١٥ — « سئل ذو النون عن التصوف فقال : هم قومٌ آثروا الله — عز وجل — على كل شيء فآثرهم الله — عز وجل — على كل شيء »

١٦ — « وسئل عمرو بن عثمان المكي عن التصوف فقال : « أن يكون العبد في كل وقت بما هو أَوْلَى به في الوقت » .

١٧ — « وسئل سحنون عن التصوف فقال : « أن لا تملك [١] شيئاً ولا يملكك شيء » [٢] .

---

(١) في المطبوع : أن تملك .

(٢) « الرسالة القشيرية » ص ١٢٧ .

١٨ — « وسئل رويْم عن التصوف فقال : استرسال النَّفْس مع الله تعالى على ما يريد » [١] .

١٩ — « قال أبو يعقوب المزابلي : التصوف حالٌ تضمحل فيها معالم الإنسانية [٢] » .

٢٠ — « وقال رُوَيْم بن أحمد البغدادي : التصوف مبنيٌّ على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار [٢] » .

٢١ — « وقال معروف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق » [٢] .

٢٢ — وقال عبد الواحد بن زيد : الصوفية هم « القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيّدهم مِنْ شَرِّ نفوسهم [٣] » .

٢٣ — « وسئل ذو النّون المصري عن الصوفي فقال : هو الذي لا يُتعبه طَلَب ، ولا يُزْعِجه سَلَب [٣] » .

٢٤ — وسئل ذو النون عن الصوفية فقال : « هم قومٌ آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء [٣] » .

٢٥ — ويلخص السرّاج تعريفات الصوفية بأن الصوفية : « هم العلماء بالله ، وبأحكام الله ، العاملون بما علمهم الله تعالى ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا ، لأن كلَّ واحد قد فَنِي بما وجد [٣] » .

---

(١) « الرسالة القشيرية » ص ١٢٨ .
(٢) السراج : « اللمع » ص ٢٥ .
(٣) السراج : « اللمع » ص ٢٦ — ٢٧ .

وهذه التعريفات ترجع إلى صوفية من القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وتتسم بالطابع العملي السلوكي ، ولا تشير إلى الجانب المتعلق بالمعرفة ، كما أنها لم تعرف بعدُ علاقة الاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود فيما بين الله والصوفي . وكما لاحظ ماسينيون بحق فإنها « غرائب عقائدية وأدبية لا شأن لها بتاريخ معاني هذا اللفظ »[1] .

أ ـ حقيقة التصوف

والحق أن التصوف يقوم في جوهره على أساسين :

١ ـ التجربة الباطنة المباشرة للاتصال بين العبد والرب ؛

٢ ـ إمكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله .

أما الأساس الأول ، وهو التجربة الصوفية ، فيقتضي القول بملكة خاصة غير العقل المنطقي ، هي التي يتم بها هذا الإتصال ، وفيها تتأحّد الذات والموضوع ، وتقوم فيها البواده واللوائح واللوامع مقام التصورات والأحكام والقضايا في المنطق العقلي . والمعرفة فيها مُعاشَة ، لا مُتأمَّلة . ويغمر صاحبَها شعورٌ عارم بقوى تضطرم فيه تغمره كفيض من النور الباهر ، أو يغوص فيها كالأمواج العميقة . ويبدو له أيضاً أن قوى عالية قد غزته وشاعت في كيانه الروحي ، وهو لهذايسميها واردات ، ونفحات علوية ، وفي مرتبة أدنى تدعى خواطر . ومن هنا يشعر صاحب هذه التجربة بإثراء في كيانه الروحي ، وتحررٍ في أفكاره وخواطره ، وانطلاقٍ لطاقات حبيسة عميقة الغور في نفسه . ويصحب هذه الأحوال أحياناً ظواهرُ نفسية غير عادية مثل الشعور بأن ثمة هواتف وأصواتاً يسمعها ، أو تخيل رؤى

(١) لوي ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي » ص ١٥٦ ، باريس سنة ١٩٥٤ .

خارقة ، أو الإحساس بجذبات ومواجيد ؛ وقد تفرط أحياناً فتصبح أحوالاً غير سويّة تماماً كأنها نوبات هستيرية أو صرعات . وقد يستعان على استدعاء هذه الأحوال بوسائل صناعية ، مثل الموسيقى (السماع على حد تعبير الصوفية) والرقص أو تحريك البدن بطريقة منتظمة وبإيقاع متفاوت الشدّة . ولهذا كان للأحوال والمقامات – بالمعنى الاصطلاحي – دور أساسيّ جداً في كل تصوف .

ويدخل في هذه التجربة الباطنة عنصرٌ سلبي هو محاولة الكشف عن دقائق الرياء والشهوة الخفية والشِّرْك الخفي ووساوس الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء ، والخواطر المذمومة .

أما الأساس الثاني فضروري جداً في مفهوم التصوف ، وإلاّ كان مجرد أخلاق دينية . ويقوم في توكيد المطلق ، أو الوجود الحق ، أو الموجود الواحد الأحد الذي يضم في حضنه كل الموجودات ؛ وفي إمكان الاتصال به اتصالاً متفاوتاً في المراتب حتى يصل المرء إلى مرتبة الاتحاد التام ، بحيث لا يبقى ثمّ إلا هو . ومن هنا كان طريق التصوف سُلّماً صاعداً ذا درجات نهايتها عند الذات العليّة ، وكان سَفَراً يرقى في معارج حتى ذروة الاتحاد .

ب) مدى انطباقها على التصوف الاسلامي

فإذا بحثنا الآن في مدى انطباق حقيقة التصوف هذه كما بيّناها ، على التصوف الإسلامي وجدناه في مجموعه يقوم على هذين الأساسين ، وحتى منذ بدايته في القرن الثاني للهجرة .

ذلك أن التصوف الإسلامي منذ رابعة العدوية في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة قد قام على أساس منهج استبطان كامل للنفس في علاقتها بالله ، وعلى أساس محاولة اتحاد بالمطلق أو على الأقل ايجاد صلة خُلّة به وعشق له تسمح ، إذا ما تعالت ، بالاتحاد مع الذات . والتطور في هذا السبيل واضح

مستقيم صُعداً من فكرة العشق الإلهي عند رابعة العدوية في النصف الثاني من القرن الثاني حتى قولة الحلاج المشهورة « أنا الحق » في نهاية القرن الثالث. وتحليل أحوال النفس كان منذ البداية مطلباً أساسياً لهذا التصوف : نجده عند رابعة وعند المحاسبي والكرخي والبسطامي والجنيد والحلاّج ، ويزداد عمقاً وتدقيقاً لدى المكيّ والهروي والغزالي وابن عربي وابن سبعين ، حتى أصبح الشطر الأكبر في كتب التصوف مخصصاً لتحليل أحوال النفس في ملابساتها مع أمور الحياة .

ج) خصائص الطريق الصوفي

وهنا قد يقال : إن تحليل أحوال النفس أمر يقوم به الفلاسفة أيضاً ، والقول بوحدة الوجود موجود في الأفلاطونية المحدثة ومن تأثر بها من مذاهب فلسفية . فكيف نميز الصوفية عن هؤلاء ، والتصوف عن الإلهيات ؟

والجواب عن ذلك أن الصوفية يتميزون من الفلاسفة الإلهيين فيما يلي:

١) أداة المعرفة عندهم هي ملكة خاصة ، تسمى الوجدان أو الذوق intuition أو العيان ، بينما عند الإلهيين هي العقل والبرهان العقلي .

وفي هذا المجال يُفرّقون بين علم الظاهر ، وعلم الباطن . ويقصدون بعلم الظاهر أساساً علم الشريعة لأنّه يتعلق بالأعمال الظاهرة ، كأعمال الجوارح الظاهرة وهي العبادات والأحكام الشرعية . أمّا علم الباطن فيتعلّق بالأعمال الباطنة ، « كأعمال القلوب وهي المقامات ، والأحوال مثل التصديق والإيمان واليقين ، والصدق والإخلاص ، والمعرفة ، والتوكل ، والمحبة ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والإنابة ، والخشية ، والتقوى ، والمراقبة والفكرة ، والاعتبار ، والخوف والرجاء ، والصبر والقناعة ، والتسليم والتفويض ، والقُرْب والشوق ، والوجد والوجل ، والحُزْن والندم ،

والحياءُ والخجل ، والتعظيم والإجلال والهيبة »[1] . وواضح أن علم النفس عند الفلاسفة والنفسانيين لا يعنى بهذه المعاني ، فهي إذن من مميّزات علم الباطن عند الصوفية . إن علم النفس الصوفي دراسة لأحوال النفس في علاقتها بالله .

ويرتبط بهذا أيضاً معنى المشاهدة ، فيقولون « فلان يشاهد العلم ، وفلان يشهد الوجد ، وفلان يشاهد الحال . ويريدون بلفظ « الشاهد » : ما يكون حاضر قلب الإنسان . وهو ما كان الغالب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائباً عنه . فكل ما يستولي على قلب صاحبه ذِكْرُه : فهو يشاهده[2] » وربما كانت أقرب الكلمات الاوربية اليها كلمة Erlebnis الألمانية .

« والمعرفة » التي يصل اليها الصوفي هي إذن معرفة مباشرة بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين . إنها معرفة فوق عقلية ، لا يحوزها إلاّ من سلك سبيل التصوف ، وألهم المَعْرفة المباشرة ؛ ومن هنا أيضاً تسمى المعرفة « كشفاً » . ولهذا يرى الصوفية أن هذه المعرفة هي « علم الصّديقين ، وان مَنْ كان له منه نصيبٌ فهو من المقرّبين ، وينال درجة أصحاب اليمين »[3] . وهي من مواهب الله وكرمه وفضله ، ولا تأتي إلا بعد طهارة القلب وتزكيته ؛ هنالك تفيض عليه الأنوار من قِبَل الواحد الحق . وإذا وصل المرء إلى هذه الدرجة سُمّي « عارفاً » .

وقد خصّ ابن سينا في كتاب « الإشارات والتنبيهات »[4] العارفَ بعدة إشارات وتنبيهات تعد في الذروة من حيث الإيجاز والثراء في المعنى .

---

(١) أبو نصر السراج : « اللمع » ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) « الرسالة القشيرية » : ص ٤٤ .

(٣) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » ج ١ ص ١٧٣ ، القاهرة سنة ١٣١٠هـ بالمطبعة الميمنية بمصر .

(٤) ابن سينا : « الاشارات والتنبيهات » ، ج ٣ في علم ما بعد الطبيعة النمط التاسع ، ص ٣٧٥ ، ٣٩٥ ؛ تهران سنة ١٣٧٩ هـ ، مطبعة الحيدري .

والمعرفة بهذا المعنى تناظر مـــا يعرف بالغنوص γνῶσις في العصر المسيحي الهلّيني : فهذه الكلمة تدل في كتابات من عرفوا « بالغنوصيين » على رؤية الحق مباشرة ، لا عن طريق البحث والبرهان . والغننوص يقوم على أساس أن الإنسان لا يستطيع بقواه العادية الوصول إلى المعرفة العليا ، ولهذا يحتاج إلى مصدر عالٍ لإيصالها إليـــه . ولا يستطيع المرء تحصيـــل الاستعداد للاتصال بهذا المصدّر إلاّ إذا تطهر قلبه . يقول فالنتينوس، وهو من أكبر الغنوصيين : « من له قلب مطهّر ، يشعّ بالنور ، هو الذي يظفر برؤية الله » .

٢) كذلك يتميزون فيما يتعلق بالقول بوحدة الوجود ، بأنهم يهدفون أساساً ومنذ البداية إلى الوصول إلى هذا الاتحاد ، ولا يقتصرون على معرفة أن الوجود واحد ، أو أن الله هو الكل في الكل ؛ وسلوكهم كله مقود منذ البداية لهذه الغاية .

وبعبارة أوضح نقول إن المهم عند الصوفي في القول بوحدة الوجود الاتحاد بالذات الالهية أو بالواحد ؛ أما عند الفيلسوف الإلهي القائل بوحدة الوجود فإن المهم هو معرفة ترتيب الكون وكيفية تركيبه بصدوره عن الواحد في صدورات متوالية يتدفق بعضها من بعض في مراتب، فوحْدةُ الوجودِ عند الفيلسوف الإلهي نظريةٌ في الكون ، وعند الصوفي أساسٌ يستند إليه في تجربة الاتحاد . الأول يسعى لإدراك الوحدة ، والثاني يفترضهـــا مقدماً ويسلك الطريق لتحقيقها بنفسه في تجربته الذاتية . الأول يضع النظرية ، والثاني يعيشها في تجربة حيّة . ذلك أن التصوف يقوم أساساً على السلوك ، والممارسة ، والتجربة الحيّة . بينما الإلهيات لا شأن لها بالعمل والممارسة ، بل هي علم نظري خالص . وصاحب الإلهيات هو الذي يُثْبِت نظرية وحدة الوجود ؛ وليس للصوفي ، بما هو صوفي ، أن يُثْبِتها ؛ بل عليه أن يتلقاها مُسلّمة من صاحب العلم الإلهي ، ثم أن يعانيها تجربة حيّة .

د) الدور الاجتماعي للتصوف الإسلامي

وهذا الجانب العملي يقودنا إلى الحديث عن الدور الاجتماعي للتصوف الإسلامي ، وهو دورٌ قد أبرزه ماسينيون في مقدمة كتابه : « بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي » [1] فقال إن منهج الاستبطان الذي يقوم عليه ، وبه أحيا الإسلامَ وعلومه على حد تعبير الغزالي ، يحيل الصوفية إلى اطباء نفسانيين يعملون على شفاء بلايا الآخرين . ذلك لأن الصوفية ، كما يقول المحاسبي في كتاب « المحبّة » قد رنوا بأبصارهم ، بفضل ضياء الحكمة الإلهية ، إلى المناطق التي تنمو فيها الأدوية . وقد علّمهم الله كيف يفعل الدواء ، فبدأوا بشفاء قلوبهم ، وأمرهم حينذاك بأن يواسوا قلوب المحزونين والذين يتألمون . « فالتصوف ليس إذن مجرد أسماء تسرد ، أو وصفات صيدلية ، بل هو علاجٌ بَدَأَ الطبيبُ المعالج فجرّبه على نفسه ، ابتغاء أن يفيد به الآخرين . والتصوف كما يقول (أبو الحسين) النوري ليس نصوصاً وعلوماً نظرية ، بل أخلاق . أي أنه قاعدة للحياة . وكما يقول الجُنَيْد : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » [2] .

ومن هنا أتت الأهمية الاجتماعية للتصوف الإسلامي : إنها جاءت من قيمته الطبية النفسية المفترضة . فهل استطاع شيوخه ، حسبما زعموا ، أن يَستقوا من حياتهم الباطنة الوسائل لعلاج آلام القلوب ، وتضميد جراح الجماعة وقد مزّقتها رذائل أعضائها غير الصالحين ؟ الوسيلة الوحيدة الميسورة لنا للفحص عن الحقيقة التي استهدفتها تجارب الصوفية المسلمين هي النظر في نتائجها الاجتماعية : أعني قيمتها ، وأثر طريقتهم في الحياة بالنسبة إلى علاج

---

(١) L. Massignon : **Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, p. 16 sqq. Paris, 1954.**

(٢) « الرسالة القشيرية » ص ٢٠ . القاهرة ، سنة ١٩٥٩ ، مطبعة الحلبي .

الهيئة الاجتماعية – دون أن ندع استطلاعنا يستغرق في السّبحات المفاجئة الغريبة التي تنطلق من هذه العقول ، في حالات الوجد المجرد ، التي يفخر البعض إبّان وحدتهم فيها بأن ينسوا في الله أنهم ليسوا بحاجة إلى رحمة الناس .

وقوة التصوف الاسلامي الدائمة ليست في الانعزال المترفع المحزون الذي فيه يصيح المجذوب [1] :

بل هي في الشوق الخارق إلى التضحية في سبيل إخوانه ، في الوجد العالي للاستشهاد الذي تغنى به الحلاج حين قال [2] :

فالصوفي يخدم نفسه ، كما يخدم الآخرين : يكتشف عيوب نفسه ، ليعالجها في نفسه وفي الغير ؛ ويرتفع بمستوى حياة الروحية ، ليجعل منها نموذجاً يحتذيه ، ليس فقط أصحابه في الطريقة، بل وسائر الأمّة . ويستهلك نفسه في الحب الإلهي ليستطيع الشفاعة للآخرين عند مولى الشفاعة . ويُستَشْهد، ابتغاء أن يكون شاهداً على الحق . وما أروع ما قال الحلاج وهو مصلوب على الجذع ، لما سئل : « ما حد التصوف » فقال : ما ترون ! » [3] أي الاستشهاد في سبيل الحق .

ومن هنا رأينا الحلاج في يوم الوقوف بعرفات ، حين يتوجه كل حاج بالدعاء إلى الله ليغفر ذنوب أهله وأقاربه – يدعوهو للأمة الاسلامية جمعاء . كذلك نرى أن ابن سبعين يلقي السلام على المؤمنين والكافرين على السواء .

---

(١) أورده ابن عجيبة في الفتوحات جـ ١ ص ٤٦ .

(٢) أورده ماسينيون في « عذاب الحلاج » ص ٣٠٣ ، ٧٦٨ .

(٣) ابن الجوزي : «مرآة الزمان» ، أورده ماسينيون في « بحث » ... ص ٤٣٩ ، باريس سنة ١٩٥٤ .

هـ) دور الصوفية في نشر الدعوة الاسلامية

وللصوفية وبخاصة للطرق الصوفية المنتظمة ، دور هائل في نشر الدعوة الإسلامية في خارج دار الاسلام .

ونأخذ مثالاً على ذلك ما حدث في الهند . فكما قال ماسينيون بحق : « إن الإسلام لم ينتشر في الهند بواسطة الحروب ، بل انتشر بفضل الصوفية ، والطرق الكبرى ، وهي : الجشتية ، والكُبْرَوية ، والشّطارية والنقشبندية » ذلك لأن « التوفيق الاجتماعي بين الظافرين والمقهورين لا يتم إلاّ بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطالبون ، ويُقْرِضون ولا يأملون في شيء » . وقد كان للتصوف الإسلامي في الهند الفضل في المصالحة بين الطوائف ، كما يتجلى ذلك في تصوف باباكيور (المتوفى سنة ٩٧٩ هـ / ١٥٧١م) في مدينة جواليور ، وما قام به كبير (المتوفى سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م) الذي تأثر به السيكه (السّيخ) فمزجوا بين تصوف كبير الإسلامي وبين الهندوكية ، وأدمج مؤسس مذهبهم ، نانك (المتوفى سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م) في كتابه الذي يقدسه السيكه : « ادي جرنته » Adi Granth — قصائد صوفي مسلم هو فريد شكر گنجي .

وانتشار الإسلام في افريقية السوداء جنوبي الصحراء : السنغال ، ومالي ، والنيجر وغينيا وغانا ونيجريا وتشاد — إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية ، خصوصاً التجانية والسنوسية والشاذلية . فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الإفريقية وقلبها .

ومرد هذا خصوصاً إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد وعيشهم بين العامة والفقراء ، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى

(١) ماسينيون : « بحث في نشأة » ... ص ٨٦ — ٨٧ . باريس ، سنة ١٩٥٤ .

والصلاح ، إلى جانب ما تقوم به هذه الطرق من خدمات اجتماعية وألوان من البرّ والإحسان والمواساة والمؤاخاة . « إن النموذج المقنع الذي تَبَدّى عنه الصوفيةُ المسلمون وشيوخ الجشتية والشطّارية والنقشبندية ، وقد تعلموا اللغة الشعبية واختلطوا بحياة عامة الناس ، نقول : إن هذا النموذج هو الذي جعل العديد من الهندوكيين والملاويين (سكان الملايو) يعتنقون الإسلام ، وليس التعصب المستبدّ للغزاة (المسلمين) الذين كانوا يتكلمون لغة أخرى أجنبية » [1] .

* * *

ويتصل بهذا أيضاً دور الصوفية في الجهاد بالمرابطة في الثغور الإسلامية لحمايتها ضد المعتدين على حدود دار الإسلام . والتصوف الإسلامي نشأ وتطور واستمر إلى عهد قريب مجاهدا مرابطاً . والرباطات ، وهي قلاع حربية حصينة ، كانت في أصلها وتطورها خانقاهات للصوفية المرابطين فيها للجهاد ضد أعداء المسلمين . فعبادان كانت في الأصل أول رباط تجمع فيه « متطوعة » البصرة للدفاع عن هذا الثّغر الإسلامي . وفيه رابط عدد كبير من كبار مشايخ الصوفية ، مثل مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٨ هـ ؛ راجع « تاريخ بلخ » [2] ، مخطوط باريس برقم ١١٥ في المخطوطات الفارسية القديمة، ورقة ٥٢ أ) ، وحمّاد بن سَلَمة (المتوفى سنة ١٦٧ ، راجع « الاعتدال » للذهبي جـ ١ ص ٢٧٨) ، وبشر الحافي (راجع : الغزالي : « كيمياء السعادة » ، ترجمة رتّر ص ١٧١) .

ورباط المنستير في تونس (القرن الثاني الهجري) ورباط الفتح (عاصمة دولة المغرب حالياً) ومئات غيرها كانت حصوناً حربية وخانقاهات صوفية

---

(١) ماسينيون : « بحث في نشأة » ... ص ١٥ . باريس ، سنة ١٩٥٤ .

(٢) « تاريخ بلخ » = « فضائل بلخ » ص ٨٩ . نشرة عبد الحي حبيبي ، تهران سنة ١٣٥٠ هـ ش .

في وقت واحد معاً. كذلك الزوايا في المغرب اتخذت نفس معنى الرباط . وكثير من الرباطات مرتبط بشيوخ صوفية كبار. فرباط العباد بالقرب من تلمسان في الجزائر كان حول قبر سيدي أبي مَدْين ، ورباط تافرطست على حدود وادي سبو في المغرب يحتوي على مسجد وقبر لأميرين من بني مرين ، ورباط تسكيدلت في جنوب غربي وهران يضم قبر أحد الأولياء من بني ازناسن [1] . وفي المشرق أنشأ نور الدين زنكي في سنة ٥٤٣/١١٤٨ الخانقاه القديم في حلب .

ومحي الدين بن عربي لعب دوراً هاماً في حث سلاجقة الروم على محاربة الصليبيين [2] .

و) النزعة الانسانية العالمية في التصوف الاسلامي

ويمتاز التصوف الإسلامي بنزعة إنسانية عالمية منفتحة على سائر الأديان والأجناس . وإذا كان الإسلام في جوهره ديناً منفتحاً على كل الأجناس لا فرق عنده بين مسلم ومسلم يختلفان جنساً أو لغة أو مكاناً أو زماناً ، فإن الصوفيّة المسلمين قد وسّعوا من الآفاق التي يستشرف إليها الإسلام ، فامتدوا بها إلى الأديان الأخرى :

فأبو يزيد البسطامي يدعو الله لجميع الناس ، ويلتمس منه أن يبسط رحمته على النوع البشري كله ، ويود لو يتشفع للناس كافّة ، لا للمذنبين من الأمة الإسلامية وحدهم ، بل لكل الخطاة بأيّ دين دانوا . ويودّ لو تحمّل عن الخطاة جميعاً العقاب ، فاتّسع وجودُه ليشمل النار كلها ، فلا يبقى فيها موضع لغيره .

---

(١) راجع G. Marçais : « Note sur les ribâts en Berbérie » in Mélanges René Basset, Paris, 1925, vol. II, 395-430.

(٢) راجع ترجمتنا لكتاب أسين يلاثيوس : « ابن عربي ، حياته ومذهبه » القاهرة ، سنة ١٩٦٥ .

أ ــ ومن كلماته المشهورة في هذه المعاني : « أنه اجتاز بمقبرة اليهود فقال : معذورون ، ومرّ بمقبرة المسلمين فقال : مغرورون [1] » .

ب ــ « جاز أبو يزيد على مقابر اليهود فقال : ما هؤلاء حتى تعذّبهم ؟ كُفٌّ ! عظامٌ جرت عليهم القضايا . اعفُ عنهم ! » [2] .

جـ ــ قال أبو يزيد : إلهي ! إن كان في سابق علمك أن تعذّب أحداً من خلقك بالنار ، فعظّم خلقي فيه (أي في النار) حتى لا يَسَع معي غيري » .

د ــ « ما النار ؟! لأستندنّ إليها غداً وأقول : اجعلني لأهلها فداءً ، أو لأبلعنّها ! ــ ما الجنّة ؟ لعبة صبيان ! [3] » .

هـ ــ « لو شفّعني الله في الأوّلين والآخرين ، لم يكن ذلك عندي بكثير : غاية الأمر أنه شفّعني في لقمة طين » .

ومحي الدين ابن عربي عبّر عن هذه النزعة الكلية في أبياته المشهورة:

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة : فمرْعىً لغزلانٍ ، وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثان ، وكعبةُ طائف وألواحُ توراةٍ ، ومصحفُ قرآن
أدين بدين الحبّ ، أنّى توجهت ركائبُه فالحب ديني وإيماني [4]

---

(١) السراج : « اللمع » ص ٣٩١ ، نشرة نيكلسون ، سنة ١٩١٤ .
(٢) ماسينيون : « مجموع لنصوص غير منشورة خاصة بالصوفية المسلمين » ص ٣٠ — ٣١ . باريس سنة ١٩٢٩ .
(٣) ماسينيون ، المرجع نفسه ص ٣١ — ٣٢ .
(٤) « ترجمان الأشواق » لابن عربي ، ص ٣٩ — ٤٠ . بيروت ، سنة ١٣١٢ هـ .

وكثيراً ما ردّد جلال الدين الرومي هذا المعنى في قصائده ، ونذكر منها :

چه تدبیرای مسلمانان کهمَنْ خودرا نمیدانَم
نه تَرْسانه يَهودَیَم مننه كَبْرَم نهمسلمانَم
نه شرقیّم نه غربیّم نه علویم نه سُفْلیم
نه ز أرکان طبیعیّم نهاز أفلاكِ گردانَم
نه ازهِنْدم نه أزچینم نه ازبلغار وسقسینم
نه ازمُلك عراقینَم نه ازخاكِ خُراسانَم
نِشَانَمْ بي نشان باشَدِ مکانَمْ لامکان باشد
نهتنْ باشد ، نهجان باشْد ، که مَنْ خودجان جانانَمْ
دوئي را چون برون كرْدَم ، دوعالم رايكي دیدَمْ
يكي بينم ، يكي جويم ، يكي دانَمْ ، يكي خوانَمْ

وترجمتها :

« أيها المسلمون ! ليت شعري ما التدبير ؟ أنا لا أدري من أنا :

فلا أنا مسيحي ولا يهودي ولا زرداشتي ولا مسلم
ولا شرقي ولا غربي ، ولا علويّ ولا سفلي
ولا أنا من عناصر الطبيعة ، ولا أنا من الفلك الدوّار
ولا أنا هنديّ ولا صيني ولا بلغاري ولا من سقسين
ولا عراقيّ ولا من أرض خراسان
علامتي بلا علامة ، مكاني بلا مكان
ولا أنا جسم ولا روح ، فنفسي روح الأرواح

---

(١) « شمس الحقائق » مختارات من كليات ديوان شمس تبريز لرضاولي خان هدايت ، ص ٢٥٧ . طبعة تبريز ، ١٣١٦ شمسية . وتوجد في « كليات شمس تبريز » ص ٤٦٠ ، طبع الهند ، مطبعة منشي نول كشور في لكهنو ، مع زيادات واختلاف في الرواية .

لما لفظت الاثنينية رأيـت العالـم واحـــداً ،
إني أرى واحداً ، وأنشُد واحداً وأعلم واحداً وأقرأ واحداً [١]

وفي هذه المعاني أيضاً يقول ابن الفارض في تائيته المشهورة :

وما عقد الزنار حكماً سوى يدي ... فإن حُلّ بالاقرار بي فهي حلّت
وإن نـار بالتنزيل محراب مسجد ... فما بار بالانجيل هيكل بيعة
وأسفار تـوراة الكلـيم لقومه ... يُناجِي بها الأحبار في كل ليلة
وإن خرّ للأحجار في البُدّ عاكف ... فلا وجه للإنكـار بالعصبيّة [٢]

فهو يجمع بين تجارب النصارى واليهود والبراهمة ويرى فيها فروعاً لينبوع واحد ، هو التقوى الكاملة المبنية على أساس وحدة الوجود .

* * *

وهكذا يحقق الصوفية المسلمون — وإلى أعلى درجة — ذلك المجتمَع المفتوح société ouverte الذي تحدث عنه برجسون في كتابه المشهور : « ينبوعا الأخلاق والدين » ، لأنهم منفتحون على كل التجارب الدينية الانسانية ، متعاطفون مع سائر التيارات الروحية ، مستشعرون للاخوة الإنسانية الجامعة بين الناس جميعاً على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

---

(١) ترجم نيكلسون هذه القصيدة بتصرف كبير في ما ترجمه من « قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز » (ص ٣٤٤) ، ومن هنا جاءت ترجمة د . أبي العلا عفيفي عن ترجمة نيكلسون غير متمشية مع الأصل الفارسي (راجع « في التصوف الاسلامي وتاريخه » دراسات قام بها نيكلسون ، وترجمها عفيفي ، ص ٩٥ ، القاهرة سنة ١٩٥٦) .

(٢) شرح الكاشاني على « تائية ابن الفارض »، ص ٤٦٣ — ٤٦٤ . طبع حجر سنة ١٣١٩ هـ . الأبيات أرقام ٧٣٢ — ٧٣٥ . وعقد الزنار كناية عن اعتناق المسيحية واليهودية والمجوسية . والبد هو الصنم الهندوكي والبوذي ، والمقصود : بيت أو معبد البد . وقد ترجم « التائية » إلى الألمانية نظماً همر — بورجشتال Hammer-Purgstall في فينا سنة ١٨٥٤ ؛ وإلى الإيطالية Ignazio di Matteo (روما سنة ١٩١٧) . وعلق على هذه الترجمة ك. أ . نلينو Nallino في RSO جـ ٨ (روما ، ١٩١٩ ١٩٢٠) ؛ وترجمها إلى الانجليزية نيكلسون في كتـابه « دراسات في التصوف الاسلامي » ص ١٩٩ — ٢٦٦ ، كبردج سنة ١٩٢١ .

— ٣ —
هل نشأ التصوف الإسلامي تحت مؤثرات أجنبية ؟

اهتم الباحثون من الأوربيين في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ببيان ما سموه بالمؤثرات الأجنبية في نشأة التصوف الإسلامي وتطوره . وكانت دوافعهم إلى تلمّس هذه المؤثرات المزعومة عديدة :

١– التأثير الايراني

فمنهم من بدأ بحكم سابق هو أن العقلية السامية عاجزة عن الفنون والعلوم ، أولاً لفقرها في الخيال ، وثانياً لافتقارها إلى التدقيقات الروحية والمرونة العقلية واللغوية . ولهذا رأوا أن ما نشأ في داخل الأديان الساميّة من تصوف إنما يرجع إلى رد فعل عنصري ولغوي وقومي من جانب الشعوب الآرية المقهورة التي غلب عليها سلطان الساميين. وعلى رأس من قالوا بهذه النظرية جو بينو [١] Gobineau وفريدرش دلتش [٢] ، ورينان [٣] Renan

(١) راجع Gobineau : Trois ans en Asie, 1859; Les Religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale, 1865.

(٢) F. Delitzsch : Die grosse Täuschung.

(٣) E. Renan : Histoire générale et système comparé des langues sémétiques, Paris.

وبول دلاجـــارد ، وفي إثرهم ربتسنشتن[1] واينسوسترانسن [2] وبلوشيه [3] Blochet و ا . ج . براون [4] . وكلهم يعتنقون فكرة سموّ الآرية على السامية ، ويفسرون بالعقلية الآرية كما تصوّروها كثيراً من الظواهر الحضارية والفكرية والعقائدية في تاريخ الإسلام .

ويدخل في هذا التيار اتجاهُ أولئك الذين يسعون للربط بين التصوف الإسلامي عند السهروردي المقتول وبين الزرادشتية ، وأحدثهم هـ . كوربان في كتابه « في الإسلام الإيراني » (جـ ٢ ، باريس سنة ١٩٧١) .

٢ ــ التأثير المسيحي والعبراني

ومنهم من تأثر بأصوله ونزعاته الدينية ، يهودية كانت أو مسيحية ، فراح يتلمس المشابه الظاهرية أو الخفية ، يثبت وجود تأثير وتأثر :

٢) فقال جيجر [5] ، وكوفمن [6] ، ومركس [7] ، وفنسنك [8] ،

---

(١) Reitzenstein : Das iranische Erlösungsmysterium; Poimandres, Leipzig, 1904; —, Schäder : Studien zum antiken Synkretismus aus, Iran und Griechenland.

(٢) Inostranzev : **Iranian influence on Moslem literature,** travel. by G.K. Nariman, Bombay, Taraposevala, 1918.

(٣) Blochet : Etudes sur l'ésotérisme musulmane, 1e série ap. **Journal asiatique,** Paris 1902; 2e série ap. **Muséon,** Louvain. 1910.

(٤) E.G. Browne : **Literary History of Persia.**

(٥) Geiger : **Was hat Mohammed aus dem Judenthum aufgenommen ?** 1833.

(٦) D. Kaufmann : **Geschichte der Attributenlehre in der jüdischen Religion, 1877.**

(٧) Ad. Merx : **Grundlinen der Sufik,** 1892.

(٨) Wensinck : **Book of the dove,** introduction. Leiden.

وهرشفلد [1] ، وجولدتيسهر [2] بتأثير يهودي ؛

ب) وقال بكَر [3] ، وأسين بلاثيوس [4] ، وإلى حدّ ما : نيكولسون [5] بتأثير مسيحي .

وقد ساقوا للدلالة على هذا التأثير والتأثر أدلّة منها :

١ — التشابه في بعض المظاهر مثل : استعمال الخرقة ، في مقابل ما يستعمله الرهبان من ثوب على الكتفين scapulaire ، واستعمال السبحة منذ أن ابتدأ بها الجُنَيْد ، واستعمال الخيط الأزرق والخيط الأسود للدلالة على إنهاء الصوم ، كما في التلمود ؛ واستعمال الصوف .

٢ — التشابه في بعض الموضوعات : محاسبة النفس ، مثلاً .

٣ — مشابه لغوية آرامية التركيب مثل : ناسوت ، رحموت ، رهبوت ، لاهوت ، جبَرَوت ، ربّاني ، روحاني ، نفساني ، جثماني ، شعشعاني؛ وحدانية ، فردانية ، رهبانية ؛ عبودية ، ربوبية ، ألوهية ، كيفوفية .

٤) الاختلاط بين المسلمين والنصارى العرب في الحيرة والكوفة ودمشق ،

---

(١) Hart. Hirschfeld : **Jüdische Elemente.** 1878; **New Researches,** 1902.

(٢) I. Goldziher : **Vorlesungen über den Islam,** pp. 87-133. 2. Aufl. 1925 « Materialen zur Entwicklungsgeschichte des Sufismus », in WKM, 1899, vol. 13.

(٣) C.H. Becker : **Der Islam,** III. 347-399; **Islamstudien,** I, 432-449, Leipzig 1924.

(٤) Asin Palacios : **Bosquejo.** **El Islam Cristianizado,** Madrid, 1931; **La Espiritualidad de Algazel** y su sentido Cristiano, Madrid 1934-5.

(٥) Nicholson : Article on « Sûfis » in **Encylopaedia of Religion and Ethics,** New-York, 1928.

ونجران ، وخصوصاً في مضارب القبائل العربية التي انتشرت فيها المسيحية قبل الإسلام وبعده : بنو تغلب ، قضاعة ، تنُوخ . وتتحدث بعض الأخبار عن أن بعض الصوفية المسلمين الأوائل كانوا يستشيرون بعض الرهبان النصارى في أمور الدين : كما يروى عن عبد الواحد بن زيد ، والعتّابي ، وأبي سليمان الداراني [١] .

٥) ما يرويه الصوفية المسلمون الأوائل من أقوال ينسبونها إلى المسيح [٢] ،

مواعظ رُهْبانٍ وذِكْرُ فِعالِهِمْ
وأخبارُ صِدْقٍ عن نفوسٍ كوافر

مواعظُ تشفينا فنحن نحوزها
وإن كانت الأنباءُ عن كل كافر

مواعظُ برٍّ تورث النفس عِبْرةً
وتتركها وَلْهاءَ حول المقابر

مواعظ إمّا تسأم النفسُ ذكرها
تُهيِّج أحزاناً من القلب ثائر

فدونك يا ذا الفهم ، إنْ كُنْتَ ذانُهًى
فَبادِرْ ، فإن الموت أولُ زائر

---

(١) راجع : « محاضرات الأبرار » لابن عربي جـ ٢ ص ٣٥٣ – ٣٥٤ .

(٢) وقد جمعها أسين بلاثيوس بعنوان Logia D. Iesu... agraphia ونشرها في مجموعة « الآباء الشرقيين » Patrologia Orientalis .

(٣) أوردها أبو نعيم في « حلية الأولياء » في الفصل الذي عقده لأبي عبدالله محمد بن إسحق (وليس : محمد بن فرج عابد ، كما يقول ماسينيون في « بحث في نشأة المصطلح الفني » ... ص ٧٢ تعليق ١٠) جـ ١٠ ص ١٥١ . وقد أخطأ ماسينيون في فهم قوله : « إن كنت ذا نهى » فترجمه خطأ هكذا : si tu sais t'interdire le mal – إذ فهم كلمة نهى (بضم النون وفتح الهاء) على أنها نهي (بفتح النون وسكون الهاء) .

وقد وجدها ابرهيم بن الجنيد على ظهر كتاب لمحمد بن الحسين البرجلاني ، ويغلب على الظن أنه كتاب : « الرُّهبان » للبرجلاني نفسه (المتوفى سنة ٢٣٨ هـ) .

وفي نفس الموضع (ج ١٠ ص ١٥١) يروي أبو نعيم أن رجلاً قال لعبد الله بن الفرج العابد : « يا أبا محمد ! هؤلاء الرهبان يتكلمون بالحكمة وهم أهلُ كفر وضلالة ، فبِمَ ذلك ؟ قال : ميراثُ الجوع — مُتِّعْتُ بِك ، ميراثُ الجوع — مُتِّعْتُ بك » .

ويُسْتخلص من هذا أن الصوفية المسلمين لم يجدوا حَرَجاً في الاستماع إلى مواعظ الرهبان وأخبار رياضاتهم الروحية والاستفادة منها ، رغم أنها صادرة عن نصارى . ونحن نجد فعلاً كثيراً من أخبار رياضات الرهبان وأقوالهم في ثنايا كتب الصوفية المسلمين وطبقات الصوفية

٣ — التأثير الهندي

والاتجاه الثالث هو القول بتأثير الهند . وأول من أشار إليه وليم جونز (١) الذي قارن بين مذهب وحدة الوجود في التصوف الاسلامي المتأخر وبين مذهب الفيدانتا ، كما قارن بين قصائد جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وبين الجيتا جوفنـــدا . ثم تلاه تولك ، ثم ألفرد كريمر (٢) ، ثم روزن ، وجولد تسهر (٣) ، وماكس هورتن (٤) ، وأخيراً مورينو .

---

(١) W. Jones : **Asiatic Researches**, III, 353 sqq., 376; London, 1803.

(٢) A. Kremer : **Culturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams.** 1873. Engl. tr. in Khuda Bukh : Isl. civilization, vol. I, pp. 112-120, Calcutta. 1929.

(٣) I. Goldziher : **Vorlesugen über den Islam**, pp. 87-133. 2. Aufl. 1925.

(٤) M. Horten : « Indische Strömungen ».

وكان أبو الريحان البيروني هو الرائد في هذا المجال . فهو أول من عقد مقارنات وكشف عن مشابه بين مذاهب الهنود الصوفية ومذاهب الصوفية المسلمين ، بين عديد من نصوص پتنجلى وبين أقوال للبسطامي والحلاج والشبلي .

قال البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » :

« وإلى طريق باتنجل ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق ، فقالوا : ما دمت تُشير فلستَ بموحِّد حتى يستولي الحقُّ على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقى مشيرٌ ولا إشارة . ويوجد في كلامهم ما يدلُّ على القول بالاتحاد ، كجواب أحدهم عن الحق : « وكيف لا أتحقق مَنْ هو أنا بالأنية ، ولا أنا بالأينية ؟! إن عُدْتُ فبالعودة فُرّقْتُ ، وإن أهملت فبالإهمال خففت وبالاتحاد ألفت » . وكقول أبي بكر الشبلي : « اخلَعْ الكلَّ تَصِلْ إلينا بالكلية ، فتكون ولا تكون أخبارك عنا وفعلك فعلنا » . وكجواب أبي يزيد البسطامي — وقد سُئِل : بِمَ نِلْتَ ما نلت ؟ — فقال : إني انسلختُ من نفسي كما تنسلخ الحيّةُ مِنْ جِلْدها . ثم نظرتُ إلى ذاتي فإذا أنا « هو » . وقالوا في قول الله تعالى : «فقلنا اضربوه ببعضها » : « إن الأمر بقتل الميّت لإحياء الميّت إخبارٌ أنّ القلب لا يحيا بأنوار المعرفة إلاّ بإماتة البدن بالاجتهاد حتى يبقى رسماً لا حقيقة له ، وقلبك حقيقة ليس عليه أثرٌ من المرسومات » . وقالوا : « إن بين العبد وبين الله ألف مقام من النور والظلمة . وإنما اجتهاد القوم في قطع الظلمة إلى النور . فلما وصلوا إلى مقامات النور لم يكن لهم رجوع » [1] .

ويقارن بين ما في كتاب كيتا Gita من الاستغراق في الفكر وبين ما قالته الصوفية في تحديد العشق « أنه الاشتغال بالخلق عن الحق » (ص ٣٧) .

---

(١) أبو الريحان البيروني : « تحقيق ما للهند من مقولة » ص ٤٣ . نشرة ادورد سخاو ، ليبتسك ، سنة ١٩٢٥ .

ويقيم مشابه بين ما في كتاب باتنجل عن قبض الحواس" وبين ما يذهب إليه الصوفية في كتبهم عن بعضهم « أنه وردت علَيْنَا طائفةٌ من الصوفية وجلسوا بالبعد عنا . وقام أحدهم يصلّي . فلما فرغ التفت وقال لي : « يا شيخ ! تعرف ها هنا موضعاً يصلح لأن نموت فيه ؟ » فظننت أنه يريد النوم ، فأومأت إلى موضع ، وذَهَبَ وطَرَح نفسه على قفاه وسكن . فقمتُ إليه وحرّكته ، وإذا أنه قد برد . وقالوا في قول الله تعالى : « إنّا مكنّا له في الأرض » (سورة ١٨ : ٨٣) أنه إن شاء طويت له ، وإن شاء مشى على الماء والهواء يقاومانه فيه ولا تقاومه الجبال في القَصْد » (ص ٤٠ — ٤١) .

ويقرّب ما ذهب إليه صاحب كتاب باتنجل من أن « إفراد الفكرة في وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشيء غير ما اشتغل به ؛ ومَنْ أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناءِ واحدٍ بسببٍ ؛ ومن اشتغل بنفسه عمّا سواها لم يضيع لها نَفَساً مجذوبا ولا مرسلاً . ومَنْ بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوّته البدنية ، فمنح الاقتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء . ..وأحد الثمانية : التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين ؛ والثاني : التمكن من تخفيفه حتى يستوي عنده وطء الشوك والوحل والتراب . والثالث : التمكن من تعظيمه حتى يريه في صورة هائلة عجيبة . والرابع : التمكن من الإرادات . والخامس : التمكّن من علم ما يروم . والسادس : التمكن من الترّأس على أية فرقةٍ طَلَب. والسابع : « خضُوع المرؤسين وطاعتهم . والثامن : انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة » . فيقول البيروني معقّباً على هذا : « وإلى مثل هذا أشارت الصوفية في العارف إذا وصل إلى مقام المعرفة فإنهم يزعمون أنه يحصل له روحان : قديمة لا يجري عليها تغيُّرٌ واختلاف ، بها يَعْلَمُ الغيبُ ويفعل المعجز ؛ وأخرى بشرية للتغير والتكوين » (ص ٣٤) .

بيد أنه يجب أن يلاحظ ، مع ذلك ، أن البيروني يذكر مشابه ويعقد مقارنات ، ولكنه لا يتحدث أبداً عن تأثير وتأثر . ولعل السبب في هذا أنه يعلم علم اليقين أن الصوفية المسلمين ، وبخاصة الحلاج والشبلي والبسطامي ، لم يكونوا على علم بمذاهب الهنود الصوفية ولا على اتصال حيّ بها ؛ بل يرى أنه هو أول من تحدث من المسلمين عن هذه المذاهب وكتب عَنْها ، وأول من عرّفهم بباتنجل والگيتا وباسديو وسانك ، ولا يقيم وزناً للمعلومات الهزيلة عن الهند التي قدّمها أسلافه من الكتاب المسلمين مثل زرقان ، والمسمعي ، والإيرانشهري .

صحيح أنه وجدت علاقات مباشرة بين الهند وبلاد الاسلام في الفترة ما بين سنة ١٠٠ و ١٨٠ هجرية في البصرة ، لكنها اقتصرت على تبادل المعارف العلمية : مثل الزيجات الفلكية التي ترجمها الفزاري في سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) والمعارف الرياضية ، خصوصاً الأعداد وحساب الجيب في حساب المثلثات وبعض المعارف الطبية [١] . ولكن الأمر لم يتجاوز هذا إلى المعلومات الدينية . وإذا كان جرير بن حازم الأزدي قد نشر مذهب السّمنية ، وهو مذهب في الشك في المعرفة ، فإن نجاح هذا المذهب لم يكن مضموناً ، لمنافاته لروح المتكلمين والمفكرين الاسلاميين آنذاك ، ولهذا سرعان ما أصبح مجرد ذكرى تاريخية ، وعلماً على مذهب الشك في المعرفة دون أن يغرز جذوره في الفكر الإسلامي .

لكن هذه الصِّلات سرعان ما توقفت . ذلك أنه ، كما لاحظ ماسينيون ، وجدت الهندوكية نفسها وقد سبقتها في المجال الميتافيزيقي ، بما انطوت عليه من وثنية معقدة وتسلسلات من العلل متشابكة إلى غير نهاية (كرنا ، سنسارا) ، النزعة الافتراضية الإسلامية وشهاداتها العنيفة على الله الحيّ ، المُهَدِّد ، العالي ، الشخصي . وفي الميدان العلمي ، صار تحت تصرّف المترجمين العرب

---

(١) راجع « الفهرست » لابن النديم ، ص ٢٤٦ ، نشرة فلوجل .

للمعارف التوفيقية الهلينية مذهبٌ أوضح وأكثر تجانساً وأكمل من ذلك السائد في مدارس الهند ، وأقربَ أيضاً إلى مذهب الإسلام : مذهب يدعو إلى البحث عن الأسباب ، لا عن اللامتناهي الحاضر ؛ — وإلى إله واحد (وإن لم يكن عالياً صراحةً) ، منظِّم أعلى ومحرك أول ؛ ويعلِّم الناس تقويماً فلكياً (غير متجانسٍ مثل « الأيام الفلكية » عند الهنود) ، وطرقاً للحساب أوجز ، واثباتاً أوجز « للمحمولات » و « لأسباب الخطأ » ؛ ونظرية في السياسة تدعو إلى المساواة وتوحّد الأخلاق الاجتماعية (بدلاً من عزل الناس إلى طوائف منفصلة) ، وتبرر — عند الضرورة — الضرورة المُلِحّة إلى مراعاة الصوم والحج جماعة ، بينما كانت الهندوكية لا ترى في هذين غير نوافل اختيارية وكفائية فردية » [1] .

وإنما بدأ التأثير والتأثر الخصبان فيما بين الهندوكية والإسلام في بلاد الهند نفسها ، بفضل الدعاة المسلمين في بلاد الهند ممن قاموا ببث الدعوة الإسلامية في الهند . وينقسمون إلى فريقين :

ا) الصوفية من أهل السنة ، كما فعل تلاميذ مالك بن دينار (المتوفى سنة ١٢٧ هـ) في نشرهم الإسلام بين المويلا في كرناجور والمليديف؛ والحلاج (المتوفىسنة ٣٠٩ هـ) مع الددوالا والبنجارا في كجرات؛ ونَشَرشاه (المتوفى سنة ٤٣١ هـ) مع اللبيين في ترشنوپولي ؛ ويوسف الدين السندي (القرن السابع الهجري) مع الموماتا في كوتش .

ب) ثم القرامطة : فمنذ عهد هارون الرشيد لجأ الاسماعيلية إلى اقليم السند وقاموا بنشر الإسلام في اقليم الملتان (حوالي سنة ٢٠٠ هـ) حيث لايزال يوجد الداودپوترا في خيربور حتى اليوم ؛ وبين البهرة في كجرات بفضل عبد الله الحرّازي (٤٦٠ هـ) وبين قبائل الوكهن والأفريديين بفضل ناصر خسرو (٤٧٣ هـ) ، وبين الخوجات في كجرات بفضل اسماعيليّيْن مُحْدَثَيْن

(١) ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلح الفني » .... ص ٨٣ — ٨٤ . باريس ، سنة ١٩٥٤ .

هما نور ستَجَرْ (المتوفى سنة ٥٣٥ هـ) وصدر الدين (المتوفى سنة ٨٣٤ هـ)[1] .

لكن هذه مسألة أخرى تماماً لا شأن لها بالتأثيرات في نشأة التصوف الإسلامي في عهده الزاهر (القرون الأربعة الأولى للهجرة) . وإنما تثار حين التعرض لتطور التصوف الإسلامي في الهند مُنْذُ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، لما أن ظهر معين چشتي (المتوفى سنة ٦٣٤ هـ) في أجمير ، وقطب كاكي في دلهي ، وجلال التبريزي (المتوفى سنة ٦٤٢ هـ) في البنغالة ، وفريد شكر گنجي (المتوفى سنة ٦٦٤ هـ) في باكبتّن ، وهو جد السادة الكيلانية ؛ وجـــلال سرخپوش (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ) في أوتش (بهوليور) ، وهو سلف الأسياد البخاريين ؛ ومحمد جيسودارز في بلگوم ، وأبو علي القلندري في پنيت (المتوفى سنة ٧٢٥ هـ) ، وشاه جلال يماني في سيلهت (أسام) (المتوفى سنة ٧٨٦) وعلي الهمداني في كشمير (المتوفى سنة ٧٩١ هـ) وعبد الله الشطاريّ (المتوفى سنة ٨١٨ هـ) .

٤ ــ التأثير اليوناني

وآخر الاتجاهات في بيان التأثيرات في التصوف الإسلامي، القول بتأثير يوناني ، وبخاصة هلينستي (أي يوناني تالٍ لفتح الاسكندر للشرق سنة ٣٣١ ق . م حتى القرن السادس بعد الميلاد) ويندرج فيه الجانب السحري والصّنعوي إلى جانب الأفكار الميتافيزيقية والغنوصية ، والأفلاطونية المحدثة ، مما يُجْمَع أحياناً تحت اسم « التوفيق الهلينستي » syncrétisme hellénistique أو « التوفيق الشرقي » كما يسميه ماسينيون .

وهنا يتسع المجال للحديث عن الأشباه والنظائر والتأثير والتأثر ، خصوصاً لأن لدينا النصوص اليونانية نفسها مترجمة إلى العربية منذ نهاية

(١) ماسينيون : المصدر نفسه ، ص ٨٤ — ٨٥ .

القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) .

٢ ـ وأهم نص في هذا الباب هو كتاب « أثولوجيا أرسطوطاليس »[١] وهو كما نعلم فصول ومقتطفات ، منتزعة من التساعات الافلاطونية ، وفيه نظريات الفيض والواحد التي ستلعب دوراً خطيراً في التصوف الإسلامي ، خصوصاً عند السهروردي المقتول وابن عربي وفيه أيضاً نظرية « الكلمة » أو اللوغوس λόγος . ولا شك في تأثر الصوفية المسلمين ابتداءً من القرن الخامس الهجري حتى القرن العاشر الهجري بما في « أثولوجيا » من آراء . وإنما الخلاف هنا هو في هل وصل تأثيره إلى التصوف الاسلامي مباشرة ، أو عن طريق كتب الاسماعيلية ، وكلها حافلة بالتأثر به[٢] .

ب) ويتلوه في الأهمية الكتب المنسوبة إلى هرمس ، وقد وضع ماسينيون صورة أولية لثبت بها ،[٣] كما حفظت في العربية . وقد عقدنا نحن فصلاً لصورة هرمس في الكتب العربية وذلك في كتابنا : « الانسانية والوجودية في الفكر العربي[٤] » ، كما نشرنا بعض نصوص منه ، ونشرنا ترجمة له وأقوالاً مَعْزُوّة إليه في نشرتنا : « لمختار الحكم » للمبشر بن فاتك[٥] . وشخصيتُه بارزةُ التأثير عند السهروردي المقتول ، وابن عربي . الأول خصوصاً في

(١) راجع نشرتنا له في كتابنا : « أفلوطين عند العرب » . ط ١ سنة ١٩٥٥ ، ط ٢ سنة ١٩٦٦ القاهرة .

(٢) راجع كتابنا : « مذاهب الاسلاميين » ، الجزء الثاني ، بيروت سنة ١٩٧٣ .

(٣) كملحق لكتاب

A.J. Festugière : **La révélation d'Hermès Trismégiste,** I, appendice III, pp. 384-400 : « Inventaire de la littérature hermétique arabe », addenda à la 2e éd., p. 438 sqq. Prem. éd., 1944; 2e 1950. Paris.

وراجع أيضاً

A.E. Afifi : « The influence of Hermetic literature in Muslim thought », in BSOAS, XIII (1950), 840-855.

(٤) القاهرة ، سنة ١٩٤٧ .

(٥) مدريد ، سنة ١٩٥٨ .

فكرة « الطباع التام »[1] ، التي تأثر بها كل الأشراقيين بعد السهروردي[2] . والطباع التام هو «النوس» νοῦς . ويسمى أيضاً الروحانية ، والطبيعة الكريمة .

ويتصل به ما يرد من علم الصنعة سواء عند الصنعويين (الكيمياويين) وعند الصوفية المسلمين .

ومن النصوص المهمة المنسوبة إلى هرمس « رسالة هرمس في معاذلة النفس » التي نشرناها في كتابنا : « الأفلاطونية المحدثة عند العرب » (القاهرة سنة ١٩٥٥) فهي مناجيات للنفس وتحليل لها وتأنيب للنفس الأمارة ودعوة للنفس من أجل التطهّر والتقدس . ومن السهل أن نجد أصداء لها ومشابه في مناجيات الصوفية المسلمين .

جـ) ثم إن هناك فصولاً منحولة لأفلاطون وسقراط وغيرهما من الفلاسفة اليونانيين معظمها آداب وأقوال ، وقد نشرنا عدداً كبيراً جداً منها في « مختار الحكم » للمبشر بن فاتك ، و « أفلاطون في الإسلام » (طهران سنة ١٩٧٤) و منتخب «صوان الحكمة » لأبي سليمان السجزي (أو السجستاني) ، و « نوادر الفلاسفة » لحنين (طهران ، سنة ١٩٧٤) . وكلها تتشابه في بعض آرائها مع الأقوال المنسوبة إلى كبار الصوفية المسلمين في كتب طبقات الصوفية المختلفة (القشيري ، السلمي ، الشعراني ، الهروي ، «طبقات الأولياء » للعطار ، «نفحات الأنس » لجامي الخ الخ) .

د) وفي مقابل ذلك لم يثبت أن الكتب المنحولة على ديونسيوس الأريوفاغي قد أثرت في التصوف الإسلامي ، أولاً لأنها لم تترجم إلا بعد القرن السادس

(١) « كتاب المطارحات » بند ١٩٣ ، في مجموع مؤلفات السهروردي جـ ١ ص ٤٦٤ ، نشرة كوربان سنة ١٩٤٤ .

(٢) راجع في هذا كتاب هـ . كوربان : « في الاسلام الايراني » جـ ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠٧ ، باريس سنة ١٩٧١ .

الهجري ؛ ولا نجد من ناحية أخرى ذكراً له في أيّ كتاب إسلامي في التصوف أو في غير التصوف . ولا نجد ذكراً لترجماته إلى العربية إلاّ عند الكتاب النصارى المتأخرين : أبي البركات وأبناء العسّال (في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي) . لهذا ينبغي أن نستبعد الكتب المنحولة على ديونسيوس الأريوفاغي من أي تأثير في التصوف الإسلامي [1] ، وهي التي أثرت في التصوف المسيحي منذ أن ترجمها وتأثر بها جان اسكوت اريجين في القرن التاسع الميلادي .

---

(1) كما توهم مركس ص ١٨ – ص ٢٤ ، هيدلبرج ، وتابعه على رأيه رينولد « . نيكلسون في مقاله « عن أصول التصوف وتطوره » JRAS سنة ١٩٠٦ ص ٣١٥ – ٣١٧ .

— ٤ —

التصوف نشأ إسلامياً خالصاً
ولكنه في تطوره تأثر بعوامل خارجية

ماذا نستنتج من هذا العرض الطويل الذي قمنا به حتّى الآن لبيان ما ذهب إليه بعض الباحثين من تأثر التصوف الإسلامي في نشأته بعوامل أجنبية ؟

نستنتج أن كل الآراء التي قيلت في هذا الصدد غير وجيهة ، ولم تثبتها الوثائق الكثيرة والنصوص التي نشرت أو عرفت .

ولهذا بدأت موجة القول بتأثر التصوف الاسلامي في نشأته بعوامل أجنبية تنحسر من بعد سنة ١٩٢٠ فحتّى الذين قالوا بذلك ، ما لبث بعضهم أن عدل عن رأيه :

١ — فرينولد . نيكلسون ، وهو من أكبر الباحثين في التصوف وله على دراسة التصوف الإسلامي فضل عظيم لا يزيد عليه إلا فضل لوي ماسينيون — بعد أن ذهب في البحث الذي كتبه عن « أصل التصوف وتطوره »[1] سنة ١٩٠٦ إلى تأثر التصوف الاسلامي في نشأته بالثقافة الهلينية ، وخصوصاً الافلاطونية المحدثة ، وكتابات ديونيسيوس الأريوفاغي المنحولة والصابئة

(١) رينولد أ . نيكلسون « نظرة تاريخية في أصل التصوف وتطوره » مقال في « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » JRAS سنة ١٩٠٦ ص ٣٠٣ — ٣٤٨ — وقد ترجمه أبو العلا عفيفي في كتاب : « في التصوف الاسلامي » ، طائفة من الدراسات قام بها العلامة الأستاذ رينولد أ . نيكولسون ، نقلها إلى العربية وعلق عليها أبو العلا عفيفي ص ١ — ٤١ ، القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

المنداعية واصطفن برُصَدْيل من السريان وببعض المذاهب الهندية ، وقال :
« اننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نردّ أصله إلى عامل هندي أو فارسي ، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية ، أو بمعنى أدق وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانة المسيحية والمذهب الغنوصي . نعم ! من المحتمل أن يكون اثنان على الأقل من هذه المصادر الثلاثة قد تأثرا بأفكار فارسية أو هندية ، ولكن هذه مسألة لم يصل فيها البحث العلمي ، ولن يصل ، إلى نتيجة حاسمة لتشعب نواحيها . أما الأثر المباشر الذي وصل إلى التصوف من ناحية الهند فقد كان ، لا شك ، كبيراً ، ولكنه أتى متأخراً . وإذا قيس بما في التصوف من أثر للفكر اليوناني والسرياني ، عُدّ في المنزلة الثانية » (ص ١٨ من ترجمة عفيفي المذكورة) — نقول إنه إذا كان نيكلسون قد قرر هذا في سنة ١٩٠٦ ، فإنه جاء في مقاله بـ « دائرة معارف الدين والأخلاق » (ط سنة ١٩٢١ ط ٢ سنة ١٩٣٤ المجلد ١٢ ص ١٠ — ١٧) فخفف من حدّة هذه التوكيدات القاطعة وإن لم ينكرها صراحة فقال عن الصوفية :
« لا نفترض أنهم لم يتأثروا إطلاقاً بأفكار غير صوفية عندما نعرض للبحث في كيفية انتقالهم من دور الزهد إلى دور التصوف الذي ظهرت فيه وحدة الوجود ، فإن أثر المسيحية والفلسفة الأفلاطونيّة الحديثة والفلسفة البوذية عامل لا سبيل إلى إنكاره في تكوين التصوف الإسلامي ، وقد كانت هذه المذاهب والفلسفات متغلغلة في الأوساط التي عاش فيها الصوفية ، فلم يكن بُدٌّ من أن تترك طابعها في مذاهبهم ، ولدينا أدلة كافية توضّح أثرها في التصوف ومكانتها منه ، ولو أن المادة التي بين أيدينا لا تمكّن من تَتَبُّع أثرها بالتفصيل . وبالجملة ، يمكن القول بأن التصوف في القرن الثالث — شأنه في ذلك شأن التصوف في أيّ عصرٍ من عصوره — ظهر نتيجة لعوامل مختلفة أحدثت أثرها فيه مجتمعة — أعني بهذه العوامل :

البحوث النظرية في معنى التوحيد الإسلامي ، والزهـــد والتصوف

المسيحيين ، ومذهب الغنوصية والفلسفة اليونانية والهندية » .

وبعد هذا التراجع الخفيف وعلى استحياء يقول مباشرة : « وقد عوبلجت مسألة نشأة التصوف في الإسلام معالجة خاطئة إلى عهد قريب جداً . فقد ذهب كثير من أوائل الباحثين في هذا الموضوع إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة ، التي استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التي تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً دقيقاً بإرجاعها إلى أصل واحد كالفيدانتا الهندية أو الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، أي بوضع فروض أكثر ما يقال فيها إنها تفسر جانباً من الحقيقة ، لا الحقيقة بأكملها ، وذلك كقولهم بأن التصوف كان رد فعل للعقل الآري ضد دين سامي فرض عليه فرضاً . وانني أرى الآن أننا بدلاً من أن نضيع الوقت عبثاً في البحث عن مصدر واحد للتصوف ، يجدر بنا أن ندرس العوامل المختلفة التي ساعدت — مجتمعة — على تشكيل المذهب الصوفي ، وأن نضع كلاً من هذه العوامل في موضعه اللائق به وندرس الصلة بينها ، ثم نميز — قدر المستطاع — ما كان لكل منها من أثر . فإن هذه العوامل في جملتها تكون الظروف التي نشأ فيها التصوف وترعرع ، سواء في ذلك العوامل السياسية أو الاجتماعية أو العقلية ، كالاضطرابات والفتن الداخلية الدامية في عصر بني أمية ، وموجات الشك والتعصب العقلي التي طغت على المسلمين في العصر العباسي الاول ، وكالتطاحن المر بين أصحاب المقالات والفرق ، أو الجمود على مذهب أهل السنة من جانب العلماء »[1] .

إذن رأى نيكلسون أن مسألة نشأة التصوف أشد تعقيداً من مجرد رده إلى مذهب معين أو تيار ثقافي أجنبي أو نزعات دينية معينة ، وإنما ينبغي أن نحسب حساب عدة عوامل : منها عوامل أصيلة إسلامية نابعة من التأمل في الإسلام نفسه وما أتى به من عقائد ، ومنها عوامل أجنبية أهمها عنده الزهد

---

(١) ترجمة عفيفي في الكتاب المذكور ، ص ٧٢ .

والتصوف المسيحيان ، ومذهب الغنوصية والفلسفة اليونانية والمذاهب الهندية ، ومنها أيضاً العوامل والظروف السياسية والاجتماعية والعقلية المحلية في العالم الإسلامي آنذاك .

* * *

٢ ــ ثم جاء الأستاذ لويس ماسينيون ، أعظم باحث في التصوف الإسلامي على الإطلاق ، فخطا خطوة واسعة جداً وجّهت الدراسات توجيهاً جديداً تماماً . فقرر بعد دراسته المحكمة الدقيقة لما قيل من آراء في تأثر نشأة التصوف الإسلامي بعوامل أجنبية أن هذه الدراسة الطويلة « تمكّن من أن نؤكد أن التصوف الإسلامي ، في أصله وتطوره ، صدر عن إدامة تلاوة القرآن والتأمل فيه وممارسته . لقد قام التصوف الإسلامي على أساس التلاوة المستمرّة والقراءة الشاملة لهذا النصّ المعتبر مقدساً ، ومنه استمد خصائصه المميّزة : التلاوة المشتركة وبصوت مرتفع (الذكر ، رفع الصوت) ، وإقامة « مجالس الذكر المنتظمة ، التي فيها تتلى آيات من القرآن ، وموضوعات للتأمل مناسِبة منظومة ومنثورة [١] » .

وفي مقاله عن « التصوف » في « دائرة المعارف الإسلامية » (ج ٤ ص ٧١٨ ــ ٧١٩) الذي ظهر سنة ١٩٢٩ قال في هذا الصدد : « إن الدراسة النقدية لمصادر التصوف لم تتم بعد . والباحثون في الإسلاميات ، وقد أدهشهم الافتراق العقيدي العميق الذي يفصل وحدة الوجود الحالية في التصوف عن العقيدة السنّيّة الدقيقة ، ظنوا أن في وسعهم تصور التصوف على أنه مذهب مستورد من الخارج ، نشأ عن الرهبانية السريانية (مركس Merx) ، أو الأفلاطونية المحدثة اليونانية ، أو المزدكية الفارسية ، أو مذهب الفيدانتا الهندوكي (جونز) . وقد بيّن نيكلسون أن افتراض كون التصوف مستعاراً

---

(١) لويس ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي » ، الطبعة الأولى ، باريس سنة ١٩٢٢ ؛ الطبعة الثانية ص ١٠٤ ــ ١٠٥ ، باريس سنة ١٩٥٤ .

من الخارج ، هو افتراض لا يمكن قبوله في صورته المبسّطة هذه ، ذلك أنه منذ بداية الاسلام يمكن مشاهدة أن تكوين الآراء الخاصة بالصوفية المسلمين قد تمّ من الداخل ، خلال التلاوة المتواصلة المتأمِّلة للقرآن والحديث ، وتحت تأثير الأزمات الاجتماعية أو الفردية ، في داخل المجتمع الإسلامي نفسه . لكن إذا كانت البنية الأولى للتصوف إسلامية وعربية بوجه خاص ، فإنه ليس من غير المفيد تحديد العناصر التزويقية الأجنبية التي استطاعت الالتصاق به والانتشار فيه ؛ وهكذا أمكن العثور أخيراً على عدة عناصر تَقْوَوِيّة مستمدة من الرهبانية المسيحية (أسين بلاثيوس ، فنسنك ، تور أندريه) وكثير من المصطلحات الفلسفية الهلّينية المترجمة عن السريانية ؛ والنظائر الإيرانية (التي افترضها بلوشية Blochet) لم تفحص أبداً ؛ أما العناصر السنسكرتية (رأي هورتن) فإن قليلاً من الحجج قد أضيفت إلى الافتراضات القديمة للتناظر التي قال بها البيروني ودارا شكُوه عن النظائر بين الأوپنشاد أو اليوجا سوترا وبين عقائد الصوفية الأوائل ؛ وفي مقابل ذلك فإنه من المحتمل أن تبين الدراسة النقدية للعمليات المادية لإيقاع الذكر عند الطرق الصوفية الحديثة — عن نفوذ بعض طرائق الزهد الهندوكية » .

ومحصل هذا الكلام ما يلي :

١ — أن التصوف الإسلامي نشأ من التأمل المتواصل للقرآن والأحاديث النبوية وهكذا تكوُن نشأته إسلامية خالصة ومن داخل الإسلام نفسه ؛

٢ — أنه مع تطور التصوف والاتصال بالأفكار الأجنبية انضافت إلى التصوف الأوّل قَسِمات من أصول أجنبية كانت بمثابة زخارف وتنويعات ؛

٣ — وأنه إلى جانب الأصول الاسلامية العقائدية (القرآن والحديث) أثر في إيجاد النزعات الصوفية عوامل اجتماعية أو فردية ، من أزمات سياسية أو أزمات نفسية ؛

٤ — أن أبرز هذه السمات الأجنبية الأصل هي تلك المستمدة من التراث

الفلسفي اليوناني ، ومعظمها مصطلحات ، ثم من الرهبانية المسيحية وهي مجرد عادات في التقوى ؛ أما النظائر الايرانية فلا تزال بمعزل عن كل دليل ؛ أمّا النظائر الهندية التي قال بها البيروني ودارا شكوه فلا تتجاوز نطاق المشابه العامة وليس ثمة دلائل على وقوع تأثير وتأثر فيما يتعلق بها .

ويفصل ماسينيون هذه المعاني في الفصل الثالث من كتابه « بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي » (ط ١ سنة ١٩٢٢ ، ط ٢ سنة ١٩٥٤ ص ١٠٤ — ١٣٦) فيبيّن أن خصائص التصوف الإسلامي نجدها في مجملها في القرآن :

إذ فيه نجد الأصل في الرموز النموذجية في التصوف الإسلامي :

١ — النار والنور للدلالة على الله : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله : امكثوا إنّي آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون.فلما آتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أنْ : يا موسى ! أنا الله ربُّ العالمين » (سورة القصص : ٢٩ — ٣٠) ؛ « الله نور السموات والأرض ، مَثَل نوره ... » (سورة النور ٣٥) .

٢ — حجُب النور والظلمة : «وقالوا قلوبنا في أكِنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ » (سورة فُصّلت : ٥) .

٣ — الطائر رمزاً للبعث (أو بالأحرى للخلود) ، بعث الروح : « وإذ قال ابرهيم : رَبِّ أرِني كيف تحيي الموتى . قال : أوَ لم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي . قال : فَخُذْ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ، ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءا ثم ادْعُهنّ يأتينك سعياً » (البقرة ٢٦٠) ؛ « إنّي أخْلُق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » (آل عمران : ٤٩) ؛ « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ما

يمسكهن ّ إلا ّ الرحمن » (المُلْك : ١٩) .

٤ ــ ماء السماء : « ونَزَّلنا من السماء ماء ً مباركاً » (سورة ق : ٩) .

٥ ــ الشجرة رمزاً للإنسان ومصيره : « فلما آتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ... » (القصص ٣٠) ؛ « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » (ابرهيم ٢٤) ؛ « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً » (يس ٨٠)

٦ ــ الكأس ، الشراب ، السلام (٣٦ : ٥١) بوصفها رموزاً لمرسم تولية الأولياء المقرّبين في الجنة : «يطوف عليهم ولدان مُخلّدون* بأكواب وأباريق وكأس من معين » (الواقعة ١٧ ــ ١٨) ؛ « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا ّ قيلاً سلاماً سلاماً » (الواقعة ٢٥ ــ ٢٦) ؛ « وسقاهم رَبُّهم شَراباً طهوراً » (سورة الإنسان » .

٧ ــ الطريق في الجبل : « ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود » (فاطر ٢٧) . والغربيب هو الشديد السواد .

* * *

ثم يأتي في الفصل الرابع من الكتاب نفسه ص (١٤٠ ــ ١٤٢) فيبين الآيات التي تتعلق بالتصوف ويرتبها داخل ثلاثة موضوعات = .

أ) آيات تتعلق بالسلوك الصوفي :

ــ « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » (٥٠ : ٣٧) .

ــ « أفَمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ ، أمْ مَنْ أسّس بنيانه على شفا جُرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم » (التوبة ١٠٩) .

ــ « إنما مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرضُ زخرفها وازّينت وظنّ

أهلُها أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس » (التوبة ٢٤) ؛ « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » (الكهف ٤٥)

— « لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » (الحج : ٣٧) .

— « قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صَدَقةٍ يتبعها أذىً » (٢ : ٢٦٣) .

ب) التمييز بين الأخيار والأشرار :

— اختلاف مصير ذوي القلوب المخلصة والمنافقين :

١ — « يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر : فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلْداً لا يقدرون على شيء مما كَسَبوا ؛ والله لا يهدي القومَ الكافرين ٭ ومَثَل الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاة الله وتثبيتاً مِنْ أنفسهم كمثَلِ جنةٍ بربوة أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يُصِبها وابلٌ فطلٌ » (البقرة ٢٦٤ — ٢٦٥) .

٢ — « إن تُبْدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تُخْفُوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفرّ عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » (البقرة ٢٧١) .

٣ — « إنّا بلوناهم كما بَلَوْنا أصحاب الجَنّة إذْ أقسموا ليَصْرِمُنّها مُصْبحين » (القلم ١٧) .

— الذين يتوكلون على الله والذين يتوكلون على أنفسهم : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحَفَفْناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعا ٭ كلتا الجنتين آتت أُكْلَها ولم تَظْلم منه شيئاً وفجّرْنا خلالها

نهراً * وكان له ثمرٌ . فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً * ودخل جنّته وهو ظالمٌ لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمةً ، ولئن رُددتُ إلى ربيّ لأجدنّ خيراً منها منقلباً * قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك مِنْ تراب ثم مِنْ نطفة ثم سوّاك رجلا * لكنّا هو الله ربيّ ولا أشرك بربيّ أحداً * ولولا إذْ دخلت جنّتك قلت ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله إن ترَن أنا أقلّ منك مالاً وولداً * فعسى ربيّ أن يؤتين خيراً من جنّتك ويرسل عليها حُسْباناً من السماء فتُصبِحَ صعيداً زلَقاً * أو يصبح ماؤها غوْراً فلن تستطيع له طلباً * وأحيط بثمره فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها ويقول : يا ليتني لم أشرِك بربيّ أحداً * ولم تكن له فئةٌ ينصرونه مِنْ دون الله وما كان منتصراً » (الكهف ٣٢ — ٤٣) .

٤ — الأخيار مثل الحب الذي ينمو وينتج الكثير : « تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثَلهم في التوراة ومثَلُهم في الانجيل : كزرع أخرج شطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يُعْجب الزُّرّاع ليغيظ بهم الكُفّار ، وَعَد اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً » (الفتح ٢٩) ؛ « مثَل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثلِ حبّةٍ أنبتت سبْعَ سنابل ، في كل سُنْبلَة مائَة حبّة ، والله يضاعف لمن يَشاء والله واسعٌ عليم » (البقرة ٢٦١) ؛ « ألم ترَ كيفَ ضرب الله مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبة أصلها ثابتٌ وفرعُها في السماء * تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ، ويضرب الله الأمثالَ للناس لعلّهم يتذكّرون * ومثَلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثّتْ مِنْ فوق الأرض ما لها من قرار » (ابرهيم ٢٤ — ٢٦) .

أما الأشرار فهم كالأسرى والصم والبكم : « ضرب الله مثَلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومَنْ رزقناه رزقاً حسناً فهو ينفق منه سِرّاً وجهراً :

هل يستوون ؟! الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكَمُ لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأتِ بخير ، هل يستوي هو ومَنْ يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ؟! » (النحل ٧٥ – ٧٦) ؛ « أولئك الذين خَسِروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يَفترون ﴿ لا جرَمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربّهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع : هل يستويان مثلاً ؟! أفلا تَذَكّرون ؟! » (هود ٢١ – ٢٤) ؛ – « والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقِيعةٍ يَحْسَبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب ﴿ أو كظلمات في بحرٍ لجّي يغشاه موجٌ مِنْ فوقه موجٌ مِنْ فوقه سحابٌ ، ظلماتٌ بعضُها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومَنْ لم يجعل اللهُ له نوراً فماله من نور » (النور ٣٩ – ٤٠) ؛ مَثَلُ ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظَلَمهم الله ولكن أنفسَهم يظلمون » (آل عمران ١١٧) ؛ « مَثَل الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإنّ أوْهَن البيوت لَبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون » (العنكبوت ، ٤١) .

وفي يوم الحساب ستقول هذه النفوس الخاوية من أفعال الخير للأبرار : « انظُرونا نقتَبِسْ من نوركم » (الحديد ١٣) .

وسورة يس تذكر أحزان الرسول الذي لقي العنت من الناس وهو يريد هدايتهم سواء السبيل ، ويقول : « يا حسرةً على العباد ما يأتيهم مِنْ رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزئون » (يس ٣٠) ؛ « سلامٌ قولاً من رب رحيم » (يس ٥٨) .

* * *

جـ) آيات تتعلق بالبعث : الله الذي يحيي الأرض المجدبة بالماء :

— « والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتها إنّ في ذلك لآيةً لقوم ٍ يسمعون » (النحل ٦٥) .

— « ومِنْ آياته أنك ترى الأرضَ خاشعةً ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربَتْ ، إن الذي أحياها لَمُحْيِي الموتى ، إنه على كل شيء قدير » (فُصّلت ٣٩) .

ويحدث النار من الخشب الأخضر : « الذي جَعَل لكل من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (يس ٨٠) —

قادرٌ على أن يعيد الأرواح إلى الأجسام كالطير الأليف : « واذ قال ابرهيم : ربِّ أرني كيف تحيي الموتى — قال : أوَ لم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئنّ قلبي . قال : فخذْ أربعةً من الطير فصُرْهُنّ إليك ، ثم اجعلْ على كلّ جبلٍ منهن جزءاً ، ثم ادْعهُنّ يأتينك سَعْياً » (البقرة ٢٦٠) .

* * *

وإذا قيل إن هذه الآيات تدعو إلى الزهد أكثر منها إلى التصوف ، فهناك آيات أخرى تشير إلى ظواهر اشراقية صوفية ، بل ووجدية :

ا) محاسبة النفس : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » (الأحزاب ٣٧) ؛ « ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأمّا اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأمّا بنعمة ربّك فحدّثْ » (الضحى ٦ — ١١) .

ب) أحوال مستورة ومَعْنًى خارقٌ مجهول لبعض الأحداث التي تَعْرِض فجأةً للنفس ؛ وقد انساق الصوفية الأولون في تأملات غريبة

تدور حول اضطراب مريم قبل مولد المسيح حين جاءها المخاض فقالت : « يا ليتني مِتُّ قبل هذا ! » (مريم ٢٣) .

ج) الذكر الصريح لمعجزات باطنة للطف الذي مُنحَه بعضُ الأنبياء : شَرْح الصدر ، والإقراء الخ .

د) الوجد العـالي ، مثل الإسراء بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى ، وعروجه حتى قاب قوسين .

وكبار الصوفية المسلمين قد ركزوا تأملاتهم على هذه الموضوعات المستمدة من القرآن ، وحاولوا أن يجدوا في نفوسهم ما مرّ بنفوس الأنبياء من أحوال عالية .

* * *

ونستطيع نحن أن نضيف إلى عَرْض ماسينيون هذا ما يلي ، تدليلاً على أن الصوفية المسلمين قد استمدوا المعاني الرئيسية من تأمل الآيات القرآنية :

١ — فنلاحظ أولاً أن رجلاً كالقشيري حينما يشرح مقامات الصوفية ، يبدأ شرحه لكل مقام ببيان الآيات القرآنية التي يستند إليها هذا المقام الصوفي . وإن لم يجد آية صريحة ذكر أحاديث . فذكز آيات قرآنية للأبواب التالية : التوبة — المجاهدة — التقوى — الخوف — الرجاء — الحزن — الجوع وترك الشهوة — الخشوع والتواضع — مخالفة النفس وذكر عيوبها — الحسد — الغيبة — القناعة — التوكل — الشكر — اليقين — الصبر — المراقبة — الرضا — العبودية — الإرادة — الاستقامة — الإخلاص — الصدق — الحياء — الحرية — الذكر — الفتوّة — الفراسة — الخُلُق — الجود والسخاء — الغَيْرة — الولاية — الدعاء — الفقر — الأدب — السفر — الصحبة — التوحيد — أحوال الصوفية عند الخروج من الدنيا (= الموت) — المعرفة بالله — المحبة — الشوق — طاعة المشايخ — السماع — الرؤيا —

وهذه الأبواب تشمل معظم مقامات وموضوعات التصوف . فإن كانت لها أصول أو بذور من آيات القرآن ، فهذا دليلٌ على أن تأمّل هذه الآيات يمكن أن يتخذ بداية لاستقصاء المعاني الصوفية التي تدور حولها .

وهنا قد يُعترض فيقال : إن هذه التبريرات بالآيات لاحقةٌ على آراء الصوفية وليست أصولاً لها ، وإنّ القشيري قد تعمد ابتداء كل باب بأصله من القرآن لأنه قصد من « رسالته » هذه إلى الردّ على الفقهاء والمتكلمين الذين هاجموا التصوف بحجة أنه لم يُبْنَ على قواعد الاسلام وأنه بدعة لا أصْل لها من القرآن والحديث وسلوك الصدر الأول .

لكن هذا الاعتراض يسقط إذا أخذنا بالاعتبارات التالية :

ا) إن التصوف الإسلامي كان تطوراً متصلاً طبيعياً من حركات الزهد في عهد الرسول وعند الحسن البصري وعبد الواحد بن زيد وإبرهيم بن أدهم ورابعة العدوية ، مارّين بمعروف الكرخي والحارث المحاسبي وأبي يزيد البسطامي والجنيد والحلاج حتى صوفية القرن الرابع الهجري . وليس من شك في أن ما نجده عند الزهاد الأوائل والحسن البصريّ وحتى معروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ) من أقوال لا يَفْتَرِض أكثر من التأمل العميق في بعض آي القرآن ، ولا يُؤْذِن بثقافة عميقة واسعة خارجة عن هذا النطاق . ورَغْم أنّ بعض الأصول اليونانية (أثولوجيا ، بعض نصوص لبرقلس) قد ترجمت في القرن الثالث الهجري ، فإنه لا يبدو في أقوال صوفية القرن الثالث ، وهو أوج التصوف ، أثرٌ لهذه الآراء اليونانية ، وإنما يبدأ تأثيرها منذ القرن الخامس الهجري .

ب) أن قَسِمات وحدة الوجود التي نجدها عند البسطامي (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) والحلاّج (المتوفى سنة ٣٠٩) ليس فيها من التعمق والتفصيل ما يؤذن بتأثير يتجاوز التأمُل المتعمّق لآيات القرآن في التوحيد ، خصوصاً الآية : « فأينما تولّوا فثمّ وجه الله » (البقرة) .

٢ — ونلاحظ ثانياً أن حياة النبيّ الباطنة ، خصوصاً قبل البعثة ، كانت حافلة بأحوال صوفية عالية ، ودون أن نبالغ في ذلك كما بالغ — من غير شك — بَعْضُ الصوفية في الفصول التي عقدوها في كتبهم باسم « الاقتداء بالنبي » وغيرِ ذلك من مواضع الاستشهاد بأحوالهم من أحواله ، لنقرّر ما قرره القرآن أولاً بالنسبة إلى حياة النبي التقوية :

٣) التهجُّد والذكر كما في الآيات : « واذكر اسمَ ربّك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسَبّحه ليلاً طويلا » (الإنسان ٢٥ — ٢٦) ؛ « قُمْ الليل إلاّ قليلاً * نصفَه أو انقُصْ منه قليلا * أو زِدْ عليه ورتّل القرآن ترتيلا ... واذكر اسمَ ربك وتَبَتّلْ إليه تبتيلاً » (المُزَّمل ٢ — ٤ ، ٨)؛ « ولا تطرُدْ الذين يَدْعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه » (الأنعام ٥٢) .

ب) الصبر والاستغفار : « فاصبرْ إنّ وعد الله حقّ ، واستغفر لذنبك ، وسَبِّحْ بحمد رَبِّك بالعشيّ والأبكار » (سورة المؤمن ٥٥) .

ﺟ) التوكل : « وتوكّلْ على الله ، وكفى بالله وكيلا » (الأحزاب ٣)

د) محاسبة النفس : « وتَخْشى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاه» (الأحزاب٣٧)

ويؤكد الصوفية أنهم يقتدون بالنبي ، حتى في المواجيد . يقول سهل بن عبد الله : « كل وَجْد لا يشهد له الكتاب والسُّنّة فباطل ، وقال أبو سليمان الداراني : ربما تنكُت الحقيقةُ قلبي أربعين يوماً فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلاّ بشاهدين من الكتاب والسُّنّة » .

ويذهب البعضُ إلى حدّ القول بأن أصل التصوف وجميع ما تكلم فيه الصوفية أربعة أحاديث . ذكر السراج : « يقال إن أصل جميع ما تكلّموا فيه من علم الباطن أربعة أحاديث : (١) حديث جبريل عليه السلام حيث

(١) السراج : « اللمع » ص ١٠٤ ، نشرة نيكلسون .

سأل رسولَ الله ﷺ عن الإيمان والإحسان ، فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه ... الحديث . (٢) وحديث عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) أنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي وقال لي : يا غلام ! احفظ الله يحفظك . (٣) وحديث وابصة : « الإثم ما حاك في صدرك ، والبرّ ما اطمأنّت إليه نفسك » . (٤) وحديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ : الحلالُ بيّن والحرام بيّن . وقول النبي ﷺ لا ضَرَر ولا ضِرار في الاسلام [1] » .

وعبد القاهر بن عبد الله السهروردي في « عوارف المعارف » يؤكد هذا المعنى في كل موضع . فبعد أن قرر أن « الصوفية أوفر الناس حظاً في الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقّهم بإحياء سُنّته [2] » لأن الصوفية يهدفون إلى تزكية النفس بالأخلاق الكريمة ، والله تعالى قال في حق نبيّه : « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » (سورة القلم ٤) فمن الطبيعي أن يتخذ الصوفية النبي قدوة في تحصيل الأخلاق الحسنة — ويسوق فَهْمَ الصوفية لهذا القول وتفسيرهم له . فيذكر عن الجنيد أنه قال إنّ خُلُق النبي كان « عظيماً لأنه لم يكن له همّة سوى الله تعالى . وقال الواسطي : لأنه جاد بالكونين عِوَضاً عن الحق . وقيل : لأنه — عليه السلام — عاشر الخَلْق بخُلُقه وباينهم بقلبه . وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف : التصوف الخُلُق مع الخَلْق ، والصِّدْقُ مع الحق . وقيل : عَظُم خُلُقه حيث صَغُرَتْ الأكوان في عينه بمشاهدة مكوّنها . وقيل : سُمّي خُلُقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه [3] » .

ويفصّل السهروردي هذا ببيان أنّ ما دعا اليه الصوفية من أخلاق هي ما تخلق به النبي في سلوكه ودعا إليه في أحاديثه — من ذلك :

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(٢) عبد القاهر السهروردي : « عوارف المعارف » ص ٢٢٩ ، بيروت سنة ١٩٦٦ .
(٣) الكتاب نفسه ، ص ٢٣٢ .

١ — أنّ مِنْ أخلاق الصوفية : التواضع — وقد قال النبي : « إن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضَعُوا ولا يبغي بعضكم على بعض » . « وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعـوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرْعة لبن ، ويكافىء عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمَة والمسكين » (« عوارف المعارف » ص ٢٣٩) .

٢ — ومن أخلاقهم « المداراة واحتمال الأذى من الخَلْق . — وبلغ من مداراة رسول الله ﷺ أنه وَجَدَ قتيلاً من أصحابه بين اليهود فلم يَحِفْ عليهم ... بل وَداه بمائة ناقة من قِبَله ، وإنَّ بأصحابه لحاجةً إلى بعير واحد » (٢٤٥) وعنه أنه قال : « المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » (٢٤٦) .

٣ — ومن أخلاقهم : « الايثار والمواساة . ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعاً ، وقوةُ اليقين شرعاً » (٢٤٧) . وفي هذا المعنى نزلت الآية : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (الحشر ٩) .

٤ — ومن أخلاقهم التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحَسَنَة . وقد رُوِي عن أنَس عن النبي ﷺ أنه قـال : « رأيت قُصُوراً مُشْرِفةً على الجنّة ، فقلتُ : يا جبريل ! لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس » (٢٥٣) .

٥ — ومن أخلاقهم : البِشْر وطلاقة الوجه . الصوفيّ بكاؤه في خلوته ، وبِشْرُه وطلاقةُ وجهه مع الناس . » (٢٥٤) . وقـال النبي ﷺ : كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلْقٍ » (٢٥٥) .

٦ — ومن أخلاقهم الانفاق من غير إقتار ، وتركُ الادخار . وروي عن النبي أنه نهى خادمه عن الادخار قائلاً : « ألم أنْهَكَ أن تخبىء شيئاً

لغد ؟! فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد » . وروي عنه أيضاً أنه قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٢٦١ ، ٢٦٣) .

٧ – ومن اخلاقهم التودُّد والتآلف والموافقة مع الإخوان وتركُ المخالفة . وقال عليه السلام : « المؤمنُ آلِفٌ مألوفٌ ؛ لا خير فيمن لا يألَف ولا يُؤلَّف » (٢٦٩) .

* * *

وهنا قد يقول خصُوم الصوفية : إذا كان الأمر هكذا ، وكان التصوف اقتداءً بالنبي وعملاً بكتاب الله ، فماذا يُفرّق الصوفية عن الفقهاء وسائر المؤمنين ؟

ويردُ الصوفية على هذا بأن الاختلاف هو في الفهم ، إذ يفهم الصوفية من نموذج النبي وأحاديثه ، ومن القرآن الكريم ما لا يفهمه الفقهاءُ والعامة من المؤمنين . وهم يسمون ذلك : « المستنبطات الصحيحة في فهم القرآن والحديث » على حد تعبير أبي نصر السرّاج [١] . فهم يرون أن لهم منهجاً في فهم القرآن والحديث وحياة النبي يمكّنهم من ايجاد علم جديد ، غير علم الفقه والكلام وسائر العلوم الإسلامية ، وهو « علم الاشارة » الذي يكشف للصوفية « المعاني المذخورة واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحِكَم في معاني القرآن ومعاني أخبار رسول الله – من حيث أحوالُهم وأوقاتُهم وصفاءُ أذكارهم . قال الله تعالى : « أفلا يتدبّرون القرآنَ ، أم على قلوبٍ أقفالُها ؟ » (سورة محمد ٢٤) . وقال النبي ﷺ : مَنْ عمل بما عَلِم ورّثه اللهُ تعالى عِلْمَ ما لم يعلم . وهو العلم الذي ليس لغيرهم من أهل العلم. وأقفالُ القلوب: ما يقع على القلوب من الصدأ لكثرة الذنوب واتباع الهوى ومحبّة الدنيا وطول الغفلة وشدّة الحرص وحبّ

(١) أبو نصر السراج : « اللمع » ص ١٠٥ وما يتلوها .

الراحة وحبّ الثناء والمحمدة — وغير ذلك من الغفلات والزّلاّت والمخالفة والخيانات . »[1]

فالصوفية « استنبطوا من ظاهر القرآن وظاهر الأخبار معاني لطيفةً باطنة وحِكَماً مستطرفة وأسراراً مذخورة ... وهم أيضاً في مستنبطاتهم مختلفون كاختلاف أهل الظاهر . غير أن اختلاف أهل الظاهر يؤدي إلى الغلط والخطأ ؛ والاختلاف في علم الباطن لا يؤدّي إلى ذلك ، لأنها فضائل ومحاسن ومكارم وأحوالٌ وأخلاق ومقامات ودرجات . » وإذا قيل إن اختلاف العلماء رحمة ، فهذا يتعلق بعلم الظاهر كما يتعلق بعلم الباطن ، أي علم التصوف : فمن ناحية علم الظاهر من شأن الاختلاف بين العلماء فيه أن يردّ المصيبُ على المخطىء ويبين للناس غلطُ المخالف فيتضح وجه الحق ؛ وبالنسبة إلى علم الباطن يلاحظ أن كل واحد من الصوفية « يتكلم من حيث وقتُه ، ويجيب من حيث حاله ويشير من حيث وَجْدُه » (ص ١٠٧) — وبعبارة أخرى الاختلاف بين الصوفية طبيعيٌّ بحكم التصوف نفسه ، إذ التصوف يعبّر عن أحوال ذاتية ومواجيد شخصية ، ومن هنا لا بد من اختلاف أقوال الصوفية . وفي هذا فائدة لأرباب القلوب والمريدين .

كذلك استنبطوا من أحوال الأنبياء والمرسلين كثيراً من أحوال الصوفية — مثال ذلك :

١ — شرح الصدر : استنبطوه مما ورد في القرآن على لسان موسى : « ربّ اشرح لي صدري » (سورة طه) .

٢ — الخلّة : استنبطوها من قوله تعالى عن ابرهيم : « واتخذ الله ابرهيم خليلاً » (النساء ١٢٥) .

٣ — الرضا : مأخوذ من قوله تعالى للنّبي : « ولسوف يعطيك ربُّك فترضى » (٩٣ : ٥) .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٥ .

٤ ــ التوبة : مأخوذ من قوله تعالى في شأن آدم : « ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهَدَى » (٢٠ : ١٢٠) .

٥ ــ المعصية : مأخوذ من قوله تعالى في شأن آدم : « وعصى آدمُ ربه فغوى » (٢٠ : ١١٩) .

٦ ــ المغفرة : من قوله تعالى : « ليغفر لك اللهُ ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٤٨ : ٢) ؛ وقوله : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ، ثم أناب . قال : ربِّ اغفر لي » (٣٨ : ٣٣) .

٧ ــ الصبر : من قوله تعالى في حق النبي : « واصبر لحُكْم ربك فإنك بأعْيُننا » (٥٢ : ٤٨) .

وكذلك الشأن في مستنبطاتهم من الأخبار المروية عن النبيّ ، وقد عقد له السراج في « اللمع » فصلاً (ص ١١٣ ــ ١١٩) طويلاً نكتفي بالإحالة إليه .

وتلك هي الحجج التي يسوقها الصوفية وأنصارهم للدفاع عن التصوف وبيان أنه مستمد من القرآن والسنة .

لكن خصومهم يقولون إنهم يؤولون القرآنَ والسُّنة حسبما يتفق مع مزاجهم ، لا كما يقضي به النص الحرفي والمعنى اللغوي وما تواتر من تفسير .

ولكن هذا يقودنا إلى مبحث آخر ، وهو موقف الفرق الاسلامية الفقهية والكلامية من التصوف ، وهو ما سنبحث فيه في الفصل التالي .

— ٥ —

موقف الفقهاء والمتكلمين من الصوفيــة

ونظراً لما ذهب إليه الصوفية من القول بالظاهر والباطن والشريعة والحقيقة والسلوك النفسي الحافل بالمراجعة والأحوال والمقامات ، وما صحب ذلك من مظاهر خارجية في اللباس والأعمال ثم ما انطوى عليه هذا كله من نظرة في الحياة الدينية والمثل الأعلى للمؤمن والنموذج الأصفى للسلوك في الحياة — فقد كان من الطبيعي أن يهاجمهم من لم يسلكوا هذه السبل ولم يأخذوا بهذا الاتجاه في فهم الدين والحياة المثلى .

أ — موقف المتكلمين

ونبدأ بذكر مآخذ المتكلمين على التصوف والصوفية .

١ — أما الخوارج بعامّة فقد أخذوا على الصوفية اطاعتهم للسلطان ، حتى لو كان جائراً ، وقولهم بأن النية أفضل من العمل .

٢ — أما الشيعة فنجد أولاً الإمام علي زين العابدين يأخذ على الحسن البصري وعظه للناس . جاء في الاحتجاج للطبرسي أنه « روى أن زين العابدين — عليه السلام ! — مرّ بالحسن البصري وهو يعظ الناس بمنىً فوقف عليه السلام — عليه ثم قال : أمْسِك ! أسألك عن الحال التي أنت عليها تقيم :

أترضاها لنفسك فيما بينك وبين الله إذا نزل بك غداً . قال : لا . قال : أفتحدّث نفسك بالتحول والانتقال عن الحال التي لا ترضاها لنفسك إلى الحال التي ترضاها ؟ . فأطرق مليّاً ثم قال : إني أقول ذلك بلا حقيقة » ثم يختم الطبرسي هذه المحادثة بقوله : « فما رؤي الحسن البصري بعد ذلك يعظ الناس » [1] .

كما يأخذ عليه (ج ٢ ص ٦٢) قوله « إن الله خلق العباد ففوّض إليهم أمورهم » .

وقد استنتج ماسينيون [2] من هذا أن الامام علي زين العابدين هاجم التصوف ! وهو استنتاج غريب ، لا يبرره النص الذي اعتمد عليه . أولاً لأن كلامه مع الحسن البصري يتعلق لا بمبدأ الوعظ ، بل بالاتفاق بين مسلك الواعظ الفعلي وبين ما يعظ به ؛ وثانياً لأن جواب الحسن البصري جواب كل مؤمن يخشى الله ويتواضع له ولا يظن أنه راضٍ عن نفسه ، وهذا هو موقف الصوفي الحق . والذي نعلمه من المصادر الأخرى ، وبخاصة من « حلية الأولياء » (ج ٣ ص ١٣٣ ــ ١٤٦) عكس هذا تماماً : إذ نعرف من هذه المصادر أنه كان زاهداً عابداً وفياً كثير الصدقات في السرّ .

لكننا نجد مع ذلك أقوالاً عديدة تنسب إلى الإمام جعفر الصادق يهاجم فيها التصوف والصوفية ؛ وقد ذكرها وغيرها صاحب كتاب « حديقة الشيعة في رد الصوفية » ونقل عنه عبّاس بن رضا القمي في الجزء الثاني من كتاب « سفينة بحار الأنوار ومدينة الحكم والآثار » . ومن ذلك أنه نسب إلى الامام جعفر الصادق أنه سئل عن حال أبي هاشم الكوفي الصوفي فقال : « إنه كان فاسد العقيدة جداً ؛ وهو الذي ابتدع مذهباً يقال له التصوف ، وجعله مقرّ العقيدة الخبيثة » [3] .

---

(١) الطبرسي : « الاحتجاج » ج ٢ ص ٤٣ . النجف ، سنة ١٩٦٦ .

(٢) ماسينيون : « بحث في نشأة المصطلح الفني » ... ص .

(٣) « سفينة بحار الأنوار » ج ٢ ص ٥٧ ، طبع حجر سنة ١٣٥٥ هـ .

ومثل ذلك يروى عن الإمام الرضا . إذ ينسب إليه أنه قال : « لا يقول بالتصوف أحدٌ إلاّ لخدعة أو ضلالة أو حماقة . وأمّا من سمّى نفسه صوفياً للتقيّة فلا إثم عليه »[1] . كذلك يورد صاحب « سفينة بحار الأنوار » أقوالاً يردّ فيها ملاّ صدرا شيرازي (المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ) على الصوفية ، وذلك في كتابه « كسر * أصنام الجاهلية » . وخلاصة ما أخذه ملاّ صدرا على الصوفية أنهم تركوا تعلم العلم والعرفان ورفضوا « العمل بمقتضى الحديث والقرآن ، وعطّلوا ما أعطاهم الله تعالى من المشاعر والمدارك عن أعمالها في سبيل الهداية والرشاد ، وحرّموا ما رزقهم الله — افتراءً عليه — لصرفها في غير ما خلق لأجله بسبب الجهل والفساد » . وأنهم مستغرقون في بحار اللذات أسارى في أيدي الظلمات ، ومع ذلك ادعى فيهم « جَمْعٌ من السفهاء والحمقاء علمَ المعرفة ومشاهدة الحق والوصول إلى القرب ومعاينة الجمال الأحدي والفوز باللقاء السرمدي وحصول الفناء والبقاء . وأيم الله إنهم لا يعرفون شيئاً من هذه المعاني إلاّ بالأسامي »[2] .

ويعزو مُلاّ صدرا أغلاطهم إلى أمرين : « الأول أن بعضهم ربما اشتغل بالمجاهدة قبل إحكام العلم بالله وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة النفس الإنسانية ومراتبها في العلم والعمل . والثاني وقوع شيء مما يسمّونه خوارق العادات ويعدّونه من الكرامات ، وهو من الشعبذة والحِيَل التي يحتال بها أهل المخاريق والمشعبذون وأصحاب الفأل والزجر »[3] .

ويهاجم شطحات المتصوفين ويرى ان استماع المسلمين لها فيه أضرار ، إذ هي دعاوى عريضة في العشق مع الله والوصال معه ، أو هي كلمات غير

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٨ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٥٩ . وراجع « كسر أصنام الجاهلية » ص ٣ .

(٣) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٥٩ .

* نشره الأستاذ محمد تقي دانش بزوه ، ضمن مطبوعات دانشكده الهيات ، طهران سنة ١٣٤٠ هـ ش / ١٩٦٢ م .

مفهومة لها ظواهر رائعة وفيها عبارات هائلة لكن ليس وراءها طائل ، إلاّ أنها تشوس القلوب وتدهش العقول .

كذلك هاجم تلميذه ملا محسن فيض (المتوفى سنة ١٠٩١) الصوفية إذ يدعي بعضهم « أنه بلغ من التصوف والتألّه حدّاً يقدر معه أن يفعل ما يريد بالتوجه وأنه يسمع دعاؤه في الملكوت ، ويستجاب نداؤه في الجبروت ، (و) يسمّى بالشيخ والدرويش ؛ وأوقع الناس بذلك في التشويش » . ومن هنا يقع التشويش في عقول الناس فيفرطون في الاعتقاد فيه ويتجاوزون به حدّ البشر . ويصل الأمر ببعضهم أن يدعي أنه يأتي في اخباره بما ينزل منزلة الغيب فيقول : قتلت البارحة مَلِكَ الروم « أو هزمتُ سلطان الهند وقلبت عسكر النفاق ، أو صرعتُ فلاناً — يعني به شيخاً آخر نظيره »[1] .

وفي كتاب « حديقة الشيعة » المنسوب إلى مقدس أحمد أردبيلي (المتوفى سنة ٩٩٣) فصول طويلة في الهجوم على الصوفية[2] ، وقد قسّم مذاهبهم إلى (١) حلولية ؛ (٢) واتحادية ؛ (٣) وعشاقية ؛ (٤) وواصلية . ويقول صاحب الكتاب إن أكثر علماء الشيعة ، مثل الشيخ المفيد وابن بابويه ، قالوا عن الصوفية : « اين دوطائفه ضالّه را خواه حلوليّه باشند وخواه اتحاديه ازغلات شمروه أند[3] » ، وترجمتها : هذه الطائفة الضالة سواء منهم الحلولية والاتحادية ، هم من الغلاة » .

ويحمل خصوصاً على القائلين بالاتحاد من الصوفية المتأخرين مثل محي الدين بن عربي وعبد الرزاق الكاشاني وشيخ عزيز النسفي ، وينعتهم بالكفر والزندقة .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٦١ .

(٢) « حديقة الشيعة » المنسوب إلى أحمد بن محمد آذر بايجاني ، المعروف بـ « مقدس أردبيلي » المتوفى سنة ٩٩٣ ، ص ٥٦٤ — ٦٠٦ . تهران ، بدون تاريخ ، از انتشارات كتابخانه شمس . وقد رجعنا أيضاً إلى النسخة المخطوطة في مكتبة جامعة طهران المركزية برقم ٢٣٥٢ ، وتختلف كثيراً عن المطبوعة .

(٣) الكتاب نفسه ص ٥٦٦ .

ويكرّس فصلا آخر للهجوم على الملامتية، وآخر ضد الإلهامية ، وآخر ضد التلقينية وبالجملة فإنه في هجومه على الصوفية والتصوف يعد المُناظِر الشيعي « لتلبيس ابليس » من جانب اهل السنة . وينقل عن صاحب كتاب « بيان الأديان » قوله إن أصل القول بالحلول والاتحاد مأخوذ عن الصابئة والنصارى ، وخصوصاً الأخيرين [1] . ثم يربط ربطاً وثيقاً بين الباطنية وبين الصوفية (الصفحات ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥) .

ومما يحتج به المؤلف على موقف قدماء علماء الشيعة ضد التصوف أن الشيخ المفيد صنّف كتاباً « موسوماً بكتاب الرد على الحلاج » [2] . والشيخ المفيد (أبو عبد الله محمد بن محمد العكبري) توفي في سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) . وكتابه هذا في « الرد على الحلاج » مفقود ، ولكن ذكره ابن حمزة تلميذ الطوسي (المتوفى سنة ٤٥٩) في « الهادي إلى النجاة من جميع المهلكات » ؛ وغيره .

لكنْ فارق كبير جداً بين هجوم ملاّ صدرا وبين هجوم أحمد أردبيلي المتعاصرين تقريباً (ولدُ ملاّ صدرا في سنة ٩٧٩ وتوفي سنة ١٠٥٠ ، بينما توفي أحمد أردبيلي سنة ٩٩٣ هـ) . إذ هجوم مُلاّ صدرا لا ينصبّ على التصوف نفسه وفي ذاته ، بل على بعض المنتسبين إلى التصوف في زمانه وهم الذين ينعتهم بنعت « البطّالين » الذين لا يشتغلون بالرياضة والمجاهدة والخلوة والصمت ، بل يشتغلون « بالشهوات وأكل الحرام والشبهات » [3] ؛ وهم مفلسون من العقل والرشاد ، ويدّعون اتيان الكرامات وخوارق العادات . ويعدّد ملا صدرا نقائصهم فيذكر أولاً أنهم ضعفاء العقول ، غلاظ الطبع ، غير قابلة قلوبهم للنقوش العلمية ولا مستعدة للجلايا القدسية ، وثانيا : أنهم

---

(١) الكتاب نفسه ص ٥٦٦ .

(٢) الكتاب نفسه ص ٥٩٨ س ٢٢ — س ٢٣ .

(٣) ملا صدرا : « كسر أصنام الجاهلية » ص ٩ . تهران ، سنة ١٩٦٢ .

مع غلظ طبائعهم وسخافة عقولهم مشتغلون باللذات ، ونفوسهم ملطخة بالشهوات ، صارفون أعمارهم في أكل الشبهات وطعام الظلمة واللصوص من القرويين والبدويين الذين لا يعرفون الحلال من الحرام . وثالثاً أنهم « مُعْرِضون عن درك الحقائق ، منكرون لطور العلم ومسلك الحكماء، وقائلون صريحاً إن العلم حجاب ، وإن العلماء هم المُبْعَدون عن الله » (ص ١٦) . ورابعاً : انهم مع هذه الحجب الظلمانية محجوبون عن العلوم الحقيقية والمعارف الربانية ، باعتقادات عامّية ... كقولهم : إن العلم حجاب ... وإن الشريعة لأهل الحجاب ، لا للواصلين ، وإنها قِشْرٌ ما لم يُلْفَظ لا يمكن الوصول إلى لُبّ الأسرار ، وإن الشيخ الفلاني كان يتكلم مع الله مراراً ، إلى غير ذلك من الكلمات الواهية والأقوال الباطلة التي اشتغلت نفوسهم بها في أول الأمر ، وشُغِفُوا بتكريرها ، وسمعوا تحسينات العوامّ منها واعتادوا الانتعاش إلى غير الحق بسببها . ومن هذا القبيل تُرهّات بعض المتصوفة وشَطحيّاتهم التي لا معنى لها ، وهم مشتغلون بتكريرها وتذكيرها ، وسائر ما يجري مجرى هذه الواهيات من أضغاث أحلامهم ، والصور التي يَرَوْنها في منامهم ، ثم ينقلونها لغيرهم ، مما لا تعبير لها ، ولا معنى يعتريها » (ص ١٧) .

وإذن فمُلاّ صدرا يستنكر سلوك هؤلاء الأدعياء ، ولا يستنكر التصوف بعامة . وآية ذلك أنه يسوق في الفصول التالية بيان التصوف الحق . فيوضح أنه هو ذلك المبني على معرفة النفس بجوهرها وعالمها ومبدئها ومعادها ، وأنه « لا رُتْبَة عند الله أجلّ من المعرفة بذاته وصفاته وأفعاله ، وأن العارف هو العالم الربّاني ، وأن كل من هو أعْلَمُ فهو أعرف وأقرب عند الله » و « أن من شَرَع في المجاهدة والرياضة ، قبل إكمال المعرفة وإحكامها بالعبادات الشرعية ، فهو ضالٌّ مُضِلّ وغاوٍ مُغْوٍ ؛ والجلوسُ معه في مجلس جماعته وحضور مريديه مميتٌ للقلب ، ومفسد للدين ، وضارٌّ بعقائد المسلمين » (ص ٢٠ ، ٢١) .

لكنه — رغم ذلك — ينكر بعض ظواهر الصوفية ، وعلى رأسها الشطح . إذ يرى أن المراد بالشطح أمران : أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله ، والوصال معه ، المغني عن القيام بالأعمال الظاهرة والعبادات البدنية ، حتى ينتهي قومٌ إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب » (ص ٢٨) وهذا كلام في نظر ملا صدرا — عظيم الضرر ، مفسد لعقائد المسلمين . و « الصنف الثاني من شطحياتهم كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، ليس وراءها طائل ، إلاّ أنّها تشوّش القلوب ، وتدهش العقول ، وتحيّر الأذهان » (ص ٢٩) .

وينتهي إلى أن الغاية القصوى في الرياضات النفسانية للإنسان هي تحصيل المعارف الإلهية والعلوم البرهانية . والأول يتم بالمكاشفة . و « أرفع علوم المكاشفة وأشرفها هي معرفة الله تعالى ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها... وجميع جهات الفضيلة على سائر العلوم متحققة في المعارف الإلهية » (ص ٤٤ ، ٤٥) . والعارف العالم بالكشف يشعر بلذة مَعْرفته وكأنه في « جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ، وهو آمنٌ من انقطاعها» (ص ٤٨) . وجميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف . ويستمر ملا صدرا في بيان لذات العارف الروحية ، بما يُعَدّ شرحاً وتوسّعاً لما ذكره ابن سينا عن « العارف » في آخر القسم الإلهي من كتاب « الإشارات والتنبيهات » .

فهو إذن يدعو إلى ما يسمى «بالتصوف النظري» le mysticisme spéculatif الذي تجد نموذجه الأول عند أفلوطين ؛ ولا يهاجم إلاّ التصوف المنصرف عن العلم ، والمغالي في الخوارق والشطح .

أما أحمد أردبيلي فيهاجم التصوف بكل أنواعه .

٣ — أما أهل السُّنّة فكانوا أشدّ الفرق هجوماً على التصوف والصوفية :

ا — ومن أوائل ما لدينا من هجوم على الصوفية ما ورد في كتاب « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » لأبي الحسين الملطي (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) فقد أورد تحت من سمّاهم الروحانية هجوماً عنيفاً على أنواع من اتجاهات التصوف . قال :

« ومنهم (أي من الفرق ذات الأهواء والبدع) : الروحانية ، وهم أصناف . وإنما سمّوا : « الروحانية » لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السموات ، وبها يعاينون الجنان ، ويجامعون الحور العين ، وتسرح في الجنة . وسمّوا أيضاً : « الفكرية » لأنهم يتفكرون — زعموا — في هذا حتى يصيرون إليه . فجعلوا الفكر — بهذا — غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم . ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة إلى هذه الغاية ، فيتلذذون بمخاطبة الله لهم ومصافحته إياهم ونظرهم إليه — زعموا ! — ويتمتعون بمجامعة الحور العين ومفاكهة الأبكار على الأرائك متكئين ، ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار . ولو كانت الفكرةُ في ذنوبهم الندمَ عليها والتوبةَ منها والاستغفار ، لكان مستقيماً . وأما هذه الفكرة فبوّبها لهم الشيطان ، لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلاّ مَنْ صار إليها يوم القيامة ؛ وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات .

« ومنهم صنف من الروحانية : زعموا أن حب الله يَغْلِب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبُّه أغلبَ الأشياء عليهم . فإذا كان كذلك عندهم ، كانوا عنده بهذه المنزلة ، ووقعت عليهم الخلّة من الله ، فجعَلَ لهم السرقة والزنا وشُرْبَ الخمر والفواحش كلها — على وجه الخُلة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه الخُلّة كما يحلّ للخليل الأخذُ من مال خليله بغير إذن — منهم رباح وكليب كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان اليها .

كذبوا أعداءُ الله ! وكيف يكون ذلك وابرهيم الخليل – خليل الرحمن عليه السلام – يُسأل يوم القيامة أن يشفع للناس إلى ربهم ليحكم بينهم ، فيقول : لستُ هناك ، ويذكر ثلاث كذبات – كذا روى عن النبي عليه السلام أنه قال .

ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة من تضمير أنفسهم وحملها على المكروه . فإذا بُلغتْ تلك الغاية أعطى نفسه كلَّ ما تشتهي وتتمنى وإنْ أكَلَ الطيبات كأكل الأراذلة من الأطعمة ، وكان الصبّر والخبيص عنده بمنزلة (= واحدة) ، وكان العسل والخل عنده بمنزلة . فإذا كان كذلك ، فقد بلغ غاية السبقة ، وسقط عنه تضمير الميدان ، وَأتبَعَ نفسه ما اشتهت . منهم ابن حيان كان يقول هذه المقالة .

ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا إشغال للقلوب ، وتعظيم للدنيا ومحبة لها. ولما عظمت الدنيا عندهم تركوا طيّب طعامها ولذيذَ شرابها ولَين لَباسها وطيب رائحتها . فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ؛ وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلبُ بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها . و (رباح وكليب) كانا يقولان هذه المقالة » [1] .

وعلى الرغم من أن الملطي لم يذكر هنا اسم الصوفية ولم يحدد – فيما عدا اسمى رباح وكليب – أصحاب هذه الاتجاهات ، فإن من الممكن مع ذلك أن نستنتج من بيانه لها أنها اتجاهات عند بعض الصوفية الغلاة ، ممن سيدمغهم السراج – وهو أكبر مدافع عن التصوف والصوفية – بأنهم من الصوفية الذين غلطوا في فهم التصوف ، ولاينعتهم بوصف الصوفية الحقيقيين ، بل يقول عنهم إنهم من « المترسّمين بالتصوف » (« اللمع » ص ٤٠٩) . وسنعود

---

(١) أبو الحسين الملطي : « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » ص ٩٢ – ٩٣ . القاهرة ، سنة ١٩٤٩ .

إليهم بعد حين . وقد توفي السرّاج بعد الملطي بعام واحد (الملطي توفي سنة ٣٧٧ هـ ، والسَّراج سنة ٣٧٨ هـ) فهما متعاصران ، ولا بد أن تكون إشارة الملطي إلى الروحانية هي عين إشارة السراج إلى هؤلاء « المترسّمين بالتصوف » والذين وقعوا في أغلاط فاحشة في فهمهم للتصوف .

ب — وأوسع هجوم من جانب أهل السّنة على التصوف والصوفية هو ما قام به أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) في كتابه المشهور باسم « تلبيس ابليس » (البابان العاشر والحادي عشر، ص ١٥٥ — ٣٧٣) . وها نحن نلخص المآخذ التي أخذها أهل السنة (بالمعنى الواسع جداً) على التصوف والصوفية ، كما يذكرها ابن الجوزي :

١ — انهم انصرفوا عن العلم إلى العمل ، وانصرفوا عن علم القرآن والحديث إلى المواعظ والخطرات ؛

٢ — انهم قالوا بالحلول ؛

٣ — انهم تجاوزوا الحدود في أمور العبادات : في الطهارة والصلاة ؛

٤ — انهم دعوا إلى الخروج عن الأموال والتجرد عنها ؛

٥ — انهم اتخذوا ملابس خاصة ، مثل لبس الصوفِ ولبس الخرق والمُرَقّعات ؛

٦ — انهم اتخذوا أوضاعاً خاصة في الطعام ؛

٧ — انهم اصطنعوا السماع والرقص واستدعاء الوجد ؛

٨ — انهم أولعوا بصحبة الأحداث والنظر إلى المُرْد ؛

٩ — أنهم دعوا إلى التوكل وقطع الأسباب وترك الاحتراز في الأموال ، وترك التداوي ؛

١٠ — انهم آثروا الوحدة والعزلة والانفراد عن الناس ، وفضلوا عدم

الزواج على الزواج ، ودعوا إلى ترك طلب الأولاد حين الزواج ؛

١١ – انهم دعوا إلى السياحة « لا إلى مكان معروف ولا إلى طلب علم ؛ وأكثرهم يخرج على الوحدة ولا يستصحب زاداً ، ويدعي بذلك الفعل التوكل » (ص ٢٨٧) ؛

١٢ – الشطح والدعاوى وادعاء الكرامات والمخاريق والشعبذة .

ويستشهد على خروج الصوفية عن السنّة في هذا بما وقع لبعضهم من وقائع تدل على انكار الفقهاء واهل الدين عليهم ذلك فيذكر أن ذا النون المصري أنكر عليه سلوكه وآراءه عبد الله بن عبد الحكم وكان رئيس قضاة مصر ، وهجره لذلك علماء مصر ورموه بالزندقة . وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق لأنه كان « يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه . وشهد قومٌ على أحمد بن أبي الحَواري أنه يفضّل الأولياء على الأنبياء ، فهرب من دمشق إلى مكة . وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول ، حتى إنهُ ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول : لي معراجٌ كما كان للنبي ﷺ معراج ؛ فأخرجوه من بسطام . وأقام بمكة سنتين ، ثم رجع إلى جرجان فأقام بها إلى أن مات الحسين بن عيسى ، ثم رجع إلى بسطام . قال السُلَمي : وحكى رجلٌ عن سهل بن عبد الله التستري أنه يقول إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه . وإنه يتكلم معهم. فانكر ذلك عليه العوامُ حتى نسبوه إلى القبائح ، فخرج إلى البصرة فمات بها . قال السُلَمي : وتكلّم الحارث المحاسبي في شيء من الكلام والصفات ، فهجره أحمد بن حنبل ، فاختفى ، إلى أن مات [1] ». وكذلك يذكر أن علماء العصر – عصر الحلاج – اتفقوا على إباحة دمه.

وموقف ابن الجوزي – وهو من كبار المتشددين في السلفية والسُنية – مفهوم ، على أساس أن التصوف علم مستقل عن الفقه ، وسلوك يتجاوز

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : « تلبيس ابليس » ص ١٦١ – ١٦٢ ، القاهرة ، ادارة الطباعة المنيرية ، بدون تاريخ .

نطاق الظاهر والرسوم الظاهرة . ومَنْ يتصور الإسلام على النحو الذي يفعله ابن الجوزي من الطبيعي أن يرى في التصوف خروجاً على السنّة الدقيقة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ على مآخذه هذه أن بعضها أشار إليها بعض الصوفية ومن دافعوا عن التصوف أنها خروج عن طريق الصوفية وانحراف عن التصوف ، أو على حد تعبير السرّاج « أغلاط » وقع فيها بعض الصوفية – كما سنرى تفصيل هذا بعد قليل .

جـ) ثم يأتي ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨هـ = ١٣٢٨ م) فيبدي آراءً في الصوفية بعضها معتدل ، وبعضها الآخر متطرف .

١ – فهو يعرض للتصوف والصوفية ويبين أصل الكلمة ، ويرجّح أن « الصوفي منسوب إلى اللبسة (أي لبس الصوف) ، لأنها ظاهر حالهم [1] . » . ويقول إنه قد انتسب إلى الصوفية « طوائف من الزنادقة وغيرهم ، كالحلاج مثلاً ، فإن أكثر المشايخ : مشايخ الطريق ، أنكروه وأخرجوه عن الطريق ، مثل الجنيد بن محمد شيخ الطائفة وغيره ، كما ذكر أبو عبد الرحمن السُّلَمى في « طبقات الصوفية » ، والحافظ أبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد » .

ثم يبين الخلاف في الحكم عليهم فيقول : « وقد تنازع الناس في طريقهم : فطائفة ذمّتْ الصوفية والتصوّف وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السُّنّة . وطائفة غَلَتْ فجعلت طريقهم أفضل الطرق . » ويَفْصل في هذا الخلاف فيقول : « والصواب أنهم يجتهدون في طاعة الله ، فمنهم المذنب والتقيّ ؛ وقد صارت الصوفية ثلاث طبقات : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسوم . فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصَفناهم . وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وُقِفَتْ عليهم الخوانق والوقوف فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق . وأما صوفية الرسوم : فمنهم المقصودون

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» لابن تيمية ص ٥٧١ . القاهرة ، ١٩٤٩ .

المقتصرون على التشبّه بهم في اللباس والآداب الوضعية ؛ فهم بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم [1] » .

كذلك ينكر ابن تيمية ما سبق أن أنكره ابن الجوزي،ولكن بتنويع : من السماع [2] ، والحزن [3] والرقص (ص ٥٩٥) وما ينجم عن ذلك من تواجد وأحوال .

لكنه في مقابل ذلك يقرّ بكرامات الأولياء ، فيقول : « وكرامات الأولياء حقٌّ باتفاق أئمة أهل الإسلام والسُّنّة والجماعة . وقد دل عليها القرآن في غير موضع ، والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم . وإنما أنكر أهل البدع من المعتزلة والجهمية ومَنْ تابعهم . لكنّ كثيراً مِمّن يدّعيها أو تدّعى له يكون كذّاباً أو ملبوساً عليه . وأيضاً فإنها لا تدل على عصمة صاحبها ، ولا على وجوب اتباعه في كل ما يقوله . بل قد تصدر بعضُ الخوارق ، من الكشف وغيره ، عن الكُفّار والسّحرة بمُواخاتهم للشياطين ... ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء ، لم يثبت له ولاية ولا إسلام حتى ينظر وقوفُه عند الأمر والنهي [4] » .

أما المواجيد من السكر والواردات فإنها « إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها — كان محموداً على ما فعله من الخير ، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره . وهم أكمل مِمّن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانه وقساوة قلبه . ومَنْ لم يَزَلْ عقلُه ، مع كونه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم وأكمل ، فهو أفضل منهم . وهذه حال الصحابة — رضي

---

(١) الكتاب نفسه ص ٥٧١ — ٥٧٢ .
(٢) الكتاب نفسه ، ص ٥٩١ — ٥٩٦ .
(٣) الكتاب نفسه ص ٥٩١ .
(٤) الكتاب نفسه ص ٦٠٠ .

الله عنهم أجمعين — وحالُ نبيّنا صلى الله عليه وسلم : فإنه أسْرى به ورأى ما رأى من آيات ربّه الكبرى ، وأصبح ثابت العقل لم يتغيّر . فحاله — بلا شكّ — أكمل من حال موسى الذي خرّ صَعِقاً لما تجلّى ربه للجبل وجعله دَكّاً . وحال موسى حالٌ جليلة فاضلة عَلِيّةٌ ، لكنّ حالَ محمد ﷺ أفضل وأكمل وأعلى [1] » .

كذلك يبرر ابن تيمية المقامات والأحوال ، بنفس الطريقة أي إذا فهمت بما هي في أصل الدين ، دون تجاوز ولا مبالغة . فهو يقول : « أعمال القلوب ، التي تسمى المقامات والأحوال ، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين : مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك — كل ذلك واجبٌ على جميع الخلق المأمورين بأصل الدين ، باتفاق أئمة الدين [2] » . « وهذه المقامات : للخاصة خاصتها ، وللعامة عامّتها [3] » . وذلك لأن « المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له » فهذه كلها خير محض ، وهي حسنة محبوبة في حق كل من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين (الموضع نفسه ص ٥٨٩) . ويُخطىء ابن تيمية الذين يذهبون إلى أن أعمال القلب وتوابعها : من الحب والرجاء والخوف والشكر ونحوه — هي من مقامات الخاصّة المتقربين بالنوافل ، ويقرر أن « جميع هذه الأمور فَرْضٌ على الأعيان باتفاق أهل الإيمان » [4] .

ولكن ينكر ما ينسبه الصوفية إلى الخضر والقطب الغوث من أوصاف وأفعال خارقة . فقول القائل إن الغوث هو القطب الجامع في الوجود ، بمعنى

(١) الكتاب نفسه ص ٥٧٠ — ٥٧١ .
(٢) الكتاب نفسه ص ٥٨٧ .
(٣) الكتاب نفسه ص ٥٨٩ .
(٤) الكتاب نفسه ص ١٢٤ .

أنه مدد الخلائق في رزقهم ونَصْرٌ لهم، بل وَمَدَدُ الملائكة — هذا كفر بالاتفاق . وكذلك قول القائل « إن رزقه ينزل من السماء باسم غوث الوقت ، واسمه « خَضِر » بناء على قول من يقول منهم إن الخضر مرتبة وإن لكل زمان خضراً ... فهذا كله باطل لا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا قالـه أحد من سَلَف الأمة ولا أئمتها ، ولا من الشيوخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم [1] . » ويرى أن الصواب هو أن الخضر مات ؛ ثم إنه ليس للمسلمين حاجة إليه لأنهم أخذوا دينهم عن النبي . ويقرر « أن عامة ما يحكى عن الخضر إما كذب ، وإما مبنيٌّ على ظن » (ص ١٩٩) . ويدمغ قول من قال « إن القطب ينطق علمه عن علم الله ، وقدرته عن قدرة الله ، فيعلم ما يعلمه الله ، ويقدر على ما يقدر عليه الله » بأن هذا « كفر قبيح وجهل صريح [2] » . كذلك « من قال إن الأولياء أفضل من جميع الخلق— فقوله أظهرُ عند جميع أهل الملل من أن يُشَكَّ في كذبه ، بل هو معلومٌ بالضرورة أنه باطل ، فإن الرسل أفضل الأنبياء ، وأولو العزم — كنوح وابرهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — أفضل من سائر المسلمين ، وإن محمداً — صلى الله عليه وسلم ! — سيدُ وَلَدِ آدم » [3] . ذلك أن « من كان رسولاً فقد اجتمعت فيه ثلاثة أوصاف : الرسالة ، والنبوة ، والولاية . ومَنْ كان نبياً ، فقد اجتمع فيه الصفتان . ومَنْ كان ولياً فقط ، لم يكن فيه إلاّ صفة واحدة » [4]

وإلى هاهنا وابن تيمية خفيف الوطأة على الصوفية ، لأن التصوف الذي يقصده هنا ليس ذلك التصوف الذي سيبدؤه الحلاّج ويبلغ أوجه عند ابنُ عربي (المتوفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) والصدر القونوي (المتوفى سنة ٧٢٩ هـ /

---

(١) الكتاب نفسه ص ١٩٨ .
(٢) الكتاب نفسه ، ص ١٩٩ .
(٣) الكتاب نفسه ، ص ٥٦٠ .
(٤) الكتاب نفسه ، ص ٥٦٠ .

١٣٢٩ م) والعفيف التلمساني (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م) أعني التصوف القائل بوحدة الوجود والحلول . فهذا النوع يهاجمه ابن تيمية بغاية العنف ، وينعت أصحابه بالحلولية والاتحادية ، وهم صنفان : قوم يخصونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء أو في أنواع من المشايخ ؛ وصنف يَعُمُّون فيقولون بحلول الله أو اتحاده في جميع الموجودات ، « كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومَنْ تبعهم من الاتحادية كأصحاب ابن عربي ، وابن سبعين ، وابن الفارض ، والتلمساني ، والبلياني وغيرهم » [1] .

وأشدّ هجوم ساقه ابن تيمية ضد هؤلاء هو في رسالة إلى الشيخ نصر المنبجي . ففيها يهاجم القائلين بالاتحاد العام أو الحلول المطلق ويقرر أنه ما علِم أحداً سبقهم إليه إلا من أنكر وجود الصانع ، إذ هم يقررون « أن عين وجود الحق هو عين وجود الخلق وأن وجود ذات الله — خالق السموات والأرض — هي نفس وجود المخلوقات ، فلا يُتصور عندهم أن يكون الله تعالى خلَق غيره ولا أنه رب العالمين ولا أنه غنيٌّ وما سواه فقير » [2] .

وفيما يتصل بابن عربي يحمل ابن تيمية على ما تضمنه كتاب « فصوص الحكم » من قول بوحدة الوجود ، لأنه بُنِي على أصلين : أحدهما أن المعدوم شيء ثابت في العدم ، والثاني أن وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ليس غيره ولا سواه . « وهذا هو الذي ابتدعه (ابن عربي) وانفرد به عن جميع مَنْ تقدمه من المشايخ والعلماء . وهو قول بقية الاتحادية ؛ لكن ابن العربي أقربهم إلى الإسلام وأحسنُ كلاماً في مواضع كثيرة ، فإنه يفرّق بين الظاهر والمظاهر فيقرّ الأمر والنهي والشرائع على ما

---

(١) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل الكبرى » ، الرسالة السابعة : الوصية الكبرى ، جـ ١ ص ٢٩٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

(٢) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ ص ١٧٢ ، طبعة رشيد رضا ، القاهرة بدون تاريخ .

هي عليه ؛ ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات . ولهذا كثيرٌ من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم فينتفعون بذلك وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ...

وأما صاحبه الصدر الرومي فإنه كان متفلسفاً ، فهو أبعد عن الشريعة والإسلام . ولهذا كان الفاجر [1] التلمساني — الملقب بـ « العفيف » ! — يقول : كان شيخي القديم متروحناً — يعني الصدر الرومي — فإنه كان قد أخذ عنه ، ولم يدرك ابن عربي . (فإن الصدر الرومي) في كتاب « مفتاح غيب الجمع والوجود » وغيره يقول إن الله تعالى هو الوجود المطلق والمعيّن ، كما يفرق بين الحيوان المطلق والحيوان المعيّن ، والجسم المطلق والجسم المعين . والمطلق لا يوجد إلاّ في الخارج مطلقاً ولا يوجد المطلق إلاّ في الأعيان الخارجة . فحقيقة قوله إنه ليس لله سبحانه وجودٌ أصلاً ولا حقيقة ولا ثبوت إلا نفس الوجود القائم بالمخلوقات . ولهذا يقول هو وشيخه إن الله تعالى لا يُرَى أصلاً ، وإنه ليس له في الحقيقة اسم ولا صفة ، ويصرّحون بأن ذات الكلب والخنزير والبول والعذرة عين وجوده — تعالى الله عمّا يقولون .

وأما « الفاجر » التلمساني فهو أخبث القوم وأعمقهم في الكفر . فإنه لا يفرّق بين الوجود والثبوت كما يفرق بين عربي ، ولا يفرّق بين المطلق والمعيّن كما يفرّق الرومي . ولكن عنده ماثمّ غير ولا سوى بوجهٍ من الوجوه ، وأن العبد إنما يشهد السِّوى ما دام محجوباً فإذا انكشف حجابه رأى أنه ماثمّ غير يَتَبين له الأمر . ولهذا كان يستحلُّ جميعَ المحرّمات حتّى حكى عنه الثقاة أنه كان يقول : البنت والأم والأجنبية شيءٌ واحد ، ليس في ذلك حرامٌ علينا ، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام — فقلنا : حرام عليكم . وكان يقول : القرآن كله شِرْكٌ ليس فيه توحيد ، وإنما

---

(١) يستعمل ابن تيمية هذا الوصف في مقابل اللقب المشهور بـ : « العفيف » التلمساني .

التوحيد في كلامنا . وكان يقول : أنا ما أمسك شريعة واحدة . وإذا أحسن القولَ يقول : القرآن يوصل إلى الجنة ، وكلامنا يوصل إلى الله تعالى . وشَرَح الأسماءالحُسْنَى على هذا الأصل الذي له . وله ديوان شعر قد صنع فيه أشياء ، وشعره في صناعة الشعر جيد ، ولكنه كما قيل: لحم خنزيرٍ في طبق صيني . وصنّف للنصيرية عقيدة . وحقيقة الأمر عنده أنّ الحق بمنزلة البحر ، وأجزاء الموجودات بمنزلة أمواجه .

وأما ابن سبعين فإنه في « البُدّ » [١] و « الإحاطة » [٢] يقول أيضاً بوحدة الوجود ، وأنه ما ثَمّ غير .

وكذلك ابن الفارض في آخر « نَظْم السلوك » [٣] ؛ لكن لم يصرّح : هل يقول بمثل قول التلمساني ، أو قول الرومي ، أو قول ابن عربي . وهو إلى كلام التلمساني أقرب .

لكن ما رأيت فيهم من كفر هذا الكفر الذي ما كَفَره أحدٌ قط مثل التلمساني وآخر يقال له البَلياني [٤] من مشايخ شيراز ؛ ومن شعره :

وفي كـل شيءٍ لـه آيـة تـدلُّ عـلى أنـه عَيْنُـهُ

---

(١) أي كتاب « بد العارف » ، وسننشره قريباً .

(٢) راجع كتابنا : « رسائل ابن سبعين » ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٣) أي القصيدة التائية الكبرى .

(٤) البلياني : هذه النسبة إلى بليان وهي قرية من قرى مقاطعة كازرون في جنوب غربي ايران ، على مسافة ٨ كم جنوبي كازرون ، وعلى ٢ كم من الطريق الفرعي كازرون — جره ، وسكانها من الشيعة الإيرانيين — راجع فرهنگلر جغرافيائي ايران ، جلد ٧ استان هفتم ، تهران ، سنة ١٣٣٠ هـ ش. ونسب إليها جماعة منهم محمد بن مسعود بن محمد بن خواجه امام مسعود بن محمد بن علي بن أحمد بن عمر بن اسماعيل ابن الشيخ أبي علي الدقاق البلياني الكازروني ، ذكره ابن الجزري في مشيخة الجنيد البلياني ، توفي سنة ٧٥٨ هـ ، وابنه محمد وتوفي سنة ٨٠١ وابنه الآخر نسيم الدين وتوفي سنة ٨٠١ هـ . راجع عن الأب : « الدرر الكامنة » لابن حجر جـ ٤ ص ٢٥٧ ، طبعة الهند ؛ وعن الولدين راجع « الضوء اللامع للسخاوي جـ ١٠ ص ٢١ — ٢٢ ، والثلاثة من المحدثين والعلماء .

وأيضاً :

وما أنت غيرُ الكون ، بل أنت عينه ويفهم هذا السرّ مَــنْ هوذائقه

وأيضا :

وتلتذّ إن مرّت على جسدي يــدي لأنّي في التحقيق لستُ سواكم

وأيضا :

ما بــال عيسك لا يَقــرُّ قرارُها وإلامَ ظِلّــك لايــني متنقــلا
فلسوف تعلم أن سيرك لــم يكــن إلاّ إليك إذا بلغت المنـــزلا

وأيضا :

مــا الأمــر إلاّ نَسَقٌ واحـــدٌ ما فيه مِنْ حَمْــدٍ ولا ذمّ
وإنمــا العادة قــد خَصّصَــتْ والطبعُ والشارعُ في الحكــم » [1]

والخلاصة إذن أن ابن تيمية لا يهاجم التصوف بما هو تصوّف ، وإنما يهاجم ما جرى من انحرافات ، في نظره ، عن طريق التصوف الصحيح . وموقفه في هذا لا يبعد كثيراً عن موقف السراج والسلمي وغيرهما من أنصار التصوف .

د) فإذا انتقلنا إلى الأندلس وجدنا ابرهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (المتوفى سنة ٧٩٠ هـ) في كتاب « الاعتصام » يأخذ على الصوفية بعض الأمور :

١) منها الاستناد إلى الرؤيا في استخراج الأحكام الشرعية ؛

٢) واجتماع الصوفية للذكر بصوت مرتفع ثم الغناء والرقص والمبالغة في

---

(١) الكتاب نفسه جـ ١ ص ١٧٦ — ١٧٨ .

التواجد ، والأخذ في الرقص والزّمر والدوران والضرب على الصدور .

والشاطبي لا ينكر أحوال الصوفية عامةً ، بل يرى أن من الواجب أن توزن أحوال الصوفية بميزان الشرع ، فإن وافقته كانت صحيحة ، وإلا كانت بدعة . ويورد أن أحمد بن حنبل لم ينكر على الحارث المحاسبي سلوكه هو وأصحابه ، « والحارث المحاسبي من كبار الصوفية المقتدى بهم » [1]

(١) « الاعتصام » لابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي ، جـ ١ ص ٢٣٠ ، القاهرة ، التجارية ، بدون تاريخ .

— ٦ —

نقد الصوفية لأنفسهم

على أن الصوفية أنفسهم قاموا بعملية نقد ذاتي ، تبينوا فيها انحراف بعض المترسّمين بالتصوف .

وأول ما لدينا في هذا الباب ما كتبه أبو نصر السرّاج المتوفى سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) في كتابه « اللمع في التصوف » (ص ٤٠٩ — ٤٣٥ ، نشرة نيكلسون لَيْدن سنة ١٩١٤) .

وقد صنف الغالطين في التصوف إلى ثلاث طبقات : « فطبقة منهم غلطوا في الأصول : من قلة إحكامهم لأصول الشريعة ، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص ، وقلة معرفتهم بذلك ، كما قال بعض المشايخ حيث يقول : إنما حُرِموا الوصول لتضييع الأصول . وطبقة ثانية منهم غلطوا في الفروع ، وهي الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال — فكان ذلك من قلّة معرفتهم بالأصول ، ومتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع ، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات ويوقفهم على المنهج الذي يؤديهم إلى مطلوبهم . فمثلهم في ذلك كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج ، فالذي يفسده أكثر مما يصلحه ، وكلما ظنّ أنه قد ظفر بجوهر نفيس لم يجد معه إلاّ خزفاً خسيساً لأنه لم يتبع أهل البصيرة الذين يميزون بين الأشباه والأشكال والأخلاق والأجناس . فعند ذلك يقع لهم الغلط ، ويكثر منهم الهفوة والشطط : فهم

متحيّرون ومتفرّقون بين منهزم ومفتون ، ومتجبّر ومحزون ، ومغستر بالظنون ، ومحترف بالجنون ، ومتلبّس بالمجون ، ومُكْمَد بالشجون ، ومُدّع ومفتون ومتمن للمنون . فسبحان مَنْ قَسَم لهم بذلك ، وهو العالم بدائهم ودوائهم ، وسقمهم وشفائهم . — والطبقة الثالثة كان غلطهم فيما غلطوا فيه زلّة وهفوة ، لا علة وجفوة. فإذا تبيّن ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، فسدّوا الخَلَل ، ولمّوا الشعث وتركوا العناد وأذعنوا للحق وأقروا بالعجز ؛ فعادوا إلى الأحوال الرضيّة والأفعال السّنيّة والدرجات الرفيعة ، فلم تَنْقُص مراتبهم هفوتُهم ، ولم تُظلم الوقتَ عليهم جفوتُهم ، ولم تمتزج بالكدورة صفوتهم.

وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث على أحوال شتى من التفاوت والإرادات والمقاصد والنيات . . . فمن غلط في الأصول فلا يسلم من الضلالة ، ولا يُرْجَى لدائه دواء إلا أن يشاء الله ذلك . والغلط في الفروع أقل آفة وإن كانت بعيدة من الإصابة . »[1]

إذن تنقسم اغلاط الصوفية — بحسب السراج — الى اغلاط في الاصول وأغلاط في الفروع ، وغلط موقوت مالبثوا أن عادوا بعده إلى الطريق المستقيم. والأغلاط في الأصول خطيرة لا يرجى لدائها دواء إلا ان يشاء الله ، والغلط في الفروع أهون وإن كان لا يزال غلطاً ، أما الغلط الموقوت فأمره هيّن .

ويبدأ ببيان **الأغلاط في الفروع** ، فيحصرها فيما يلي :

ا — تفضيل الغنى على الفقر ، وبالتالي ترك التوكل والاعتماد على الكسب بدلا من الثقة بما وعد الله .

ب — فتور الهمة نتيجة التبرم بطول المجاهدة والرياضة ، والكسل والتواني والاستسلام للأماني الكواذب ،

حـ — ظنه أنّ تَرك الطعام والعزلة والانفراد كافية لردع النفس الأمارة ، مع أن الآفات في الباطن ،

د — ظنّه أن التشبه بكبار المشايخ في الملبس والاشارات وحفظ الحكايات ،

---

(١) السراج : « اللمع » ص ٤١٠ — ٤١١ ، نشرة نيكلسون ، ليدن سنة ١٩١٤ .

واستعمال الألفاظ الصحيحة والعبارات الفصيحة– يؤدي إلى أن يكون المرء منهم

هـ– ظنه أن « التصوف هو السماع والرقص واتخاذ الدعوات وطلب الأرفاق والتكلف للإجتماعات على الطعام وعند سماع القصائد والتواجد والرقص ومعرفة صياغة الألحان بالأصوات الطيبة والنغمات الشجية والاختراع من الأشعار الغزلية بما يُشْبه أحوال القوم ، على نحو ما رأوا من بعض الصادقين أو بلغهم ذلك عن المتحققين » [١] .

الأغلاط في الأصول : أما الأغلاط في الأصول فيذكر منها :

أ – الغلط في معنى الحرية والعبودية. « فظنت الفرقة الضالة أن اسم الحرية أتم من اسم العبودية ، للمتعارف بين الخلق أن الأحرار أعلى مرتبة وأسنى درجة في أحوال الدنيا من العبيد . فقاست على ذلك ، فضلت وتوهمت أن العبد ما دام بينه وبين الله تعالى تعبد فهو مسمى باسم العبودية . فإذا وصل إلى الله فقد صار حُرّاً ، وإذا صار حراً سقطت عنه العبودية . وإنما ضلت هذه الفرقة لقلة فهمها وعلمها وتضييعها لأصول الدين ، (وقد) خفي على هذه الفرقة الضالة أن العبد لا يكون في الحقيقة عبداً حتى يكون قلبه حراً من جميع ما سوى الله عزوجل ، فعند ذلك يكون في الحقيقة عبداً لله. وما سَمّى الله تعالى المؤمنين باسم أحسن من اسم العبد ، إذ يقول : « وعباد الرحمن » (٢٥ : ٦٤) ، « نبيء عبادي » (١٥ : ٤٩) ، لأنه اسم سمى به ملائكته فقال : « عبادٌ مكرَّمون » (٢١ : ٢٦) (الكتاب نفسه ص ٤٢٠ – ٤٢١) .

ب) الغلط في الاخلاص، فقد زعمت فرقة «ان الإخلاص لا يصح للعبد حتى يخرج عن رؤية الخلق ولا يوافقهم في جميع ما يريد أن يعمله – كان ذلك حقاً أو باطلا . وإنما ضلّت هذه الفرقة لأن جماعة من أهل الفهم والمعرفة تكلّموا في حقيقة الإخلاص أنه لا يعنو لهم ذلك حتى لا يبقى على العبد بقية

---

(١) الكتاب نفسه ص ٤١٩ .

من رؤية الخلق والكون وكلّ شيء غير الله تعالى . فظنت هذه الفرقة وطمعت ان يصحّ لهم بالدعوى والتقليد والتكلف ، قبل سلوك مناهجها والتأدب بآدابها والابتداء ببدايتها حتى يؤديه ذلك إلى نهايتها حالا بعد حال ، ومقاماً بعد مقام . فأداهم الدعوى والطمع الكاذب إلى قلة المبالاة وترك الأدب ومجاوزة الحدود ، فأسَرَهم الشيطان وغلبتهم النفس والهوى بما خيل إليهم أنهم برسم المخلصين في الإخلاص . . . وقد خفي عليهم — لشقاوتهم — أن العبد المطلوب بدرجة الإخلاص هو العبد المهذب المؤدب الذي هجر السيئات وجرّدَ الطاعات وعمل في الإرادات ، ونازل الأحوال والمقامات ، حتى اداه ذلك إلى صفاء الإخلاص »[1] .

د) الغلط في تفضيل الولاية على النبوّة . والذي جرّهم إلى الوقوع في هذا الغلط قصة موسى والخضر ، إذاستخلصوا منها أن الوليّ أفضل من النبي ، لأن الخضر في هذه القصة يبدو هو العالم بباطن الأمور وأسرار الحوادث ، بينما موسى جهل هذه الأسرار والبواطن ، « فظنت هذه الطائفة الضالّة . هكذا يقول السراج . أن ذلك نقص في نبوة موسى عليه السلام وزيادة للخضر — عليه السلام — على موسى في الفضيلة : فادّاهم ذلك إلى ان فضّلوا الأولياء على الأنبياء عليهم السلام

وقد ذهب عنهم أن الله — جلّ وعزّ — يخص من يشاء بما يشاء كيف شاء ، كما خصّص آدم — عليه السلام ! — بسجود الملائكة له ، وخصّص نوح — عليه السلام — بالسفينة وصالح — عليه السلام ! — بالناقة ، وإبراهيم — عليه السلام بأن جعلت عليه النار برداً وسلاماً ، وخصّص عيسى — عليه السلام — بإحياء الموتى ، وخصّص نبينا ﷺ بانشقاق القمر ونبع الماء بين أصابعه » (ص ٤٢٣).ويذكر شواهد أخرى لغير الأنبياء كلها تهدف إلى بيان ان الله يخص من المواهب ما يشاء من عباده ، ولا محل لأن يستنبط من ذلك قاعدة عامة ، بل الأمر أمرٌ فردي يخص بعض الأفراد دون بعض . وعلى هذا فلا محل

(١) الكتاب نفسه ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

للاستشهاد بقصة الخضر وموسى على أن الوليّ أفضل من النبيّ .

د) الزعم بأن الأصل في الأشياء انها مباحة ، وانما وقع الحظر بسبب التعدي « فإذا لم يقع التعدي تكون الأشياء على أصلها من الإباحة . . . فادّاهم ذلك بجهلهم إلى أن طمعت نفوسهم بأن المحظور الممنوع منه المسلمون مباح لهم إذ لم يتعدوا في تناوله . » (ص ٤٢٤) . والسبب في وقوعهم في هذا الغلط انهم سمعوا بما كان يحدث بين كبار مشايخ الصوفية من مشاركة بعضهم لبعض في المال والطعام . ويرى السّراج ان الاولى بأن يقال ان « الأشياء في الأصل محظورة وإنما وقعت إباحتها بالأمر والنهي في التوسعة والرخص » (ص ٤٢٥) .

هـ) غلط الحلولية الذين زعموا «أن الحق — تعالى ذكره ! — اصطفى اجساماً حلّ فيها بمعاني الربوبية ، وازال عنها معاني البشرية » (ص ٤٢٦) .

والسراج يقرر أن هذا ما بلغه عن جماعة ، ولكنه لم يعرف منهم أحداً ولم يصح عنده شيء من ذلك الخبر . ولهذا يقول : « إن صحّ عن أحد أنه قال هذه المقالة وظن أن التوحيد ابدى له صفحته بما اشار إليه ، فقد غلط في ذلك ، وذهب عليه ان الشيء مجانس للشيء الذي حلّ فيه ، والله تعالى بائن من الأشياء ، والأشياء بائنة منه بصفاتها . والذي ظهر في الأشياء فذلك آثار صنعته ودليل ربوبته ، لأن المصنوع يدلُّ على صانعه ، والمؤلف يدل على مؤلفه . وإنما ضلت الحلولية — **إن صحّ عنهم ذلك** — لأنهم لم يميزوا بين القدرة التي هي صفة القادر ، وبين الشواهد التي تدلّ على قدرة وصنعة الصانع ، فتاهت عندذلك . فبلغني ان منهم من قال بالأنوار ، ومنهم من قال بالنظر إلى الشواهد المستحسنات نظراً يجهل ، ومنهم من قال :حالٌ في المستحسنات وغير المستحسنات . ومنهم من قال : حالٌ في المستحسنات فقط . ومنهم من قال : على الدوام . ومنهم من قال : وقتاً دون وقت — فيما بلغني . فمن صحّ عنه شيء من هذه المقالات فهو ضالٌ بإجماع الأمّة ، كافرٌ يلزمه الكفر فيما أشار إليه . والأجسام التي

اصطفاها الله تعالى اجسام أوليائه واصفيائه ، اصطفاها بطاعته وخدمته ، رزينها بهدايته ، وبين فضلها على خلقه . والله تعالى موصوفٌ بما وصف به نفسه ، وكما وصف به نفسه ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير . والذي غلط في الحلول غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق ، لأن الله تعالى لايحلّ في القلوب ، وإنما يحلّ في القلوب الايمان ، والتصديق له والتوحيد والمعرفة » (ص ٤٢٦ — ٤٢٧) .

وواضح من هذا النص أن السرّاج ليس فقط ينكر الحلول ، بل وينكر أيضاً أو يشك في أن يقول به أحدٌ من الصوفية ، ويورد الخبر كله في صيغة الشك ، ويقرر انه لم يصحّ عنده خبر أن هناك فرقة صوفية تقول بذلك . ولم يوضح السرّاج ما اسم هذه الجماعة القائلة بالحلول ولا إلى من تنتسب. وفي المواضع الأخرى التي أشار فيها إلى أقوال للحلاج لا يبدو أنه يعدّ الحلاج من هذه الجماعة القائلة بالحلول . وهو أمرٌ غريب يسترعي النظر ، لأن السرّاج كان واسع الاطلاع جداً على مذاهب كبار مشايخ الصوفية .

وعلى كل حال فإن استنكار السراج لمذهب الحلولية استنكار قاطع صريح ، وقد دمغ الحلول بأنه كفر صريح وضلال بإجماع الأمة.

و) الغلط في فناء البشرية ، بالزعم بأن من تضعف بشريته يجوز أن يكون موصوفاً بصفات الإلهية . وغلطهم ناشىء من كونهم لم يستطيعوا التفريق بين البشرية ، وبين أخلاق البشرية . إذ البشرية لا تزول عن البشر ، بينما اخلاق البشرية تتبدل وتتغير « بما يرد عليها من سلطان انوار الحقائق . وصفات البشرية ليست هي عين البشرية. والذي أشار إلى الفناء أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد ، لقيام الحق للعبد بذلك ، وكذلك فناء الجهل بالعلم وفناء الغفلة بالذكر » (ص ٤٢٧) .

ذ) ادعاء الرؤية بالقلوب في دار الدنيا ، مثل الرؤية بالعيان في دار الآخرة .

ويقول السراج إنه بلغه ان جماعة من أهل الشام أدعوا هذه الدعوى ، لكنه

لم ير أحداً قال بذلك ولا بلغه « عن إنسان أنه رأى منهم رجلا له محصول . »

ويذكر أنه «قد تاه ووسوس » — على حد تعبيره— في هذا المعنى قومٌ من أصحاب الصبيحي من أهل البصرة . « وذلك أنهم حملوا على أنفسهم في المجاهدة والسهر وترك الطعام والشراب والانفراد والخلوة وكثرة التوكل : وصحبهم الإعجاب مع ذلك بما هم فيه. فاصطادهم ابليس— لعنه الله— فخيل إليهم كأنه (أي الله) على عرش أو سرير ، وله أنوارٌ تتشعشع » (ص ٤٢٨) . ويورد السراج بعد ذلك أمثلة لما تخيله بعض الصوفية من أوهام ، لما أخبروا شيوخهم بها بينوا ضلالهم وكشفوا لهم عن الاوهام التي وقعوا فيها .

ح) وقريب من هؤلاء من زعموا انهم يرون أنواراً ، أو ان في قلوبهم أنواراً ، وكأنّ هذه الأنوار مستمدة من الأنوار التي وصف الله بها نفسه . ويزعمون أن ذلك من أنوار المعرفة والتوحيد والعظمة . مع ان انوار القلوب هي معرفة الفرقان بين الحق والباطل .

ط) كذلك غلط قوم في عين الجمع . « فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم ، ولم يصفوا انفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه ، وظنوا ذلك منهم احترازاً حتى لا يكون مع الله شيء سوى الله عز وجل . فادّاهم ذلك إلى الخروج من الملة وترك حدود الشريعة ، لقولهم إنهم مجبرون على حركاتهم حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتباع . ومنهم من أخرجه ذلك إلى الجسارة على التعدي والبطالة وطمعته نفسه على أنه معذور فيما هو عليه مجبور .

وإنما غلط هؤلاء لقلة معرفتهم بالأصول والفروع ، فلم يفرقوا بين الأصل والفرع ، ولم يعرفوا الجمع والتفرقة ، فأضافوا إلى الأصل ما هو مضاف إلى الفرع ، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضاف إلى التفرقة ، فلم يحسنوا وضع الأشياء في مواضعها فهلكوا » (ص ٤٣١) .

ى) الغلط في فهم معنى الأنس والبسط . فقد توهم قوم « أن بينهم وبين

الله — عز وجل — حالا من القرب والدنوّ » فلم يراعوا الحشمة والآداب والحدود ، فانبسطوا إلى ما كانوا يحتشمونه . وهذا غلط « لأن الآداب والأحوال والمقامات خِلعٌ من الله تعالى على عباده ، وكرامة لهم . وهم مستوجبون الزيادة إذا صدقوا في قصودهم . فمتى ما تركهم وخلاهم عن توفيقه وعنايته بهم ، حتى جاوزوا الحدود وخالفوا ما أمروا به — نكصوا على اعقابهم وسلبوا الخلع التي أكرموا بها من الطاعات » (ص ٤٣٢) .

يا) وثم جماعة من البغداديين غلطوا « في قولهم إنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق . وقد أضافوا انفسهم — بجهلهم — إلى معنى يؤدي ذلك إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح » (ص ٤٣٣) . والسبب في غلطهم أنهم ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق . وهذا كفر ، لأن الله تعالى لا يحلّ في القلوب ، وإنما الذي يحلّ في القلوب هو الإيمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره .

يب) الغلط في ادعاء فقد الحسّ عن المواجيد « حتى لا يحسوا بشيء ، ويخرجوا عن أوصاف المحسوسين » . وقد زعمت ذلك طائفة من أهل العراق . « وقد غلطوا في ذلك لأن فقد الحسّ لا يعلمه صاحبه إلاّ بالحسّ ، لأن الحسّ صفة البشرية » . لكن السراج يعترف مع ذلك بأن من الممكن أن « يغيب العبد عن حسه بحسه عند المواجيد الحادة عن الأذكار القوية ، كما حكى جعفر الخلدي — فيما قرأت عليه — عن الجنيد رحمه الله أنه قال : سألت سريّ السقطي — رحمه الله — عن المواجيد الحادة عند الأذكار القوية مما يقوى على العبد . فقال : نعم ! يضرب وجهه بالسيف ولا يحس » . وانما يعني بقوله — والله اعلم ! — : « لا يحس » : يعني لا يجد الألم ، وهو بالحسّ لا يجد الألم ، كما أنه بالحسّ كان يجد الألم . وما دام في العبد روح وهو حيّ ، لا يزول عنه الحسّ لأن الحسّ مقرون بالحياة والروح » (ص ٤٣٤) .

يج) وآخر الأغلاط التي يوردها السراج أن « ثم جماعة غلطوا في الأرواح

وهم طبقات شتى ، كلهم تاهوا وغلطوا ، لأنهم تفكروا في كيفية ما رفع الله عنه الكيفية ونزهه عن إحاطة العلم في ان يصفه أحدٌ إلاّ بما وصفه الله به . فقومٌ قالوا الروح نور [1](من نور) الله، فتوهموا أنه نور ذاته فهلكوا. وقوم قالوا: حياةٌ من حياة الله تعالى . وقومٌ قالوا : الأرواح مخلوقة ، وروح القدس من ذات الله تعالى . وقومٌ قالوا : أرواح العامة مخلوقة ، وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة . وقوم قالوا : الأرواح قديمة ، إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى وقوم قالوا : الأرواح تتناسخ من جسد إلى جسد . وقوم قالوا : للكافر روحٌ واحد ، وللمؤمن ثلاثة أرواح ، وللأنبياء والصديقين خمسة أرواح . وقومٌ قالوا : الروح خُلِق من النور . وقوم قالوا : الروح روحانية خُلِقت من الملكوت ، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت . وقال قومٌ : الروح روحان : روح لاهوتية ، وروح ناسوتية .

وهؤلاء كلهم قد غلطوا فيما ذهبوا إليه وضلوا ضلالا مبيناً وجهلوا ما يلزمهم في ذلك من الخطأ — وذلك من تعمقهم وتفكرهم بآرائهم فيما منع الله تعالى قلوب العباد من التفكر فيه بقوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي » (الاسراء ٨٧) . والذي عليه أهل الحق والاصابة عندي — والله أعلم ! — أن الأرواح كلها مخلوقة ، وهي أمر من أمر الله تعالى ، ليس بينها وبين الله تعالى سببٌ ولانسبة غير أنها من ملكه وطوعه وفي قبضته ، غير متناسخة ، ولا تخرج من جسم فتدخل في غيره ، وتذوق الموت كما يذوق البدن وتتنعم بنعم البدن ، وتعذب بعذاب البدن ، وتحشر في البدن الذي تخرج منه . وخلق الله تعالى روح آدم — عليه السلام — من الملكوت وجسمه من التراب » [2] .

تلك هي الغلطات الثلاث عشرة التي ذكر السراج ان الصوفية وقعوا فيها

---

(١) زيادة موجودة في هامش المخطوط .

(٢) السراج : « اللمع » ص ٤٣٤ — ٤٣٥ ، نشرة نيكلسون ، ليدن سنة ١٩١٤ .

وإذا قارناها بما يأخذه ابن الجوزي وابن تيمية على الصوفية لوجدنا اشتراكاً في بعضها ، وخصوصاً فيما ذكره ابن تيمية حتى ليكاد ابن تيمية يتفق مع السراج ، والسراج من أكبر المدافعين عن التصوف الحق والصوفية الصادقة :

١) فابن تيمية يتفق مع السراج في نقد دعاة الحلول والاتحاد بين الصوفية ودمغهم بالكفر ،

٢) ويتفق كلاهما في انكار دعوى بعض الصوفية الفناء عن صفات البشرية في أحوال المواجيد العالية ،

٣) ويتفقان في انكار دعوى تفضيل الولي على النبي ، وعلى هذا الانكار يتفق كل أوجل الصوفية ،

٤) ويتفقان في استنكار دعاوى الأنس ورؤية الأنوار .

ب) عند أبي عبد الرحمن السلمي
(المتوفي سنة ٤١٢هـ)

ويتلو السراج في النقد الذاتي أبو عبد الرحمن السُّلمى . فقد كرس رسالة لذلك عنوانها : « رسالة في غلطات الصوفية » ، توجد منها نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ضمن المجموع رقم ١٨٧ مجاميع ، من الورقة ٣٣ب إلى الورقة ٨٨أ

والغلطات التي يسردها السُّلمى لا تخرج في مجموعها عما ذكره السراج .

جـ) عند أبي حامد الغزالي (المتوفي سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م)

وتعرض الغزالي لبيان بعض غلطات الصوفية في كتابه « المنقذ من الضلال »

---

(١) راجع ابن عربي في الفص الشيثي من « فصوص الحكم » ، وحيدر آملي في «جامع الأسرار ومنبع الأنوار » ص ٣٨٦ — ٣٩٤ ، تهران سنة ١٩٦٩ وإن كان في كلا مهما تفريقات دقيقة .

وذلك حين ينطقون بعبارات ، وهم في وجدهم ، يشم منها معاني الحلول والاتحاد والوصول . يقول وهو يتحدث عما يقوم به الصوفي من مشاهدات ويصل إليه من مكاشفات حتى يشاهد الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمع منهم أصواتاً ويقتبس منهم فوائد : « ثم يترقى الحالُ من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه . وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة : الحلول ، وطائفة : الاتحاد ، وطائفة : الوصول . وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ في كتاب « المقصد الأسنى » . [1]

والغزالي في « المقصد الأسنى » يبين « أن للمعرفة سبيين : أحدهما السبيل الحقيقي ، وذلك مسدودٌ إلا في حق الله تعالى ، فلا يهتز أحدٌ من الخلق لنيله وإدراكه إلا ردّته سُبُحات الجلال إلى الحيرة ، ولا يشرئبُّ أحدٌ لملاحظته إلا غض للدهشة طرفه . وأما السبيل الثاني ، وهو معرفة الأسماء والصفات ، فذلك مفتوح للخلق ، وفيه تتفاوت مراتبهم [2] » . ويستشهد بقول الجنيد: لا يعرف الله إلا الله تعالى . وحظوظ المقرّبين من معاني اسماء الله ثلاثة : الأول معرفة معاني الأسماء على سبيل المكاشفة والمشاهدة . والثاني التشوق إلى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات الإلهية « ليقربوا بها من الحق قرباً بالصفة ، لا بالمكان ، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً من الملائكة المقربين عند الله » [3] . والثالث « السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها . وبه يصير العبد ربانياً ، أي قريباً من الرب تعالى ، فإنه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة ، فإنهم على بساط القرب . فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم، نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى » [4] .

---

(١) أبو حامد الغزالي : « المنقذ من الضلال » ص ٥٠ ، القاهرة بدون تاريخ ، مكتبة الجندي .
(٢) أبو حامد الغزالي : « المقصد الأسنى ، شرح أسماء الله الحسنى » ص ٢٢ . القاهرة ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، مطبعة السعادة .
(٣) الكتاب السابق ، ص ١٦ .
(٤) الكتاب السابق ، ص ١٦ .

فالغزالي لا يقرّ من القرب غير هذا ، ولا يقر أبدا إمكان الوصول ، ناهيك عن الحلول والاتحاد .

د) عند أبي حفص عمر بن محمد السهروردي (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)

فإذا انتقلنا إلى أبي حفص عمر بن محمد السهروردي ، صاحب كتاب « عوارف المعارف » الذي يعتبر من أشهر متون التصوف ، وجدناه يعقد فصلا صغيراً بعنوان « من انتمى إلى الصوفية وليس منهم » . وفيه يحمل على القلندرية لأنهم أقوام خرّبوا العادات واطرحوا التقيد بالآداب الإجتماعيــة ، ولا يبالون . ويميز بينهم وبين الملامتية على أساس أن هؤلاء يكتمون العبادات ، لكنهم يتمسكون بكل أبواب البر والخير .

وأبو حفص السهروردي يرى أن الصوفي الحق هو الذي « يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم . . . ويستّر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر ويأتي بالأمور في موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص » [1] .

كذلك يهاجم الصوفية الذين يدعون ترك الحركات حتى كأنّ الواحد منهم كالباب ، وذلك بزعمهم من باب البر والتقوى إلى الله . ويورد قول الجنيد فيهم « إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال . وهذه عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، وإن العارفين بالله اخذوا الأعمال عن الله ، وإليه يرجعون فيها » [2] .

---

(١) أبو حفص عمر بن محمد السهروردي : « عوارف المعارف » ، ص ٧٨ . بيروت سنة ١٩٦٦ (وقد ورد اسم المؤلف خطأ على الكتاب !) .
(٢) الكتاب نفسه ، ص ٧٩ .

وثالثاً نراه – شأنه شأن السراج والسلمي والغزالي – يحمل على الذين « يقولون بالحلول ، ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل في اجسام يصطفيها » . ويؤول قول الحلاج : « أنا الحق » وقول أبي يزيد : « سبحاني » ! بأنهما قالا ذلك « على معنى الحكاية عن الله تعالى » – لا على أنه تعبير من القائل عن حال نفسه .

– ٧ –

ما ينسب إلى النبي ﷺ
من حديث عن الرهبان والرهبانية

ويتعلق بباب الهجوم على التصوف والصوفية ما يذكره بعض المؤلفين تأييداً لما يذهبون إليه – من أحاديث ينسبونها إلى النبي ﷺ حاصلها أن النبي ذم الرهبانية ، أو سلوك الرهبانية في الإسلام .

والأحاديث التي يسوقونها تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالرهبانية عند النصارى ؛ والقسم الآخر يتعلق بمنع الرهبانية في الإسلام .

أ – الرهبانية عند النصارى :

والأحاديث الواردة في الكتب الصحاح الستة في هذا الموضوع وفي مُسْنَدَي الدارمي وابن حنبل هي :

١ – « لو كنت في النصارى كنتُ من رهبانهم » : مسند ابن حنبل جـ ٥ ص ١٦٣ .

٢ – « ولو أن الأحبار والرهبان لم يتّقوا زوالَ مراتبهم وفسادَ منزِلتهم باقامة الكتاب وتبيانه ، ماحرّفوه ولاكتموه : ولكنهم لما خالفوا الكتاب بأعمالهم ، التمسوا أن يخدعوا قومهم عما صنعوا مخافة أن تفسد منازلهم وأن يتبيّن للناس فسادهم ... » سنن الدارمي المقدمة باب ٥٧ .

٣ ـ « وعلى شفير الوادي راهبان . فلما أمسى قال أحدهما لصاحبه : هلَك والله الرجل ... »

سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن باب ١٦ .

٤ ـ « والراهب ... فلما سمع الأذان قال : دعوة حق » .

سنن النسائي كتاب المساجد باب ١١ .

٥ ـ « يا معشر الحبشة والقسّيسين والرهبان » .

مسند ابن حنبل جـ ١ ص ٤٦١ .

٦ ـ « مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلّة من ماء . فمرّت بفتى منهم فجعل احدى يديه بين كتفها ثم دفعها . فخرّت على ركبتيها فانكسرت قلتها . فلما ارتفعت التفتت إليه وقالت : سوف تعلم يا غُدَر ! إذا وضع الله الكرسي وجمع الاولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون .... يقول رسول الله : صَدَقت ! صدقت ! » .

ابن ماجه كتاب الفتنة باب ٢٠ .

٢ ـ « إني لم أؤمر بالرهبانية »

مسند أحمد بن حنبل جـ ٢ ص ٤٣٤ .

ب) الأحاديث المتعلقة بمنع الرهبانية في الإسلام :

١ ـ « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

مسند ابن حنبل جـ ٦ ص ٢٢٦ .

٧ ـ « فبنى صومعة وترهب فيها »

مسند الدارمي كتاب النكاح باب ٣ .

٣ ـ « وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام » .

مسند أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٨٢ ٢٦٦ .

وإلى جانب هذه الأحاديث الواردة في الصحاح الستة وعند ابن حنبل والدارمي ثم حديث نال شهرة واسعة ، نصه ما يلي : « لا رهبانية في الإسلام » .

وأول من روى معنى هذا الحديث ابن سعد في « طبقاته » (ج ٣ ، القسم الأول ، ص ٢٨٧) بمناسبة زهد عثمان بن مظعون الجمحي (المتوفى في السنة الثانية للهجرة) ، على هذه الصورة : « إن الله لم يبعثني بالرهبانية » . [1]

لكن أصحاب السُّنن جميعاً : البخاري ، مسلم ، ابن ماجه ، النسائي ، أبي داوود والترمذي لم يذكروه ولم يستدركه الحاكم النيسابوري في « المستدرك على البخاري ومسلم » ، ولا الديلمي في « مسند الفردوس » . ولا يذكره الامام مالك في « الموطأ » . وحتى ابن حنبل ، وإن ذكر أحاديث بمعناه كما رأينا ، لا يذكره بهذا النص . وكذلك لا نجده في كتب الشيعة الإمامية ، ولم يروه واحد من أئمة الشيعة [1] .

وإنما نجده عند غير المُحَدِّثين ، مثل الحريري الأديب صاحب «المقامات» في المقامة الثالثة والأربعين ؛ والزمخشري في كتاب « الفائق » (ج ١ ص ٢٦٩ ؛ طبع حيدر أباد سنة ١٣٢٤) ، وابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » (ج ٢ ص ١١٣ ، طبعة القاهرة سنة ١٣١١) وكلهم من القرون الخامس والسادس والسابع .

وهذا وحده دليل كافٍ على ضعف هذا الحديث ، إن لم يكن على أنه موضوع وضعاً . إذ لو كان صحيحاً أو حسناً أو محتمل الصحة لذكرته كتب السنة الصحاح الستة ، أو لا ستدركه الحاكم فيما استدرك .

ولفهم سائر الأحاديث التي أوردناها ينبغي أن نفسّرها في ضوء ما ورد

---

(١) ذلك أنه بلغ النبي ﷺ أن عثمان بن مظعون اتخذ بيتاً وقعد يتعبد فيه . فبلغ ذلك النبي ، فأخذ بعضادتي باب البيت الذي هو فيه وقال : « يا عثمان ! إن الله لم يبعثني بالرهبانية — مرتين أو ثلاثاً — وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة ».

(٢) راجع مثلا الخوانساري : « روضات الجنات » ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

في القرآن عن الرهبان والرهبانية . فماذا نجد فيه ؟ سنورد الآيات التي تعرضت لذلك :

١ — « لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا : اليهودُ الذين أشركوا . ولتجدنّ أقربهم موّدة للذين آمنوا : الذين قالوا إنّا نصارى ، ذلك بأنّ منهم قِسيسين ورُهباناً وأنّهم لا يستكبرون » (المائدة ٨٢) .

٢ — « ثمّ قفيّنا على آثارهم برُسُلِنا ، وقفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيلَ ، وجعلنا في قلوب الذين اتّبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رَعَوْها حقّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجْرَهم وكثير منهم فاسقون » (الحديد ٢٧) .

٣ — « اتخذوا أحبارَهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيحَ ابنَ مريمَ ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عمّا يشركون » (التوبة ٣١) .

٤ — « يأيُّها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدّون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرْهم بعذاب أليم ¤ يومَ يُحْمَى عليها في نار جَهَنّم فتُكْوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم ، هذا ما كنَزَتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنِزون » (التوبة ٣٤ — ٣٥) .

والآية الثانية هي أهم ما يعنينا في موضوعنا هنا . فلننظر ماذا قال فيها المفسرون. ولنبدأ بالفخر الرازي لأنه خير المفسرين تعرّضاً للآيات المُشكِلة .

قال الرازي في تفسير معنى الرهبانية في هذه الآية : « الرهبانية معناها الفعلة المنسوبة إلى الرّهْبان وهو الخائف : فَعْلان ، مِنْ : رهب ، كخشيان مِنْ خشي . وقرىء : « ورُهْبانية » بالضم ، كأنها نسبة إلى الرُّهْبان ، وهو جمع : راهب ، كراكب وركبان .

والمراد من الرهبانية ترهّبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، متحملين كُلَفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم : من الخلوة ، واللباس الخشن ، والاعتزال عن النساء ، والتعبد في الغيران والكهوف ...

لَمْ يَعْنِ الله تعالى « بابتدعوها » طريقة الذم ، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ، ولذلك قال تعالى بعده : « ما كتبناها عليهم » ... أي لم نفرضها نحن عليهم . أما قوله : « إلا ابتغاءَ رضوان الله » ففيه قولان : (أحدهما) أنه استثناء منقطع ، أي : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله . (الثاني) أنه استثناء متصل ، والمعنى : أنّا ما تعهدناهم بها إلاّ على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى . والمراد أنها ليست واجبة ، فإن المقصود من فعل الواجب دفع العقاب وتحصيل رضا الله . أما المندوب فليس المقصود من فعله دَفْعَ العقاب ، بل المقصود منه ليس إلاّ تحصيل مرضاة الله تعالى .

أما قوله : « فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » — ففيه أقوال : (أحدها) أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها ، بل ضمُّوا إليها التثليث والاتحاد وأقام أناسٌ منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام فآمنوا به ؛ فهو قوله : « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » . — (وثانيها) أنّا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلاّ ليتوسّلوا بها إلى مرضاة الله تعالى . ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال ، لكن لا لهذا الوجه بل لوجه آخر وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة . — (وثالثها) أنّا لما كتبناها عليهم تركوها ، فيكون ذلك ذمّاً لهم من حيث أنهم تركوا الواجب . — (ورابعها) أن الذين لم يرعوها حقّ رعايتها هم الذين أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام ولم يؤمنوا به . — وقوله : « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم » ، أي الذين آمنوا بمحمد ؛ وكثيرٌ منهم فاسقون ، يَعْنِي الذين لم يؤمنوا به . ويدل على هذا ما روي أنه عليه

السلام قال : « مَنْ آمن بي وصدّقني وتبعني فقد رعاها حق رعايتها ؛ ومَنْ لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون » . — (وخامسها) أن الصالحين من قوم عيسى — عليه السلام ! — ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها . ثم جاء بعدهم قومٌ اقتدوا بهم في اللسان ، وما كانوا مقتدين بهم في العمل . فهم الذين ما رعوها حق رعايتها . قال عطاء : لم يَرْعَوْها كما رعاها الحواريون .

ثم قال : « وكثير منهم فاسقون » — والمعنى أن بعضهم قام برعايتها ؛ وكثير منهم أظهر الفسق وترك تلك الطريقة ظاهراً وباطناً » . [1]

وقال أبو حيان في تفسيره المعروف بـ « البحر المحيط » : « الرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن واتخاذ الصوامع . وجعل أبو علي الفارسي : « ورهبانية » مقتطعة من العطف على ما قبلها من رأفة ورحمة ، فانتصب عنده : « ورهبانية » على إضمار فعل يفسّره ما بعده . فهو من باب الاشتغال — أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها — يعني : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها — انتهى .

وهذا إعراب المعتزلة ، وكان أبو علي (الفارسي) معتزلياً ؛ وهم يقولون : ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد . فالرأفة والرحمة من خلق الله ، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له . — وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية ، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه الدفع بالابتداء ، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله : « ورهبانية » لأنها نكرة لا مسوّغ لها من المسوّغات للابتداء بالنكرة .

ورُوِي في ابتداعهم الرهبانية أنّهم افترقوا ثلاث فرق : ففرقة قاتلت الملوك على الدين فغُلِبت وقُتِلت . وفرقة قعدت في المدن يَدْعون إلى الدين

---

(١) الفخر الرازي : « مفاتيح الغيب » المشتهر «بالتفسير الكبير» جـ ٨ ص ١٤٥ — ١٤٦ . الآستانة ، سنة ١٢٩٤ هـ .

ويبيّنونه ولم تقاتل ، فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير ، فقتلوا . وفرقة خرجت إلى الفيافي وبَنَتْ الصوامع والديارات ، وطلبت أن تَسْلَم على أن تَعتزلَ ، فتُرِكت (١) » .

والطبري في تفسيره (٢) لا يثير مشاكل في تفسير هذه الآية ، فيما عدا اختلاف أهل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها بين من يقول إن الذين ابتدعوها ــ أي أحدثوها ــ هم الذين لم يقوموا بها ؛ ومن يقول إن الذي لم يقم بحقها هم قوم جاءوا من بعد الذين ابتدعوها . ويرجح هؤلاء أن أولى القولين بالصحة « أن يقال إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها (هم) بعض الطوائف التي ابتدعتها » (ج ٢٧ ص ٢٤١) . ولم يتعرض الطبري لتفسير معنى الرهبانية ولم يقل باستثناء متصل ولا استثناء منقطع ، ويكتفي بأن يقول : « وأتبعنا بعيسى بن مريم (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه) يعني : الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته (رأفةً) وهو أشد الرحمة (ورحمةً ورهبانيةً ابتدعوها) يقول : أحدثوها (ما كتبناها عليهم) . يقول : ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم (إلاّ ابتغاءَ رضوان الله) يقول : لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (فما رعوها حقّ رعايتها) » (ج ٢٧ ص ٢٣٨) .

* * *

واضحٌ من أقوال هؤلاء المفسّرين الثلاثة : الرازي ، وأبي حيان والطبري ــ أن الرهبانية المسيحية :

---

(١) أثير الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الأندلسي الغرناطي الحياني (المولود في سنة ٦٥٤ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٥٤ هـ) : « البحر المحيط » ج ١ ، ص ٢٢٨ ، القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ .

(٢) « تفسير » الطبري ج ٢٧ ص ٢٣٨ – ٢٤١ ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ، طبعة الحلبي .

أ) سلوك حميد أحدثه بعض أتباع المسيح ، وقد أحدثوه ابتغاء رضوان الله ؛

ب) أن بعض الذين اصطنعوا الرهبانية ، أي بعض الرهبان ، لم يرعوا الرهبانية حقّ رعايتها ، فانحرفوا بها عن طريقها الصحيح ؛

ج) أن الابتداع هنا بمعنى الإحداث والإنشاء ، ولا ينطوي على أيّ معنى من معاني الذم التي ستقترن فيما بعد بكلمة « بدعة » « ومبتدع » وهنا نلاحظ أن كلمة بِدْع ومشتقاتها لم ترد في القرآن أبداً بمعنى مذموم . وقد وردت في آية واحدة هي : « قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً من الرُّسُل وما أدري ما يُفْعَل بي ولا بكم إنْ اتّبع إلاّ ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذيرٌ مبين » (الأحقاف ٩) — والمعنى : ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه . قد كان من قبلي له رُسُلٌ كثيرة أُرْسِلَتْ إلى أمم قبلكم . يقال منه : هو بِدْعٌ في هذا الأمر ، وبديع فيه ، إذا كان فيه أوّل . ومن البدع قول عديّ بن زيد :

فلا أنا بِدْعٌ مِنْ حوادث تعتري
رجالاً عرَتْ من بعدُ بؤسىَ وأسْعُدِ[1] »

وليس إذن في كلمة بِدْع وابتدع أي معنى من معاني الذمّ — أينما وردت في القرآن .

وفي حديث عمر بن الخطاب في قيام رمضان : نِعْمت البدعة هذه » ما يدل على أن كلمة بدعة لا تدل على ذم . وفي هذا يقول ابن الأثير في « النهاية » : « قول عمر رضي الله عنه : « نعمت البدعة هذه » — لمّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حيّز المدح سمّاها بدعة ومدحها[2] » . ومن هنا

(١) « تفسير » الطبري جـ ٢٦ ص ٦ ، القاهرة سنة ١٩٥٤ .
(٢) « النهاية في غريب الحديث والأثر » لمجد الدين أبي السعادات الجزري المعروف بابن الأثير جـ ١ ص ٦٦ .

يفرق بين نوعين من البدعة : « بدعة هُدىً ، وبدعة ضلال : فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ فهو في حيّز الذم والإنكار ؛ وما كان واقعاً تحت عموم ما نَدَّب الله إليه وحضّ عليه الله أو رسوله فهو في حيّز المدح [1] » . فالبدعة لا تكون مذمومة على إطلاقها ، بل إذا خالفت أمر الله ورسوله . ومن هنا الأحاديث في هذا المعنى ، مثل : « تَمَسّكٌ بسُنّة خيرٌ من إحداث بدعة » (احمد بن حنبل ج ٤ ص ١٠٥) ؛ « فإمّا إلى سُنّة وإمّا إلى بدعة » (احمد بن حنبل ج ٢ ص ١٥٨) ؛ « القصد في السُّنّة خيرٌ من الاجتهاد في البدعة » (الدارمي المقدمة ٢٣) ؛ « يطفئون السُّنّةَ ويحدثون بدعة » (ابن حنبل ج ١ ص ٤٠٠) .

والخلاصة إذن أن الرهبانية المذكورة في الآية ٢٧ من سورة الحديد قد مدحها القرآن ولم يذمّ إلاّ من لم يرعوها حق رعايتها .

ومن هنا نرى استعمال صفة أو لقب راهب لقباً على من اشتهر بشدة التقوى. فأويس القرني الصحابي الكبير كان يطلق عليه لقب : « راهب الامة [2] » ؛ والمردار ، أحد كبار شيوخ المعتزلة ، كان يُسمّى « راهب المعتزلة » ، وأبو بكر المخزومي (المتوفى سنة ٩٤ هـ) كان يلقب بـ « راهب قريش » ، والدارمي (المتوفى سنة ٢٤٣) كان يلقب بـ « راهب الكوفة » ، الخ .

ويتأيد معنى الرهبانية الممدوح هذا بما ورد في الآية ٨٢ من سورة المائدة : « ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا : الذين قالوا إنّا نصارى ، ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً » . والمدح للرهبان هنا ظاهر واضح ؛ فلوجود رهبان بين النصارى فإن النصارى أقرب مودّة إلى المؤمنين من اليهود .

وإنّما ذم القرآن أمرين : (١) اتخاذ الرهبان أرباباً من دون الله (التوبة

---

(١) ابن الأثير : « النهاية » ج ١ ص ٦٦ .

(٢) راجع الحاكم النيسابوري : « المستدرك » ج ٣ ص ٤٠٢ : « أوليس راهب هذه الأمة » . حيدر أباد ، سنة ١٣٤١ هـ .

(٣١) — أي عبادة القديسين le culte des saints

(٢) ثم إنه ذمّ الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ، ويكنزون الذهب والفضة . وهذا الذم لا يقتصر على الرهبان ، بل يشمل كل من يرتكب هذه الآثام . وكما لاحظ أبو ذر الغفاري ، لم ترد هذه الآية (التوبة ٣٤) في حق النصارى وحدهم ، بل وفي شأن المسلمين ؛ ومن هنا كان الصراع بينه وبين عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان [١] .

والقسم الأول من الأحاديث النبوية يندرج تحت هذا المعنى الممدوح للرهبان والرهبانية .

وأما القسم الثاني الذي يقرر أن الرهبانية لم تكتب على المسلمين ؛ وأن الرهبانية المسيحية يقابلها في الاسلام الجهاد فيلاحظ أنه لم يرد في الصحاح الستة ؛ وإنما ورد عند ابن حنبل وعند الدارمي . وقد توسع في معناه ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) في « النهاية » وأورد الصيغة المشهورة . قال :

« لا رهبانية في الاسلام » : هي من رهبنة النصارى ، وأصلها من الرَّهْبة : الخوف . كانوا يترهّبون بالتخلّي من أشغال الدنيا وترك ملاذّها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمُّد مشاقّها ، حتى إنّ منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه ، وغير ذلك من أنواع التعذيب . فنفاها النبي ﷺ عن الإسلام ونهى المسلمين عنها ... ومنه الحديث : عليكم بالجهاد ، فإنه رهبانية أمّتي ، يريد أن الرهبان — وإن تركوا الدنيا وزهدوا فيها وتخلّوا عنها ، فلا تركَ ولا زُهْدَ ولا تخلّي أكثر من بذل النفس في سبيل الله . وكما أنه ليس عند النصارى عملٌ أفضلُ من الترهُّب ، ففي الإسلام لا عمل

(١) راجع بحثنا عن « أبي ذر الغفاري » المنشور في دائرة معارف جريدة « الأهرام ». وراجع تفسير أبي ذر لهذه الآية : « والذين يكنزون الذهب » ... بأنها نزلت في المسلمين كما نزلت في أهل الكتاب — في طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٢٢٦ ، بيروت سنة ١٩٥٧ .

أفضلُ من الجهاد . لهذا قال : ذروةُ سنامِ الاسلام الجهاد في سبيل الله »[1] .

معنى هذا أن الجهاد في سبيل الله أفضل من الترهّب ، وأنه الفضيلة العظمى في الاسلام . وليس في هذا ذم لسلوك مسلك الرهبانية ، بل الأمرُ أمرُ تفضيلِ الجهاد على الانقطاع والخلوة والزهد .

وهذا ربما يفسّر كون الصوفية المسلمين قد جمعوا بين حياة الزهد وبين الجهاد ، وذلك بالمرابطة كما رأينا في فصل سابق . فالمرابط يجمع بين الراهب والمجاهد .

ومن أوائل الصوفية الذين تعرّضوا لآية سورة الحديد الخاصة بالرهبانية الحارث المحاسبي في كتاب « الرعاية » فقال :

« ولقد ذم الله — جل وعزّ — قوماً من بني إسرائيل ابتدعوا رهبانية لمْ يؤْمروا بها فلم يرعوها حق رعايتها . فقال تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » . وقد اختُلِف في هذا الحرف ، فقال مجاهد : ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله عليهم ، أي كتبناها عليهم ابتغاءَ رضوان الله . وقال أبو أمامة وغيره : ما كتبناها عليهم ، أي لم نكتبها عليهم ، ولم يبتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله . فعابهم الله — عز وجل — بتركها . وهذا أوْلى التفسيرين بالحق إن شاء الله . وعليه أكثر الأمة ، فقال الله عز وجل : فما رعوها حق رعايتها . فذمّهم الله تعالى بترك رعاية ما لم يَفترِضْ ولم يوجب عليهم ؛ فكيف بمن ضيّع رعاية حقوقه الواجبة التي أوجب في تضييعها غضبه وعقابه ، وجعل القيام بها مفتاحاً لكل خير في الدنيا والآخرة وهي التقوى ! » .[2]

---

(١) ابن الأثير : « النهاية في غريب الحديث والأثر » ج ٢ ص ١١٣ . القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

(٢) الحارث بن أسد المحاسبي : « الرعاية لحقوق الله عز وجل » ص ٤ — ٥ . نشرة مارجرت اسمث ، لندن ، سنة ١٩٤٠ .

الفصل الثاني

زهد النبي والصحابة

— ١ —

زهد النبيّ ﷺ

والحديث الذي أورده ابن حنبل : « لو كنتُ في النصارى كنتَ من رهبانهم » (مسند ابن حنبل ، ج ٥ ص ١٦٣) يقودنا إلى التحدث عن زهد النبيّ ، مما يؤيّد هذا الحديث .

والأخبار عن زهد النبي ﷺ في عيشه كثيرة جداً ، تحفل بها كل كتب السيرة ، كما تحفل بها كتب الحديث . والصعوبة هنا هي في تمييز صحّتها من بطلانها . والصوفية وكتب التصوف تؤكد هذا الجانب في حياة الرسول ، على أساس فكرة الاقتداء بالنبي ودَعْوى أن نموذجهم الأعلى في سلوكهم الصوفي هو سلوك النبي . وإذا كان للصوفية مصلحة في نقل هذه الأخبار وإذاعتها ؛ بل وفي اختراع الكثير منها ، فإن أصحاب كتب السيرة لا يعنيهم هذا الأمر كثيراً ، بل لا يكاد يعني بعضهم في شيء . ولهذا ينبغي علينا أن نتلمس أخبار زهد النبي في كتب السيرة وكتب التاريخ .

وأقدم كتب السيرة هي :

١) السيرة لابن هشام (أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري) وهي رواية ابن هشام للسيرة التي كتبها أبو عبدالله محمد بن اسحق

بن يسار ، ولم تبق لنا غير رواية ابن هشام هذه ، وقد توفي في ١٣ ربع الثاني سنة ٢١٨ ﻫ (٨٣٤/٥/٨ م) .

٢) « الطبقات الكبير [١] » لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزُّهْري ، الملقب بـ « كاتب الواقدي » والمتوفى في بغداد في ٤ جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ ﻫ (٨٤٥/٢/١٧ م) .

ومن أتوا بعدهما من كُتّاب السيرة عيال عليهما .

وكلاهما يؤكد شدّة العيش على الرسول ، وزهده في طعامه ولباسه وسائر أسباب الحياة .

وها نحن أولاً نورد خلاصة ما أورداه من أخبار في هذا الشأن ، خصوصاً طبقات ابن سعد :

١ — « عن ابن عباس أن النبيّ — صلى الله عليه وسلّم — كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً ، وأهله لا يجدون عشاءً ؛ قال : وكان عامّة خبزهم الشعير » (ابن سعد جـ ١ ص ٤٠٠) .

٢ — عن أنس ابن مالك : « أن فاطمة ، عليها السلام ، جاءت بِكَسْرة خبز إلى النبيّ ﷺ فقال : ما هذه الكِسْرةُ يا فاطمةُ ؟ قالت : قُرْصٌ خبزته فلم تَطِب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة . فقال : أمَا أنه أولُ طعامٍ دخل فَمَ أبيك منذ ثلاثة أيام ! » .

(ابن سعد ، الموضع نفسه) .

٣ — « عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يشدّ صُلْبَه بالحجر من الغَرَث (= الجوع ») .

(الموضع نفسه) .

---

(١) سنشير إلى طبعة بيروت سنة ١٩٥٧ .

٤ — « بينما عائشة، رضي الله عنها — تحدّثني ذات يوم إذ بكَتْ . فقلت : ما يبكيك يا أمّ المؤمنين ؟ قالت : ما ملأت بطني من طعام ، فشئت أن أبكي إلا بكيت أذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم وما كان فيه من الجهد » (ابن سعد ١/٤٠٠ — ٤٠١) .

٥ — وعنها أيضاً أن « رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُرّ » (ابن سعد ج ١ ص ٤٠١)

٦ — وعنها أيضاً : « ما شبع آلُ محمد غداءً وعشاءً من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات حتى لحق بالله » (الموضع نفسه) .

٧ — وعنها أيضاً : قالت : ما شبع آل محمد ثلاثاً من خُبْز بُرّ حتى قبِض ، وما رُفِع عن مائدته كسرةٌ فضلاً ، حتى قُبِضَ » (الموضع نفسه) .

٨ — « وعن أبي هريرة قال : « كان يمر بآل رسول الله ﷺ هلال ثم هلالٌ ثم هلالٌ لا يوقد في شيء من بيوته نارٌ ، لا لخبزٍ ولا لطبيخ . قالوا : بأيّ شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين : التمر ، والماء . قال : وكان له جيرانٌ من الأنصار ، جزاهم الله خيراً ، لهم منائح ، يرسلون إليه بشيء من لبن » (الموضع نفسه) .

٩ — « عن الحسن (= البصري) قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « والله ما أمسَى في آل محمد صاعٌ من طعام » ، وإنها لتسعة أبيات (= بيوت زوجاته) . والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ، ولكن أراد أن تتأسّى به أمّته . » (ابن سعد ج ١ ص ٤٠٢) .

١٠ — « عن ابن عباس قال : والله لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ الليالي ما يجدون فيها عَشاءً » (الموضع نفسه) .

١١ — « عن عائشة — رضي الله عنها — قالت : ما شَبِع رسولُ الله

ﷺ في يوم مرتين حتى لحق بالله ؛ ولا رفعنا له فَضْلَ طعامٍ عن شِبَعٍ حتى لحق بالله ، إلاّ أن نَرْفعه لغائبٍ . فقيل لها : ما كانت معيشتكم ؟ قالت : الأسودان : الماء والتمر . وقالت : وكان لنا جيرانٌ من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيراً » (الموضع نفسه) .

١٢ — عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لم يجمع له غداءٌ ولا عَشاءٌ من خبز ولحم إلاّ على ضَفَف [1] » (ابن سعد ج ١ ص ٤٠٤) .

١٣ — « عن أنسَ بن مالك قال : شهدت للنبيّ ﷺ وليمةً ما فيها خبزٌ ولا لحم» (الموضع نفسه) .

١٤ — عن أنس بن مالك قال : « ما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرقّقاً بعينه حتى لحق بربّه ، ولا شاة سميطاً قط » (الموضع نفسه) .

١٥ — « عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما اجتمع في بطن النبيّ ﷺ طعامان في يوم قطّ ، إن أكل لحماً لم يزد عليه ؛ وإن أكل تمراً لم يزد عليه ؛ وإن أكل خبزاً لم يزد عليه . وكان رجلاً مِسقاماً ، وكانت العرب تَنْعَتُ له فيتداوى بما تَنْعَتْ له العرب ، وكانت العجم تنعت له فيتداوى » (ابن سعد ج ١ ص ٤٠٤) .

١٦ — « عن أبي نضر قال : سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقول : إنيّ لجالسةٌ مع رسول الله ﷺ في البيت . فأهدى لنا أبو بكر رِجْلَ شاةٍ فإني لأقطعها مع رسول الله ﷺ في ظلمة البيت . فقال لها قائل : أما كانَ لكم سراج ؟ فقالت : لو كان لنا ما يُسْرَج به اكلناه . » (ابن سعد ، ج ١ ص ٤٠٥) .

١٧ — « عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها — قالت : لقد مات

---

(١) الضفف (محركة) قلة المال وكثرة العيال وكثرة الأيدي على الطعام ، أو الضيق والشدة ، وأن يكون الآكلون أكثر من الطعام . والمعنى : إلا والأيدي كثيرة والطعام قليل .

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وما شبع من خبزٍ وزيتٍ في يومٍ مرّتين » (الموضع نفسه) .

١٨ — عن عمر بن الخطاب قال : « لقد رأيت رسول الله ﷺ يلتوي يومَه من الجوع ، ما يجد من الدقل [١] ما يملأ به بطنه » (ابن سعد ج ١ ص ٤٠٦) .

١٩ — عن عائشة قالت : « بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواءً يمرئه . فذكرتُ نبيّكم (صلعم) فذاك الذي أبكاني : خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يومٍ من طعامين : كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز . وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر . » (الموضع نفسه) .

٢٠ — عن أنس بن مالك قال : « ما يُرفع بين يدي رسول الله ﷺ شيءٌ قط ، ولا حُمِلت معه طِنْفسة يجلس عليها » (ابن سعد ج ١ ص ٤٠٨) .

٢١ — عن أسماء بنت يزيد قالت : « إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — توفي يومَ توفي ودِرْعُه مرهونةٌ عند رجل من اليهود بوسَقٍ من شعير » (الموضع نفسه) .

٢٢ — « أخبرني الأعرج عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ كان يجوع . قلت لأبي هريرة : وكيف ذلك الجوع ؟ قال : لكثرة مَنْ يغشاه وأضيافه ، وقومٍ يلزمونه لذلك ؛ فلا يأكل طعاماً أبداً إلاّ ومعه أصحابه ، وأهل الحاجة يتتبعون من المسجد . فلما فتح الله خيبر ، اتّسع الناسُ بعض الاتّساع ، وفي الأمْرِ بَعْدُ ضيقٌ والمعاش شديد . هي بلادٌ ظَلَفٌ [٢] لا زرع فيها . إنما

(١) الدقل : أردأ التمر ، أو ما لم يكن أجناساً معروفة .
(٢) الظلف : الخشن القاسي . والأرض الظلفة : التي لا تؤتي زرعاً لخشونتها . وكل ما اشتد من الأمر فهو ظلف .

طعامَ أهلها التمر ، وعلى ذلك أقاموا . ـ قال مخرمة بن سليمان : وكانت جَفْنة سعد (ـ ابن عبـادة) تدور على رسول الله ﷺ منذ يوم نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي . وغير سعد بن عبادة من الأنصار يفعلون ذلك . فكان أصحـاب رسول الله ﷺ كثيراً ، يتواسَوْن ؛ ولكن الحقوق تكثر ، والقُدّام (= القادمون) يكثرون ، والبلاد ضيّقة ليس فيها معاش . » (ابن سعد جـ ١ ص ٤٠٩) .

٢٣ ـ « عن عائشة ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت : كان ضِجاعُ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من أدَمٍ محشوّاً ليفاً » (ابن‌سعد جـ ١ ص ٤٦٤) .

* * *

وهذه الشواهد كفيلة بإثبات أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعيش عيشة الزهد والتقشف سواء في طعامه وفي لباسه ؛ وقد استمر على ذلك حتى وفاته . ولم يكن ذلكَ عن عدم قدرة على الحصول على أطايب الطعام وفاخر الثياب ، لأن ما خص الرسول من غنائم من المعارك التي انتصر فيها المسلمون وغنموا كان كافياً لتوفير ما يمكّنه من تحصيل ذلك، لو أراد . إنما فعل ذلك عن مبدأ في السلوك خليق بمثله ، وهو مبدأ الزهد في الدنيا . ولم يكن من المعقول أن يدعو ـ وهو صاحب دعوة ودين جديد ـ إلى الزهد في الدنيا ، دون أن يطبّق ذلك عملياً في حياته الخاصّة . ومن هنا كثرت الأحاديث النبوية في ذم الدنيا ، ونجتزىء منها بما يلي :

١ ـ « مَنْ كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره ، وَجَعَلَ فقره بين عينيه ، لم يأته من الدنيا إلاّ ما كُتب له . ومَنْ كانت الآخرة نيته ، جَمَعَ الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » (سنن[1] ابن ماجة ، كتاب الزهد ، برقم ٤١٠٥) .

---

(١) سنن ابن ماجة (٢٠٧ هـ ـ ٢٧٥ هـ) جـ ٢ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة سنة ١٩٥٣ .

٢ ـ « مَنْ جعل الهموم همّاً واحداً : هَمَّ المعاد ، كفاه الله همَّ دنياه . ومَنْ تشعب به الهموم في أحوال الدنيا ، لم يُبالِ اللهُ في أيّ أودية هلك » (المصدر السابق برقم ٤١٦) .

٣ ـ « ما أنا والدنيا ! إنما أنا والدنيا كراكبٍ استظلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٠٩) .

٤ ـ « الدنيا سجن المؤمن وجَنّة الكافر » (المصدر نفسه ، برقم ٤١١٣ . صحيح مسلم ٩٣/١٨) .

٥ ـ « يا عبدَ الله ! كُنْ في الدنيا كأنك غريب ، أو كأنك عابر سبيل . وعُدّ نفسك من أهل القبور » (المصدر نفسه ، برقم ٤١١٤) .

كذلك كثرت الأحاديث في تمجيد الفقر والفقراء ، ومن ذلك :

١ ـ « إن الله يحب عبده المؤمن ، الفقير ، المتعفف ، أبا العيال » (المصدر نفسه برقم ٤١٢١) .

٢ ـ « يدخل فقراء المؤمنين الجنةَ قبل الأغنياء بنصف يومٍ : خمسمائة عام » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٢٢) .

٣ ـ ومن دعائه ﷺ : « اللهُمَّ أحْيِني مسكيناً ، وأمِتْني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٢٦) .

وفي مقابل ذلك نجد أحاديث في ذم الغنى والأغنياء :

١ ـ ويلٌ للمكثرين ! إلاّ مَنْ قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٢٩) .

٢ ـ « الأكثرون (= المكثرون) هم الأسفلون يوم القيامة ؛ إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا ، وكَسَبَه مِنْ طَيِّب » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٣٠) .

٣ — « ما أُحِبّ أنّ أُحُداً عندي ذَهَباً ، فتأتي عليّ ثالثةٌ وعندي منه شيء ، إلاّ شيءٌ أرصده في قضاء دين »[1] (المصدر نفسه برقم ٤١٣٢) .

٤ — « تَعِس عَبْدُ الدينار وعَبْدُ الدرهم وعبد الخميصة . تَعِس وانتكس . وإذا شِيكَ ، فلا انتقش[2] » (المصدر نفسه برقم ٤١٣٦) .

٥ — « ليس الغنى عن كثرة العَرَض[3] ، ولكنّ الغنى غنى النفس » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٣٧) .

وثَم أحاديث تدعو إلى القناعة والأخذ بالكفاف :

١ — « قد أفلح من هُدِي إلى الإسلام ، وزُرِق الكفاف ، وقَنِع به » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٣٨) .

٢ — « اللهم اجعل رِزْقَ آل محمد قُوتاً » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٣٩) .

٣ — « ما من غنيّ ولا فقير إلاّ ودّ يومَ القيامة أنه أُتِي من الدنيا قوتاً » (المصدر نفسه ، برقم ٤١٤٠) .

وليس ثَم أخبار مضادة لهذه فيما بين أيدينا من مصادر عن سيرة الرسول ، بل كتب الصحاح والسيرة تُفيض في هذه المعاني إفاضة واسعة لا تَسمح بإيراد ما يناقضها .

ولا يناقض هذا السلوك في شيء ما يذكر من أن الرسول حُبِّب إليه الطيب والنساء — وهو ما تعبّر عنه الأحاديث التالية :

---

(١) أي ليلة ثالثة . في قضاء دين : أي لأجل قضاء دين علي أو على أحد من المسلمين .

(٢) الخميصة : ثوب خز أو صوف مقلم . وانتكس : انقلب على رأسه ، وهو دعاء عليه بالخيبة وشيك الرجل فهو شوك : إذا دخل في جسمه شوك . فلا انتقش : إذا دخلت فيه شوكة لم تخرج .

(٣) العرض : المال بمختلف أنواعه .

١ — « حُبِّبَ إليَّ من الدنيا النساء والطِّيب ، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة » (ابن سعد ج ١ ص ٣٩٨ .

٢ — « ما أحببتُ مِنْ عيش الدنيا إلاّ الطِّيبَ والنساء » (١١ ابن سعد ط ص ٣٩٨) .

٣ — عن عائشة قالت : « كان يعجب نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ، من الدنيا ثلاثة أشياء : الطيب والنساء والطعام ؛ فأصاب اثنتين ولم يُصِب واحدة : أصاب النساء والطيب ، ولم يُصِبْ الطعام » (الموضع نفسه) .

فالنبي كان يتطيب حتى كان أصحابه يعرفون خروجه بريح الطِّيب (الموضع نفسه) ، وما عُرِض عليه طِيبٌ قط فردّه (ابن سعد ج ١ ص ٣٩٩) . وكان يتطيب بالمسك والعنبر ، وكان له سُكٌّ يتطيّب منه . وكان إذا استجمر يجعل الكافور على العود ثم يستجمر به (ابن سعد ، ج ١ ص ٤٠٠) .

ولكن من قال إن التطيّب يتنافى مع الزهد ؟ خصوصاً وأن في نتن الرائحة إيذاءٌ للغير لا يقرّه أي شرع أو أدب .

إن استعمال الطيوب مقرونٌ بكثيرٍ من الطقوس الدينية ؛ وتقديم الأزهار أمرٌ وارد في كثير من المراسم الدينية عند الهنود. ففي كتاب« بهجقد — جيتا» يؤمر بتقديم الأزهار في العبادة، والإله كِرِشْنَا يُذْكَر عنه في نفس الكتاب (٩ : ١٧ : ٣٢) أنه كان يلبس أزهاراً سماوية . وفي هياكل شنتو لا بد من وجود أُصُصِ الزهر باستمرار . وفي العبادات الايجية اليونانية كانت الأزهار تُقَدَّم جزءاً من مراسم العبادة ، والقائمون على تقديم القرابين في اليونان وعند الرومان كانوا يحملون أكاليل الزهر ؛ وكذلك كان المذبح يزين بالأزهار . وكانت الأزهار تقدَّم إلى الآلهة أو توضع على رءوسها في العبادات الايجية . والنصارى منذ بداية المسيحية كانوا ، ولا يزالون ، يضعون الأزهار على الجثث

ثم على القبور ، كذلك كانوا ، ولا يزالون ، يزينون المذابح في الكنـائس بالأزهار . كذلك المسح بالزيت المعطر كان ولا يزال من الطقوس المسيحية المستعملة في كثير من المناسبات . والديانات المصرية القديمة ذَرَّفَتْ على غيرها في هذا الباب . فكانت صور الآلهة المصرية تمسح بالزيت المعطر . وكان المصريون القدماء يستخدمون الزيت المعطر في عملية تحنيط جثث الموتى . وكانت أواني العطور تصنع أحياناً من حجر الفيروز (التوركواز) ، كمـا هو ثابت في أسرار اوزيريس في دندره بالصعيد الأعلى[1] . وكانت أواني الزيت والعطر والمراهم توضع مع المومياء في التابوت .

أما البخور فاستعماله في الطقوس الدينية منتشر جداً منذ أقدم العصور وفي كل الديانات تقريباً . فكان منتشر الاستعمال عند الساميين في طقوسهم الدينية . وكان اسمه عند البابليين قُتْدنّو ، وكان يصنع من الأخشاب العطرة (الأرز والسرو) والغار والقصب والحشائش العطرة . ويذكر أن نبونيدوس كان يملأ المعبد برائحة البخور [2] . ويروي هيرودوتس [3] أن ألف مثقال (تالنتْ) من البخور كانت تقدم على مذبح بعل في عيده السنوي . وكان البخور يحرق كَمرْسَمٍ مُصاحبٍ للتعزيمات والدعاء وتقديم الوحي ، وكذلك في الحزن على تموّز ، على أساس أنّ تمّوز سيقوم من قبره ويستروح عبير البخور [4] . وكان يستعمل أيضاً لتعطير المواضع التي يفترض أن الآلهة ستحلّها . وكان اللبان (لبوناه ، بالعبرية) يستخدمه اليهود في كثير من طقوسهم ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد على الأقل . وكان البخور عندهم يقدم إما لذاته ، أو كجزء من قرابين أخرى . وكان يقدم في مباخر في يوم الغفران ، وكان يصنع وفقا

---

(١) راجع Budge : **Osiris and the Egyptian Resurrection**. London, 1911, ii, 40.

(٢) Jastrow : **Religion of Babylone and Assyria**, p. 665. Boston, 1898.

(٣) Herodotus : **History**, I, 183.

(٤) M.J. Lagrange : **Etudes sur les religions sémitiques**, Paris, 2e éd., 1905, p. 239 sqq.

لوصفة دقيقة (سفر الخروج أصحاح ٣٠ عبارة ٣٤) ، وأصبح جزءاً أساسياً من طقوس اليهود . وفي بداية المسيحية اختلف في شأن استخدام البخور ، فكان بعض الآباء في صف الأخذ به ، والبعض الآخر يعارض استعماله ، ومن هؤلاء الأخيرين ترتليانوس وأثيناجورس وأرنوبيوس ولاكتانس ، والسبب في ذلك — فيما يبدو — الرغبة في مفارقة عادات اليهود . ومع ذلك نجد قوانين الرسل تشير إلى استخدام البخور θυμίαμα في مرسم الافخارستيا. ثم صار استخدامه في مراسم الأحد في القدس عند نهاية القرن الرابع الهجري ؛ وتتحدث الكتب المنسوبة إلى ديونسيوس الأريوفاغي عن القسس وهم يبخرون المذبح ويدورون في الكنيسة . وفي طقوس القديس يعقوب يستخدم البخور في الأقسام السابقة واللاحقة على الأنافورا amaphora ؛ وفي طقس يوحنا الذهبي الفم تُبَخّر الأواني المقدسة والانجيل والمذبح والكاهن والهيكل في القسم السابق على الأنافورا (= القسم الأجلّ في القداس ، أوج القداس) ، كما يبخر المذبح أثناء أوج القداس (الأنافورا) . وحتى اليوم نجد البخور يحرق في الكنيسة الرومية الكاثوليكية أثناء القداس أي قبل المدخل ، وعند قراءة الانجيل ، وعند التقديم والسموّ ، وفي المواكب وتكريس الكنيسة ومراسم الدفن الخ .

وتكفي هذه الشواهد على استعمال البخور والطيب في الطقوس الدينية في مختلف الأديان — لإثبات أن استعمال الطيوب والتجمير بالبخور يدخلان في الطقوس الدينية الجليلة ، ولا يشتمّ منهما أي معنى من معاني التبذّخ والترف . ولهذا فليس ثم أي مُبَرّر للاستشهاد بحب النبي — صلى الله عليه وسلم — للطيب والتجمر بالبخور ، على أي معنى من معاني الترف أو ما ينافي الزهد .

* * *

أما وقد انتهينا من هذه المسألة ، فلننتقل عنها إلى المسألة الأخرى ، وهي أشدّ تعقيداً من الأولى ، ولكنها مع ذلك سهلة الإيضاح :

أ — فهناك إجماع على أن رسول الله تزوج أربع عشرة زوجة على الترتيب التالي :

١ – خديجة بنت خويلد بن أسدبن عبد العزى بن قصيّ ؛ وكانت قبله زوجة لعتيق بن عابد المخزومي ، ثم لأبي هالة بن النبّاش . وتزوجها الرسول وهو في الخامسة والعشرين ، بينما كانت هي ابنة أربعين سنة . وتوفيت في ١٠ رمضان في السنة العاشرة للنبوة قبل الهجرة بثلاث سنين .

٢ – وبعد وفاتها تزوج سودة بنت زمعة العامرية ، وكانت قبله تحت السكران بن عمرو ، أخي سهيل بن عمرو ، فمات بها ، فتزوجها الرسول في رمضان سنة ١٠ من النبوة ، أي قبل الهجرة بثلاث سنين . وتوفيت في شوّال سنة ٥٤ هـ .

٣ – وتزوج على أثرها عائشة بنت أبي بكر الصدّيق بمكة ، وهي بنت ست سنين في شوال سنة ١٠ من النبوة ، وبنى بها بالمدينة وهي ابنة تسع سنين في شوّال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة. وتوفي عنها وهي بنت ثماني عشرة سنة ؛ وتوفيت هي في رمضان سنة ٥٨ هـ .

٤ – ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب . وكانت قبله تحت خُنَيْس بن حذاق السهمي فتوفي عنها أثر عودته من معركة بدر . فتزوجها رسول الله في شعبان ، على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة ، قبل موقعة أُحُد بشهرين . وتوفيت في شعبان سنة ٤٥ هـ .

٥ – ثم تزوج أم سَلَمة ، ابنة أبي أميّة بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم . وكانت قبله تحت أبي سلمة بن عبد الأسد ، فتوفي عنها أبو سلمة بعد أحد . وكان تزوج رسول الله إيّاها في ليالٍ بقين من شوّال سنة ٤ من الهجرة . وتوفيت في ذي القعدة سنة ٥٩ هـ .

٦ – ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، من بني المصطلق . وكانت قبله تحت ابن عمّ لها يقال له صفوان ذو الشفر بن مالك بن جذيمة ، فقتل عنها يوم المريسيع ، فكانت جويرية مما أفاء اللهُ على رسوله ، فأعتقها

وتزوّجها . وقد وقعت موقعة المريسيع في شعبان سنة ٥ من الهجرة . وتوفيت سنة خمسين هجرية وعمرها ٦٥ سنة .

٧ — ثم تزوج زينب بنت جحش بن رئاب الأسديّة، وأمّها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم . وكانت قبله تحت زيد بن حارثة . وتزوجها النبي في ذي القعدة من سنة ٥ هجرية ، وهي يومئذ بنت ٣٥ سنة . وتوفيت سنة ٢٠ ه .

٨ — ثم تزوّج زينب بنت خزيمة الهلالية ، وهي أمّ المساكين ؛ فتوفيت عنده . وكانت قبله تحت الطفيل بن الحارث بن المطلّب . وتوفيت في آخر ربيع الثاني سنة ٤ ه .

٩ — ثم تزوّج ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة النَّضيرية. وكانت قبله تحت رجل من بني النّضير يقال له الحكم ، فتوفي الحكم . وقد توفيت ريحانة ورسول الله حيّ . وكانت غزوة بني قريظة في ليالٍ من ذي العقدة أو من ذي الحجة سنة خمس من الهجرة .

١٠ — ثم تزوج أم حبيبة ، ابنةَ أبي سفيان بن حرب ، في الهدنة ، وهي بأرض الحبشة . وكانت قبل رسول الله عند عبيدالله بن جحش ، وكان قد أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة مع من هاجر من المسلمين . ثم ارتدّ وتنصّر ومات هناك على النصرانية . وتوفيت سنة ٤٤ ه .

١١ — ثم تزوج صَفِيّة بنت حُيَيّ بن أخطب . وكانت من ملك يمينه فأعتقها وتزوّجها ، وكانت قبله تحت سلاّم بن مشكم ففارقها ، فتزوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، فقُتِل عنها يوم خيبر . وبنى بها رسول الله بالصهباء في جمادى الآخرة سنة سبع من الهجرة . وتوفيت سنة ٥٢ ه .

١٢ — ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية في ذي القعدة من سنة سبع من الهجرة . وكانت قبله تحت أبي رهم بن عبد العزّى العامري ، فتوفي عنها . وقد توفيت سنة ٦١ ، وعمرها ٨٠ أو ٨١ سنة .

١٣ — وتزوج فاطمة بنت الضحّاك بن سفيان الكلابية . فاستعاذت منه ، ففارقها . ويقال إنما فارقها لبياض كان بها . وكان تزوجه إياها في ذي العقدة سنة ثمان من بعد انصرافه من الجعرانة .

١٤ — وتزوج أسماء بنت النعمان الجونيّة ، ولم يدخل بها ، وهي التي استعاذت منه . وكان تزوجه إياها في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة .

ومن هؤلاء الثماني ست قرشيات وهن : خديجة ، وعائشة ، وسودة ، وأم سلمة ، وأم حبيبة ، وحفصة . والثماني الأخريات من العرب من غير قبيلة قريش ، وهي : زينب بن جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، وأسماء بنت النعمان الجونية ولم يدخل بها ، وفاطمة بنت الضحّاك الكلابية ، وزينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين ، وريحانة بنت زيد من بني النّضير وكانت مما أفاء الله عليه ، وصفية بنت حييّ بن أخطب وكانت مما أفاء الله عليه [1] .

ب — وإذا تأملنا في هذه الزيجات الأربع عشرة وجدنا الدوافع اليها :

أ — إما توثيقاً للصلات بين الرسول وبين أكبر أنصار الدين الجديد ، وهذا ينطبق على زواجه من عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطـــاب .

ب — أو استمالةً لعصبيات عربية قوية ، كما هي الحال في زواجه من جويرية بنت الحارث ، فقد كان أبوها الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق بن خزاعة وكان قد جمع جموعاً عديدة لمحاربة الرسول ، وهزمه الرسول ، ووقعت جويرية ابنته أسيرة ، وصـــارت في سهم ثابت بن قيس . فاستغاثت بالنبي فتزوجها استنقاذاً لها وتأليفاً لبني قومها ، حتى إن بني المصطلق أسلموا في إثر ذلك . وكذلك الأمر بالنسبة إلى زواجه من ميمونة بنت الحارث الهلالية ، فقد

(١) راجع « طبقات » ابن سعد ، ج ٨ ص ٢١٦ — ٢٢٠ . بيروت سنة ١٩٥٨ .

أدى ذلك إلى إسلام خالد بن الوليد ، أو كان ذلك من بعض أسباب انضمام هذا القائد العظيم إلى النبي وإسلامه . ومما يرجّح كون السبب في زواج النبي من ميمونة كان سياسياً ، أن الذي زوجه إياها العباسُ بن عبد المطلب وكان ولي أمرهـا :

جـ — أو انقاذاً لسبايا كن عاليات المكانة في قبائلهن ، وهذا ينطبق على زواجه من ريحانة بنت زيد بن عمرو ، فقد كانت متزوجة في بني النضير ؛ فلما وقع السبي على بني قريظة سباها رسول الله وأعتقها وتزوجها ؛ وعلى زواجه من صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، وكانت من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران . ولما غزا النبي خيبر ، سبى صفيّة ؛ وعرَض عليها أن يعتقها إن اختارت الله ورسوله . فاختارت الله ورسوله ، وأسلمت ، فأعتقها وتزوّجها . كما ينطبق هذا أيضاً على زواج النبي من جويرية بنت الحارث وقد أشرنا إلى دوافع أخرى في البند السابق . وهي الأخرى دخلت في السبي ، فأعتقها النبي وتزوّجها . كما ينطبق على زواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان ، التي ارتد زوجها وتنصر في الحبشة ، فتزوجها النبي جزاءً لها على ثباتها على إسلامها . فضلاً عن أن في ذلك معنى آخر وهو كون أبيها أبا سفيان وكان من أكبر زعماء قريش الذين حاربوا الرسول ، وعادوه ، فكان مقصوداً من هذا الزواج اكتساب أبي سفيان . وفي ذلك نزلت الآية الكريمة : « عَسَى اللهُ أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة . وقد ذكر ابن عباس أن هـذه الآية نزلت حين تزوج النبيّ أم حبيبة بنت أبي سفيان [1] .

د — أو إشفاقاً على بعض النسوة ذوي المكانة بعد أن توفي عنهن أزواجهن ؛ وهذا ينطبق على الزواج من سودة بنت زمعة ، ومن أم سلَمة ، ومن ميمونة بنت الحارث الهلالية .

هـ — أو تخليصاً من وضع اجتماعي غير متكافىء ، كما هي الحال

(١) « طبقات » ابن سعد جـ ٨ ص ٩٩ ، بيروت سنة ١٩٥٨ .

بالنسبة إلى زواجه من زينب بنت جحش ، وأمّها أميمة بنت عبد المطلب ، أي عمّة النبي . « وكانت زينب بنت جحش ممّن هاجر مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المدينة . وكانت امرأة جميلة ، فخطبها رسول الله ﷺ على زيد بن حارثة . فقالت : يا رسول الله ! لا أرضاه لنفسي وأنا أيِّمُ قريش . قال : فإني قد رضيته لك . فتزوجها زيد بن حارثة » [١] .

وزيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ، أبو أسامة ، كان عبداً أتى به إلى مكة الحاكمُ بن حزام بن خويلد ، ابن أخي خديجة أم المؤمنين ؛ وكان قد اشتراه من الشام وباعه لعمّته خديجة ، فوهبته خديجة للنبي قبل البعثة . وقد جاء أبوه حارثة إلى مكة لتحرير ابنه ، لكن زيداً رفض مفارقة النبي ؛ وأعتقه النبي وقرّبه إليه ، حتى كان يطلق عليه اسم زيد بن محمد [٢] . وكان زيد يصغر النبي بحوالي عشر سنين ، وكان من أوائل من اعتنقوا الإسلام ، إن لم يكن أوّلهم .

* * *

تلك هي الدوافع الرئيسية لزواج النبي ممن تزوج بهن بعد وفاة زوجته الأولى خديجة التي ظل النبي متزوجاً بها وحدها طوال خمس وعشرين سنة حتى توفيت .

وهذه الدوافع ، كما رأينا ، لا يندرج واحد منها في باب الشهوة الجنسية المحض . ولهذا لا نستطيع أن نستنتج من كثرة زواج النبي أن ذلك كان لأسباب من الشهوة الجنسية بل ارتبطت هذه الدوافع ونبعت من صميم رسالته بوصفه نبياً ومنشىء دولة في وقت معاً ، وليس مجرد نبي يعتزل الناس ويسلك سبيل الوحدة والانفراد عن البشر ، وإلاّ لما كان نبياً رسولاً ومنشىء دولة .

ويلاحظ من ناحية أخرى أنه ليس ثمّ تعارض بين الزواج والزهد في الدنيا .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ١٠١ بيروت سنة ١٩٥٨ .

(٢) الكتاب نفسه ، ق ٣ جـ ١ ص ٢٦ – ٣١ نشرة سخاو .

والديانة الوحيدة التي تفرض على أتباعها العزوبة هي البوذية . ففي القاعدة الأولى منها – من بين قواعد الباتموكشا ، وعددها ٢٢٧ قاعدة ، الأربعة الأولى منها ملزمة قاطعة – نقرأ أن من اتخذ سبيل الرياضة ، وهو البهكهو ، فعليه أن يمتنع من كل اتصال جسدي بأي كائن حيّ ، حتى لو كان حيواناً ؛ ومن يفعل ذلك يسقط ويخرج عن الجماعة [1] . ويضيفون إلى ذلك توكيدات في هذا الصدد منها أن على البهكهو ألا ينام في مكان توجد فيه امرأة أو أن يسلك طريقاً بصحبة امرأة ، أو أن يدعو إلى المذهب امرأة إلا بكلمات قليلة ، إلاّ إذا كان ثمّ رجل كبير السن حاضراً ، الخ .

وفي اليهودية كان يوصى بكثرة الزواج وكثرة النسل ،وكان الكهنة يتزوجون العديد من الزوجات ، والنبي داود تزوج أكثر من مائة زوجة ، وكذلك فعل ابنه سليمان .

والمسيح في الأناجيل لا ينصح بالعزوبة لا لعامة الناس ولا للخاصة من أتباعه . بل نجد في انجيل متى (اصحاح ١٩ ، عبارات ٤ وما يتلوها) ومرقس (اصحاح ١٠ عبارة ٣ وما يتلوها) أن الزواج نظام إلهي . وحينما يميّز المسيح (لوقا: ٢٠ : ٣٤ – ٣٦ ؛ مرقس ١٢ : ٢٥؛متى ٢٢ : ٣٠) بين « أبناء القيامة » وبين « أبناء الدنيا » قائلاً إن الأولين لا يتزوجون ، بل هم مساوون للملائكة ، فإنه لا يرمي من ذلك إلى تفضيل العزوبة على الزواج بل يحدد فقط أحوال الطائفتين . وبشهود المسيح لعرس قانا واتيانه هناك بأول معجزاته ، دليل على تقدير المسيح للزواج (انجيل يوحنا الاصحاح الثاني ، العبارات ١ – ١١) . ثم إن كثيراً من الحواريين كانوا متزوجين (انجيل متى الاصحاح الثامن عبارة ١٤) ، وعلى رأسهم القديس [2] بطرس رأس الحواريين ؛ وكان لهم أولاد ،

---

(١) راجع هذه القواعد مترجمة في **Vinya Texts**, translated by Rhys Davids and Oldenberg, vol. I, Oxford, 1881.

(٢) St. Clément d'Alexandrie (m. vers 220) : **Les Stromates**, III, chap. VI.

وكذلك كان الحواري فيليب ، كما ذكر ذلك القديس كليمانس السكندري . وبولس ، وإن آثر العزوبة لنفسه ، فإنه فضل للأساقفة أن يكونوا متزوجين . وأوصى الأسقف أن يكون رب أُسْرة ، قد برهن في بيته على أنه قادر على أن يدير الكنيسة ، قال بولس : « يجب أن يكون الاسقف خالياً من العيوب وأن يكون زوجاً لامرأة واحدة ... وليحكم أسرته جيداً ، معلماً أولاده الطاعة وكل ألوان الأمانة ؛ إذْ لو كان المرء عاجزاً عن حكم أسرته ، فأنّى له أن يحكم كنيسة الله! » (الرسالة الأولى إلى طيموثاوس ، الاصحاح الثالث ، العبارات ١ — ٥) . وأبسل أولئك المجروحي الضمير المروجين للأكاذيب نفاقاً منهم ورياءً ممن « يحرّمون الزواج » (نفس الرسالة ، الاصحاح الرابع ، عبارة ٣) .

ومن الثابت قطعاً أن الكنيسة المسيحية ، طوال القرون الثلاثة الأولى ، لم تعتبر الزواج متنافياً مع أية وظيفة دينية . والشاهد على هذا نموذج الحواريين المتزوجين والأساقفة والقسيسين المتزوجين الذين أنجبوا أولاداً بعد رسامتهم بمدة طويلة . وأول مرة نعثر فيها على تحريم زواج هؤلاء بعد رسامتهم هو في قوانين الرسل ، وهي قوانين من الثابت أن الذين وضعوها لم يكونوا الرسل (الحواريين) وإنما وضعت في وقت متأخر ليس سابقاً على مجمع نيقية (سنة ٣٢٥) ولاحقاً على نهاية القرن الرابع الميلادي . إذ ورد في القانون رقم ٢٥ أنه غير مسموح بالزواج بعد الرسامة (أي التعيين كهنة) إلاّ للقرّاء والمنشدين . والقانون الخامس مع ذلك يحدد أن الزواج السابق على الرسامة يظل صحيحاً بالنسبة إلى الأسقف والكاهن والشمّاس ، ويستمر التعايش بين الواحد من هؤلاء وزوجته . ولما حاول أنصار العزوبة في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ أن يفرضوا على هؤلاء الامتناع من مباشرة زوجاتهم رفض اقتراحهم ، بفضل معارضة أسقف مصري ورع هو بافنوتوس ، أسقف الصعيد الأعلى ، وكان هو مع ذلك أعزب [1] . ولعن مجمع

---

(١) راجع. Sozomène : Histoire ecclésiastique I, 23; Socrate : Hist. eccl., I, 11.

جانجر (٣٦٠ ؟ — ٣٧٢ ؟) أولئك الذين ادعوا أن الزواج يتنافى مع القداسة .

وإذا كانت الكنيسة قد اتجهت بعد ذلك في اتجاه تحريم الزواج على هؤلاء ، فقد كان ذلك بتأثير مذهب الغنوص الذي اختلطت فيه العناصر الفيثاغورية والأفلاطونية التي تدعو إلى العفة . إن الغنوص يرى أن الهيولى (= المادة) شر ، وأن الخلاص إنما يكون بالتخلص من علائق المادة . وبناء على هذا رأوا أن الزواج شر . فقال ساتورينوس وباسليوس [1] « إن الزواج والنسل من عند الشيطان » . وقال تاتياس (يوسابيوس : « التاريخ الكنسي » ج ٤ : ٢٩ : ٣) إن « الزواج فساد وزنا » . ويضاف إلى تأثير مذهب الغنوص تأثير ديانة ايزيس وعبادة مثرا اللتين انتشرتا في الأمبراطورية الرومانية وكان لهما تأثير هائل في القرنين الأول والثاني للميلاد . وكلتا العبادتين تمجد العزوبة عند الكهنة . فتأثرت بهما المسيحية في تلك الفترة ، فكان أن تأكّد الاتجاه نحو تفضيل العزوبة وتوكيد أنها أفضل في التقوى وحياة الورع .

وهكذا نرى أن اليهودية والمسيحية في اتجاههما الأصيل لم يجدا تنافياً بين الزواج وبين حياة التقوى والقداسة .

ولهذا نرى أنه لا محل لدعوى من يدّعون أن زواج النبي ﷺ يتنافى مع الزهادة .

ومن هنا سنجد الصوفية المسلمين لا يرون تنافياً أبداً بين سلوك طريق التصوف وبين التأهل أي الزواج . وسنجد كثيراً من شيوخهم الكبار في القرون الستة الأولى للهجرة متأهلين . ولن تثار مشكلة التفضيل بين التأهل (الزواج) والتجرّد (العزوبة) في كتب الصوفية إلاّ في عصر متأخر . وسنعرض لهذه المشكلة بالتفصيل فيما بعد .

* * *

---

(١) راجع : Irenaeus : adv. Haer. ١ : ٢٤ .

والخلاصة إذن أن حياة النبي — صلى الله عليه وسلم — كانت حياة زهد وإعراض عن الدنيا ، ولم يكن فيها ما يتنافى مع شروط الحياة الصوفية .

ولهذا وجد الصوفية المسلمون فيها ، بوجه عام ، نموذج الحياة الصوفية ؛ وكان الاقتداء بسلوك النبي ، فضلاً عن أقواله ووصاياه ، هدفاً للصوفي السالك الطريق إلى الحق .

وسنرى في الفصل التالي أن بعض الصحابة يمكن أن يعدوا النماذج الأولى للصوفية المسلمين .

- ٢ -

نماذج الصوفية

بين الصحابة

ونبدأ هنا فندع جانباً مشكلة أهل الصّفة لما يحيط بأخبارهم من أساطير ومبالغات بمعزل عن التحقيق العلمي التاريخي ، تتعلق بعددهم (١٠ ، ٣٠ ، ٧٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٤٠٠) ، وأسمائهم ، والقبائل التي ينتسبون إليها ، وأحوالهم الاجتماعية (الموالي منهم) ، الخ . خصوصاً وضاعت المصادر الرئيسية عنهم ، مثل « تاريخ أهل الصفة » لأبي عبد الرحمن السلمي (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) ، و « التحفة في الكلام على أهل الصّفّة » لتقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م) . ولم يبق لدينا من مصدر موّسع عنهم غير ما ورد في « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م) ، ومعظم أخباره غير محققة ولا موثوق بها .

وقد وصف أبو نعيم مجمل حالهم فقال : « هم قومٌ أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض . وجعلهم قدوةً للمتجردين من الفقراء ، كما جعل من تقدم ذكرُهم أسوةً للعارفين من الحكماء . لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال . لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحون إلاّ بما

أيّدوا به من العقبي [1] » .

وخلاصة أمرهم أنهم كانوا أناساً فقراء ، يقتاتون من الطعام الذي يقدم إليهم من الميسورين من المسلمين في المدينة ، ولهذا أطلق عليهم لقب : « أضياف الإسلام » . وكان عددهم يزيد وينقص على حسب اختلاف الأوقات والأحوال « فربما تفرق عنها (أي عن الصُفّة) وانتقص طارقوها من الغرباء والقادمين فيقل عددهم . وربما يجتمع فيها واردوها من الورّاد والوفود فينضمّ إليهم فيكثرون . غير أن الظاهر من أحوالهم ، والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم ، وايثارهم القلة ، واختيارهم لها : فلم يجتمع لهم ثوبان ، ولا حضرهم من الأطعمة لونان ... عن أبي هريرة قال : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلّون في ثوب : فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من هو أسفل من ذلك ، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته ... عن واثلة بن الأسقع قال : كنتُ من أصحاب الصفة ، وما منا أحدٌ عليه ثوب تام ، قد اتخذ العرَق في جلودنا طوقاً من الوسخ والغبار [2] » . وكان النبي إذا أمسى وزعهم بين بعض الميسورين من أصحابه ليتولوا إطعامهم طعام العشاء .

وكانوا يمضون أوقاتهم في تفهم القرآن وتعلّمه وترديده مرتّلا مرنّماً (الكتاب نفسه ، جـ ١ ص ٤٣٢ س ٧) . فكان ثم من يقرأ عليهم القرآن ، ويتلو الأدعية ، ويذكر الله ، والباقون يرددون ذلك . وفي هذا المعنى — وإشارة إليهم — نزلت الآية الكريمة : « ولا تطرد الذينَ يَدْعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه » (سورة الأنعام ، ٥٢) . وكان السبب في نزول هذه الآية أن بعض كبار المؤلفة قلوبهم ، مثل الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري جاءوا إلى النبي وهو جالس مع بعض فقراء المسلمين من أهل الصّفة مثل أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي وبلال بن رباح وعمار

---

(١) أبو نعيم الأصفهاني : « حلية الأولياء » جـ ١ ص ٣٣٨ .
(٢) المرجع نفسه ، جـ ١ ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

بن ياسر وصهيب الرومي وخباب بن الأرتّ فقالوا للرسول : « إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلاً ، فإن وفود العرب تأتيك فتستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد . فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا ، فأقعدهم إن شئت » . ويظهر أن النبي وافقهم اولاً على هذا الرأي ، وهنالك نزل الوحي بالآيات : « ولا تَطْرُدْ الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وَجْهَه ، ما عليك مِنْ حسابهم من شيء وما مِنْ حسابهم عليهم من شيء ، فتطردَهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنّا بعضهم ببعضٍ ليقولوا : أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا ؟ ! أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلامٌ عليكم ! كَتَبَ ربُّكم على نفسه الرحمة ، إنه مَنْ عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم » (الأنعام ٥٢ — ٥٤) . فعاد النبيّ ولم يوافق على ما طلبه هؤلاء الكبار . وقد أشار الغزالي (« احياء علوم الدين ج ٤ الكتاب ٣٤) إلى هذا التعارض بين أهل الصفة والمؤلفة قلوبهم [1] .

وكان أهل بيت النبي يوالون أهل الصفة ، ويخالطونهم اقتداءً بالنبي : « فممّن كان يكثر مجالستهم ومخالطتهم ومجالسة سائر الفقراء في كل وقت : الحسن بن علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن جعفر ؛ يرون في محبّتهم إكمال الدين ، وفي مجالستهم إتمام الشرف ، مع ما كانوا يرجعون إليه من التشرف برسول الله ﷺ والانتساب إليه — اغتناماً لدعائهم ، واقتباساً من أخلاقهم وآدابهم » [2] .

---

(١) يرى ابن تيمية (« مجموعة الرسائل والمسائل » ج ١ ص ٣٩) أن هذه الآيات لم تنزل في أهل الصفة لأنها نزلت في مكة ، « وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة وقبل وجود الصفة » . وهذه حجج صحيحة إذ أن تلك الآيات نزلت في مكة ، على أساس أن سورة الأنعام نزلت كلها في مكة قبل الهجرة . لكن لا دليل قاطعاً على هذا .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ٣٤ .

ويظهر أنه قد تولدت عن أهل الصُّفّة في القرون المتأخرة أسطورة تنسب إليهم فضائل ومناقب بارزة أو خارقة :

١ — من ذلك ما أشار إليه ابن تيمية من ادعاء بعض المفترين « أن أهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج . وأن الله أمره أن لا يُعْلم به أحداً . فلما أصبح وجدهم يتحدثون به . فأنكر ذلك . فقال الله : « أنا أمرتك أن لا تُعْلم به أحداً ، لكن أنا الله أعلمتهم » . وهذه الدعوى كما لاحظ ابن تيمية بحق « كذب واضح ، فإن أهل الصفة لم يكونوا إلا بالمدينة . ولم يكن بمكة أهل صُفّة . والمعراج إنما كان من مكة ، كما قال سبحانه تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » [1] .

٢ — ومن ذلك تفضيل أهل الصفة على العشرة المبشرين بالجنة وهم : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، طلحة ، الزبير ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الرحمن بن عوف ، أبو عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن يزيد . وليس منهم من أهل الصفة إلا سعد بن أبي وقاص ، فقد قيل إنه أقام بالصفة مرةً [2] .

٣ — ومن ذلك أنهم كانوا يأخذون بالسماع وكان بينهم حاد ينشد القصائد الربانية بمصاحبة بعض الآلات الموسيقية : الدف أو الشبّابة ، الـخ [3] .

* * *

متى بدأت هذه الأسطورة تظهر أو ترسم قسماتها ؟

١ — إن أقدم مصدر لنا ذكر أهل الصفة ، هو « طبقات » ابن سعد

(١) ابن تيمية : « مجموعة الرسائل والمسائل » جـ ١ ص ٣٦ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٣٨ .

(المتوفى سنة ٢٣٠ هـ) — إذ ذكرهم في جـ ٢ قسم ٢ ص ١٣ وما يتلوها (نشرة سخاو) .

٢ — ويتلوه كتب الحديث — ونذكرها على التوالي :

أ — أحمد بن حنبل (المتوفى سنة ٢٤١ هـ = ٨٥٥ م) في « المسند » :

جـ ١ : ٢٠ ، ٧٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٥٧ ؛

جـ ٢ : ٥١٥ ؛

جـ ٣ : ٢٧٠ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ؛

جـ ٤ : ١٢٨ ؛

جـ ٥ : ٢٥٢ ، ٤٢٦ ، ٤٣٧ ؛

جـ ٦ : ١٨

ب — البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) : « الصحيح » :

كتاب الصلاة باب ٥٨

كتاب مواقيت الصلاة ، باب ٤١

كتاب البيوع ، باب ١

كتاب الحدود ، باب ١٧

كتاب المناقب ، باب ٢٥

كتاب الاستئذان : باب ١٤

كتاب الرقاق : باب ١٧

جـ — مُسْلِم بن الحجاج (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) « الصحيح » :

كتاب الأشربة ، حديث ١٧٦

كتاب النكاح ، حديث ٩٤
كتاب الامارة ، حديث ١٤٧

د — سنن « الترمذي » (المتوفى سنة ٢٧٩ هـ) :

كتاب الزهد ، باب ٣٩
كتاب القيامة ، باب ٣٦
كتاب التفسير ، سورة ٢ ، باب ٣٤

هـ — سنن أبي داود (المتوفى سنة ٢٧٥ هـ) :

كتاب الأدب ، باب ٩٥

و — سنن ابن ماجة (المتوفى سنة ٢٧٣ هـ) :

كتاب المساجد ، باب ٦

٣ — ويتلوها كتاب « اللمع » لأبي نصر السراج (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ) ص ١٣٢ — ١٣٤ ، نشرة نيكلسون ، ليدن سنة ١٩١٤ .

٤ — ثم الكلاباذي (المتوفى سنة ٣٨٠) في «التعرف على أهل التصوف» ، الباب الأول ص ٥ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ م

٥ — ثم أبو نعيم الأصفهاني (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) في « حلية الأولياء » جـ ١ ص ٣٣٧ — و جـ ٢ ص ١ — ص ٣٤ ، القاهرة .

٦ — ثم الهجويري (المتوفى سنة ٤٧٠ هـ تقريباً) في « كشف المحجوب » نشرة زوكوفسكي ، ص ٩٧ — ٩٩ .

٧ — ثم أبو حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) في « احياء علوم الدين » جـ ٣ ، ص ١٦٧ ، القاهرة ، سنة ١٢٨٩ هـ .

٨ — ثم أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) في

« تلبيس ابليس » ص ١٧٦ وما يتلوها ؛ القاهرة ، سنة ١٩٢٨ م ؛ ويلاحظ أنه لم يذكرهم في « صفة الصفوة » .

وليس في هذه المصادر كلها شيء من تلك الأسطورة . فإما أن تكون قد تكونت شعبياً بعد القرن السادس الهجري ، أو أن ابن تيمية اخترع هذه الأقاويل اختراعاً ، أو سمعها من أفواه بعض الناس دون أن تكون مسجّلة ، أو أنه أخذ بكلام السائل الذي سأله دون أن يتحقق من صدق السائل في دعواه في سؤاله أن ثم من يعتقد أن أهل الصفة أفضل من سائر الصحابة ، وينذر لأهل الصفة ، أو يدّعي أنهم تواجدوا على دُف أو شبّابة أو كان لهم حادٍ ينشد لهم أشعاراً ويتحركون عليها ويتواجدون .

— ٣ —

النوازع الصوفية عند بعض الصحابة

على أنّ بعض الصحابة ، ممن يُدْرَجون بين أهل الصفة أو ممن لا يدخلون في عدادهم ، قد امتازوا بسلوك حياة الزهد ، وحياة التقوى الشديدة ؛ وكانوا يُكْثِرون التأمّل والفكر والاعتبار ، ويدعون إلى الزهد في الدنيا والانصراف عن ملاذّها ونِعمَها ؛ ويؤكّدون جانب العبادة على جانب الفعل والمشاركة في الدولة والشئون السياسية .

وبهذا كانوا النواة الأولى لحركة الزهد في الإسلام . وسنقتصر على ذكر نماذج من هؤلاء الصحابة الذين نزعوا إلى الزهد والفكر ، وكانوا إرهاصاً للصوفية في عهدهم الزاهر .

— ٤ —

أبو الدرداء * (المتوفى سنة ٣٢ هـ)

أما أبو الدرداء فتميز بالتفكر والاعتبار ، حتى كان ذلك دأبه منذ أن فارق التجارة وانصرف إلى حياة العبادة .

لقد حاول أن يجمع بين التجارة والعبادة ، فلم يستقم له الأمر ، فرفض التجارة وأقبل على العبادة . ومَقَتَ الناسَ في جَنْب الله .

وله كلمات في العبادة والتقوى تدل على بلوغه قدماً راسخة في المعرفة الصوفية .

١ — ومن ذلك قوله : « اعبدوا الله كأنكم ترونه ؛ وعُدّوا أنفسكم من الموتى ؛ واعلموا أن قليلاً يغنيكم خيرٌ من كثير يلهيكم ؛ واعلموا أن البِرّ لا يبلى ، وأن الإثم لا يُنْسَى » (١)

والعبارتان الأوليان ستكونان من القواعد الأساسية عند الصوفية .

٢ — وليس الخير أن يكثر مالُك وولدك ، ولكنّ الخير أن يعظم حِلْمُك ويكثر علمك ، وأن تباري الناس في عبادة الله عز وجل ؛ فإن

---

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ١ ص ٢١٢ .

* راجع عنه « حلية الأولياء » لأبي نعيم جـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٢٧ ؛ « طبقات » ابن سعد ، جـ٧ ص ٣٩١ — ٣٩٣ ، طبع بيروت سنة ١٩٥٨ .

أحسنت حَمِدْتَ الله تعالى ، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل »[1] .

٣ — « لولا ثلاث خلال لأحببت أن لا أبقى في الدنيا . فقلت : وما هن ؟ فقال : لولا وضوع وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار يكون تَقْدِمةً لحياتي ، وظمأ الهواجر ، ومقاعدة أقوامٍ ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة . وتمام التقوى أن يتقي الله عز وجل العبدُ حتى يتقيه في مثل مثقال ذرةٍ ، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلالٌ ، خشية أن يكون حراماً ، يكون حاجزاً بينه وبين الحرام . إن الله تعالى قد بيّن لعباده الذي هو يصيرهم إليه . قال تعالى : « من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومَنْ يعمل مثقال ذرة شرّاً يره » . فلا تحقرنّ شيئاً من الشرّ أن تتقيه ، ولا شيئاً من الخير أن تفعله »[2] .

٤ — « تفكر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة »[3] .

٥ — « إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها ؛ وإنك لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناسَ في جنب الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشدّ مقتاً منك للناس »[4] .

٦ — « أعوذ بالله من علم لا ينفع ، ونفسٍ لا تشبع ، ودعاء لا يسمع »[5] .

٧ — وكتب إلى سلمان الفارسي ينصحه : « يا أخي ! اغتنم صِحّتك وفراغك قبل أن ينزل بك من البلاء ما لايستطيع العبادُ ردّه . واغتنم دعوة المُبْتَلَى . ويا أخي ! ليكن المسجد بيتك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن المساجد بيتُ كلّ تقيّ » . وقد ضمن الله — عز وجل ! —

(١) الموضع نفسه .
(٢) الموضع نفسه .
(٣) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٢٠٩ ؛ و « طبقات » ابن سعد جـ ٧ ص ٣٩٢ .
(٤) الكتاب نفسه ، جـ ١ ص ٢١١ .
(٥) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٢١٤ .

لمن كانت المساجد بيوتهم الروحَ والراحة والجواز على الصراط إلى رضوان الرب عز وجل . ويا أخي ! ارحم اليتيم وأدْنِه وأطْعِمه من طعامك ، فإني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول — وأتاه رجلٌ يشتكي قساوة قلبه — فقال له رسول الله ﷺ : أتحب أن يلين قلبك » ؟ فقال : نعم ! قال : « أدْنِ اليتيم منك ، وامسَحْ رأسه ، وأطعمه من طعامك ؛ فإن ذلك يليّن قلبك ويقدرك على حاجتك » .

ويا أخي ! لا تجمع ما لا تستطيع شكره ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بصاحب الدنيا ، يوم القيامة ، الذي أطاع الله تعالى فيها وهو بين يدي ماله ، وماله خلفه ، كلّما تكفّأ به الصراط قال له ما له : امْضِ فقد أدّيت الحق الذي عليك . قال : ويجاء بالذي لم يُطِع الله فيه ، وما له بينَ كتفيه فيعثّره ماله ، ويقول له : ويلك ! هلاّ عملت بطاعة الله — عز وجل — فيّ ؟ فلا يزال كذلك حتى يدعو بالويل » .

ويا أخي ! إني حُدّثتُ أنك اشتريت خادماً . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لا يزال العبد من الله ، وهو منه ، ما لم يُخْدَم . فإذا خُدِم ، وَجَبَ عليه الحساب » . وإنّ أم الدرداء سألتني خادماً — وأنا يومئذٍ موسر — فكرِهتُ ذلك لما سمعت من الحساب. ويا أخي ! من لي ولك بان نوافي يومَ القيامة ولا نخاف حساباً ؟ ! ويا أخي لا تغترن بصحابة رسول الله ﷺ ، فإنّا قد عشنا بعده دهراً طويلا ، والله أعلم بالذي أصبنا بعده »[1]

٨— « لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل »[2]

---

(٢) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٣) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٢١٦ . والجملة الأخيرة منسوبة أيضاً إلى أبي ذر الغفاري في الكتاب نفسه جـ ١ ص ١٦٤ .

وهذه المعاني كلها صوفية ، وتمثل نموذجاً متقدماً لوعظ الصوفية ، ممـــا سنراه ابتداءً من الحسن البصري . والجملة الأخـــيرة حافلة بمعنى الايثار ، وسنرى نظائر لها عند بعض كبار الصوفية .

ويورد أبو نعيم طائفة غير قليلة من هذه المواعظ التي تدعو إلى التفكير في أمر الدنيا والاعتبار بما جرى لأهلها . وفيها ينعي على جماعي المال خصوصاً . وكثيراً ما يدعو إلى الاتعاظ بالموت، وإلى تحمل الآلام زيادة في التقوى، ومن ذلك قوله :

٩ــ « أحِبُّ الموتَ اشتياقاً إلى ربي ، وأحِبُّ الفقر تواضعاً لربي ، وأحِب المرض تكفيراً لخطيئتي [١] »

١٠ ــ « قيل له : ما تحبُّ لمن تحبُّ ؟ قال : الموت . قالوا : فإن لم يمتْ ؟ قال : يقلُّ ماله وولده » [٢] .

١١ــ « قال أبو الدرداء : ما بتُّ فيها ليلةً سَلمتُ فيها لم أرم فيها بداهية ، ولا أصبحتُ يوماً سلمتُ فيه لم أرم فيه بداهية ، إلاّ عرفت عافية عظيمة [٣] » .

وكان يرى أن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وفي هذا قال :

١٢ ــ « التمسوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وسَلُوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم [٤] » .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٢١٧ ؛ « طبقات » ابن سعد جـ ٧ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(٢) « طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٣٩٣ .
(٣) « الحلية » جـ ١ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٤) « الحلية » جـ ١ ص ٢٢١ .

وخرج أبو الدرداء إلى الشام ، فنزل بها إلى أن مات . ومن مواعظه في أهل دمشق :

١٣- « معشر أهل دمشق الا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تبلغون . وقد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ، ويأملون فيطيلون ، ويبنون فيوثقون . فأصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً . هذه « عاد » قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالا وأولاداً . فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين ؟ » [1]

١٤ - وكان كثيراً ما يتردد على الخرابات، ويقول : «يا خرب الخربين ! أين أهلك الأولون ؟ ! » [2]

وكان يرى أن أفضل الأمور أن لا يزال اللسان رطباً من ذكر الله .

١٥- « نعم صومعة المؤمن منزلٌ يكفُّ فيه نفسه وبصره وفرجه . وإياكم والجلوس في هذه الأسواق فإنها تلغي وتلهى [3] » .

---

(١) « الحلية » جـ ١ ص ٢١٧ - ٢١٨ .
(٢) الموضع نفسه .
(٣) الجاحظ : « البيان والتبيين » جـ ٣ ص ٨٨ ، نشرة السندوبي ط ٢ القاهرة سنة ١٩٣٢ . وتلغى : أي تدعو إلى قول اللغو والباطل .

— ٥ —

أبو ذرّ الغفاري *
(المتوفى سنة ٣١ هـ)

« كان أبو ذر يتأله في الجاهلية ويقول : لا إله إلاّ الله ، ولا يعبد الأصنام»[١]

وكان شجاعاً تام الشجاعة سواء في عهد النبي وبعده .

وقد جعل ناموسه في السلوك ما أوصاه به النبي . يقول أبوذَرّ : « أوصاني خليلي (يعني النبي ﷺ)بسبع : أمرني بحبّ المساكين والدنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » فإنهن من كنز تحت العرش » . [٢]

وكان صادقاً في لهجته ، حتى روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما اظلت الخضراء ولا أقلّتْ الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبي ذر . من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر [٣] » .

(*) راجع ترجمته في « طبقات » ابن سعد جـ ٤ ص ٢١٩ — ٢٣٧ ، بيروت سنة ١٩٥٧ ؛ وفي « حلية الأولياء » لأبي نعيم جـ ١ ص ١٥٦ — ١٧٠ ، القاهرة .

(١) « طبقات » ابن سعد ، جـ ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٤ ص ٢٢٩ .

(٣) الكتاب نفسه جـ ٤ ص ٢٢٨ .

وأبرز ما يذكر لأبى ذر حملته الشديدة الجريئة على من يكتنزون الذهب والفضة من المسلمين ، وقد هيأت لهم الفتوح في الشام والعراق الأموال الطائلة . ويظهر أنه بدأ هذه الحملة وهو في الشام ، فاختلف مع معاوية في ذلك ، واحتكما إلى الآيتين : « والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » (التوبة ٢٤ — ٢٥) : فقال معاوية ان هذه الآية نزلت في أهل الكتاب وحدهم ، وقال أبو ذر : « نزلت فينا وفيهم ». فحدثت مشادة بينهما . وكتب معاوية إلى عثمان يشكو أبا ذر وما يثيره من فتنة بين الناس بدعوته هذه . فكتب عثمان بن عفان إلى أبى ذر ليقدم إلى المدينة . يقول أبو ذر:

« فقدمت المدينة ، وكثر الناسُ عليّ ، كأنهم لم يروني قبل ذلك . . . فذكر ذلك لعثمان فقال لي : إن شئت تنحّيت فكنت قريباً [1] » . فذهب أبو ذر إلى الرّبذة — وكانت قرية على مسافة ثلاثة أميال من المدينة ، بالقرب من ذات عِرْق على طريق الحجاز إذا رحلت من منى تريد مكة ، وقد خربها القرامطة سنة ٣١٩ هـ . وهدده بنو أمية بالقتل . فقال: « إن بني أمية تهددني بالفقر والقتل . ولبطن الأرض أحبُّ إلى من ظهرها . وللفقر أحبُّ إليَّ من الغنى » [2] . وظل في منفاه بالربذة ليس معه إلا أمراته وغلامه ، حتّى مات هناك سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) .

ومن كلماته في هذا المعنى قال : « إن خليلي — صلى الله عليه وسلم — عهد إليّ أن أي مال ذهب أو فضة أوكيء عليه فهو جمر على صاحبه حتّى يفرغه في سبيل الله [3] » . وقال أيضاً : « ليس من وعى ذهباً أو فضة يوكى عليه إلا

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٤ ، ص ٢٢٦ . وقد ذهب أبو ذر إلى الشام وأقام في دمشق منذ سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) .

(٢) « الحلية » لأبي نعيم جـ ١ ص ١٦٢ .

(٣) « الحلية » جـ ١ ص ١٦٢ ؛ « طبقات » ابن سعد جـ ٤ ص ٢٢٩ .

وهو يتلظى على صاحبه[1] » .

ولما قدم عليه أبو موسى الأشعري كان أبو ذر يتجنبه ، لأن الأشعري قد صار والياً . ولما سأله : هل تطاولت في البناء : أو اتخذت زرعاً أو ماشية ، قال الأشعري لا ، فرحب به أبو ذر وقال له : أنت أخي ، أنت أخي[2] .

(۱) « طبقات » ابن سعد جـ ٤ ص ٢٣٠ .
(۲) الموضع نفسه .

— ٦ —

عمران بن الحصين الخزاعي
(المتوفي سنة ٥٢ هـ)

وكان من أشد أصحاب النبي اجتهاداً في العبادة [١] ، ومن أشد الناس صبراً على الآلام ، فقد أصيب بداء الاستسقاء في بطنه وعـــاش يتألم من ذلك ثلاثين سنة . وعرض عليه أن يكوى ليبرأ منه ، فأبى حتى كان قبل وفاته بسنتين فاكتوى ، فلم يفلح فيه الكيّ وقال : « اكتوينا ، فما أفلحن ولا أنجحن » يعني المكاوى [٢] . وزعم أنه منذ أن اكتوى ، تنحّتْ عنه الملائكة ، إذ زعم أن الملائكة كانت قبل ذلك تصافحه وهو في محنته تلك . فلما اكتوى تنحّت [٣] . قال فيما رواه مطرف : « أشعرتُ أنه كان يسلم علي . فلما إكتويت ، انقطـــع التسليم . فقلت (أي مطرف) : أمِنْ قبل رأسك كان يأتيك التسليم ، أو من قبل رجليك ؟ قال : لا ، بل من قبل رأسي . فقلت : لا أرى أن تموت حتى يعود ذلك . فلما كان بعد قال لي : أشعرتُ أن التسليم عاد لي . قال : ثم لم يلبث إلاّ يسيراً حتى مات [٤] » . وقال أيضاً إنه كان يسمع سلام الملائكة من نواحي البيت .

---

(١) الحاكم النيسابوري : « المستدرك » جـ ٣ ص ٤٧١ .
(٢) « طبقات » ابن سعد جـ ٤ ص ٢٨٩ ، بيروت سنة ١٩٥٧ م .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٤ ص ٢٨٨ .
(٤) الكتاب نفسه جـ ٤ ص ٢٨٩ .

ويظهر ان حاله بسبب هذا الداء كان سيئاً يثير جزع أصحابه ، حتى لم يعد أحدٌ يعوده . ثم عاده مطرف واعتذر له قائلا : «ما يمنعني من عيادتك إلاّ ما أرى من حالك . » فقال عمران : « لا تفعل ، فإن أحبَّه إليّ أحبُّه إلى الله [1] ».

وبلغ من شدّة تحرجه وورعه أن عبيد الله بن زياد عينه قاضياً . «فاختصم إليه رجلان ، قامت على أحدهما البينة فقضى عليه . فقال الرجل : قضيت عليّ ولم تأل ، فوالله إنها لباطل . » فاستغفر الله وأسرع « فدخل على عبيد الله بن زياد ، وقال : اعزلني عن القضاء . قال : مهلا يا أبا النجيد . قال : لا والله الذي لا إله إلا هو ، لا أقضي بين رجلين ما عبدتُ الله [2] » .

ومن كلماته الحافلة بالمعاني قوله : « وددت أني رمادٌ تذروني الرياح [3] » .

وكان مجاب الدعوة

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) الكتاب نفسه ، جـ ٤ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن الأثير : « أسد الغابة في معرفة الصحابة » جـ ٤ ص ١٣٨ .

— ٧ —

أويس القرني
(المتوفى سنة ٣٧ هـ)

وهنا نصل إلى شخصية غريبة عاشت في عهد النبي ، ولكن لم يكن لها شرف صحبة النبي — وهو أويس بن عامر القرني . والأخبار حوله تمعن فيها الأسطورة إلى حد بعيد . وأقدم مصادرنا الواسعة في ترجمته ابن سعد في طبقاته حـ٦ (١٦١ — ١٦٥) وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) حـ٢ ص ٧٩ — ٨٧ (القاهرة ، سنة ١٩٣٢ م) . وعنهما أخذ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في « صفة الصفوة » (حـ٣ ص ٢٢ — ٣٠ (حيدر آباد) سنة ١٣٥٦ هـ) . ثم نمى الأسطورة وزوّقها بخياله الشعري فريد الدين العطار في تذكره الأولياء حـ١ ص ١٥ — ٢٤ (نشرة نيكلسون ، ليدن سنة ١٩٠٥) ، وان كان قد استمد مادته الرئيسية من حلية الأولياء . »

كان أويس من اليمن ، من بني مراد ، وكان به برص ، فبرىء منه إلاّ موضع صغير في سعة الدرهم . وكان شديد الفقر والتقشف ، أشعث ، أغبر . وقد « ظنه أهله أنه مجنون فبنوا له بيتاً على باب دارهم . فكانت تأتي عليه السنة والسنون لا يرون له وجهاً . وكان طعامه مما يلتقط من النوى . فإذا أمسى

* وضعت في القرون المتأخرة كتب في « مناقب » أويس القرني ، نذكر منها « مناقب أويس » تأليف لامعي ، راجع فهرس ريو Rieu لمخطوطات المتحف البريطاني .

باعه لافطاره . فإن أصاب حشفة حبسها لافطاره . » [1]

وظل على هذا الفقر والتقشف حتى بعد أن أقام بالكوفة . وكان أصحابه لذلك يسخرون منه ويؤذونه ، فحمله ذلك على التزام بيته .

وهو الذي آثر ذلك الفقر ، وكان في وسعه أن يعيش عيشة مقبولة . فحين كان بعض الناس يهدونه ثوباً ، كان «يتصدق بثيابه حتى يجلس عرياناً ، لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة » [2] ، أي لا يجد ما يلبسه ليحضر صلاة الجمعة . ولما لقي عمر بن الخطاب ، وحاول أن يساعده ، هرب من المدينة وذهب إلى الكوفة .

وأمضى أوقاته في الخشية من الله . ذكر الشعبي قال : « مرّ رجل من مراد على أويس القرني فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحمد الله — عز وجل . قال : كيف الزمان عليك ؟ قال : كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي ، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح : فمبشر بالجنة ، أو مبشر بالنار . يا أخا مراد ! إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرحاً ، وإنّ علمه [بحقوق الله لم يترك له فضة ولا ذهباً . وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقاً [3] » .

ويتأكد هذا المعنى بخبر آخر يرد فيه أنه قال : « أصبحت أحبّ الله وأمسيت أحمد الله . وما تسأل عن حال رجل إذا هو أصبح ظنه أن لا يمسى ، وإذا أمسى ظنه أنه لا يصبح . إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحاً . وإن حقّ الله في حال المسلم لم يدع له من ماله فضة ولا ذهباً . وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع للمؤمن صديقاً . نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا ، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين ، حتى والله لقد رموني بالعظائم . وأيمُ الله لا أدع أن اقوم لله فيهم بحقه » (الموضع نفسه) .

---

(١) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » جـ ٣ ص ٢٥ . حيدر أباد الدكن ، سنة ١٣٥٦ هـ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٣ ص ٢٨ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٣ ص ٢٨ .

فهو إذن كان يدعو إلى التصدق بالأموال وعدم اكتنازها ، تماماً كما كان يدعو أبو ذر الغفاري ، ولهذا لقي من الناس والولاة مالقيه هذا الأخير .وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فلم يترك له ذلك صديقاً ، بل كان الناس يشتمونه ، ويعينهم على ذلك الفاسقون من الولاة ، والأغنياء . ورموه من أجل ذلك بعظائم الأمور .

وكان يتصدق بكل ما يصل إليه – وهو قليل جداً . « كان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب . ثم يقول : اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به . ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به » (الكتاب نفسه حـ٣ ص ٢٨ – ٢٩) . وكان يضرع إلى الله شاكياً من كونه لا يستطيع اسعاف الجائعين. كان يقول : « اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبدٍ جائعة ، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلاّ ما في بطني . وليس في بيتي شيء من الرياش إلاّ ما على ظهري[1] » وكان على ظهره خرقة قد تردى بها .

وكان في الكوفة يعظ الناس ، فيقع وعظه وحديثه موقعاً لا يقع حديث غيره موقعه .

* * *

وهنا نصل إلى رواية أغلب الظن أنها منحولة ، وهي تلك التي تدور حول علاقته بالنبي ﷺ ، ثم بعمر بن الخطاب .

والرواية الأساسية هي عن أبي هريرة أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – إن الله – عز وجل – يحبُّ من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤسهم ، المغبرة وجوههم ، الخمصة بطونهم ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا ، وإن غابوا لم يفتقدوا ، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا لم يعادوا ، وإن ماتوا لم يشهدوا .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٣ ص ٢٨ .

قيل : يا رسول الله ! كيف لنا برجل منهم ؟ قال : ذلك أويس القرني . قالوا : وما أويس القرني ؟ قال : اشهل ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم شديد الأدمة ، ضارب بذقنه إلى صدره ، رام ببصره إلى موضع سجوده ، واضعٌ يمينه على شماله ، يتلو القرآن ، يبكي على نفسه ، ذو طمرين لا يؤبه له ، متزرٌ بازار صوف ، مجهول في أهل الأرض ، معروف في السماء ، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه . الا وإن تحت منكبه الأيسر لمعةً بيضاء . ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد : ادخلوا الجنة . ويقال لاويس : قف فاشفع ، فيشفعه الله — عز وجل ! — في مثل ربيعة ومضر . يا عمر ! يا عليّ ! إذا انتما لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما ، يغفر الله لكما .

« قال : فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عايه . فلما كان في آخر السنة التي هلك فيها عمر ، قام على أبي قبيس فنادى بأعلى صوته . يا أهل الحجيج من اليمن ! أفيكم أويس ؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية ، فقال : أنا لا أدري ما أويس . ولكن ابنُ أخٍ لي يقال له أويس ، وهو أخمل ذكراً وأقل حالا وأهون أمراً من أن نرفعه إليك . وإنه يرعى إبلنا . خفير بين أظهرنا . فعمى عليه عمر كأنه لا يريده ، وقال : ابن أخيك هذا أبحَرَمنا هو ؟ قال : نعم ! قال : أين يُصاب ؟ قال : بأراك عرفات . قال : فركب عمر وعليٌّ سراعاً إلى عرفات ، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة ، والإبل حوله ترعى . فشدّ احماريهما ، ثم أقبلا إليه ، فقالا : « السلام عليك ورحمة الله ! » فخفف أويس الصلاة ، ثم قال : السلام عليكما ورحمة الله . قالا : من الرجل ؟ قال : راعى إبل وأجير قومٍ . قالا : لسنا نسألك عن الرعاية ولمن الاجارة ، ما اسمك ؟ قال : عبد الله ! قالا : والأرض كلهم عبيد الله ، ما اسمك الذي سمّتك أمُّك ؟ قال : يا هذان ، ما تريدان إليّ ؟ قالا : وصف لنا محمد صلى الله عليه وسلم — أويساً القرني : فقد عرفنا الصهوبة والشهولة ، وأخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء فأوضحها لنا ، فإن كانت بلك ، فأنت هو . فاوضح منكبه ، فإذا اللمعة ، فابتدراه يقبلانه وقالا : نشهد أنك أويس القرني ، فاستغفر لنا يغفر الله لك . قال : ما أخصّ

باستغفاري نفسي ولا أحداً من ولد آدم ، ولكنه في البر والبحر ، في المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . يا هذان ! قد شهد الله لكما حالي ، وعرّفكما أمري ، فمن أنتما ؟ قال عليٌّ — عليه السلام : أمّا هذا فعمر أمير المؤمنين ، وأمّا أنا فعليّ بن أبي طالب . فاستوى أويس قائماً وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وأنت يا عليّ بن أبي طالب، فجزاكما الله عن هذه الأمة خيراً . قالا : وأنت فجزاك الله عن نفسك خيراً . فقال له عمر : مكانك ، يرحمك الله، حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة من عطائي وفضل كسوة من ثيابي . هذا المكان ميعاد بيني وبينك . قال : يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك . لا أراك بعد اليوم . فعرفني ما أصنع بالنفقة ، وما أصنع بالكسوة؟ أما ترى عليّ إزاراً من صوف ، ورداء من صوف ، متى تراني أخرقهما ؟ أما ترى أن نعلي مخصوفتان — متى تراني أبليتهما ؟ ! إني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم — متى تراني آكلها ؟ ! يا أمير المؤمنين إن بين يديّ ويديك عقبةً كؤوداً لا يجاوزها إلاّ ضامرٌ مخفٌّ مهزول . فأخفف — رحمك الله ! » فلما سمع عمر ذلك ضرب بدرته الأرض ، ثم نادى بأعلى صوته : الاليت عمر لم تلده أمه ! يا ليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها . الا من يأخذها بما فيها ولها . » ثم قال (أي أويس) : « يا أمير المؤمنين ! ! خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا ها هنا . فولى عمر ناحية مكة . وساق أويس إبله ، فوافى القوم بابلهم ، وخلى عن الرعاية ، وأقبل على العبادة ، حتى لحق بالله عز وجل » [1] .

هذه الرواية بهذا الطول والتفصيل ، إنما نجدها عند أبي نعيم في « الحلية » وعنه نقلها فيما يبدو — ابن الجوزي في « صفة الصفوة » . أما ابن سعد في «طبقاته » (حـ٦ ص ١٦٢ — ١٦٤) فيورد مغزاها ومفاصلها الرئيسية دون سائر التفاصيل . فيذكر أن عمر بن الخطاب قال لأويس : استغفر لي ، قال : كيف

(١) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » جـ ٣ ص ٢٣ — ٢٥ ؛ « حلية الأولياء » لأبي نعيم جـ ٢ ص ٨١ — ٨٣ .

استغفر لك وأنت صاحب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : سمعتُ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : إنّ خير التابعين رجلٌ يقال له أويس [1] » . كما يذكر عن سلامّ بن مسكين عن رجل (لم يحدده) أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خليلي من هذه الأمّة أويس القرني » .
(الموضع نفسه حـ٦ ص ١٦٣) .

ولو فحصنا هذه الرواية لوجدناها متهافتة :

ا ــ أولا لأن تعبير « التابعين » متأخر جداً عن عهد الرسول ، بل وعهد الخلفاء الراشدين ، وربما لم يعرف إلاّ في أوائل الخلافة العباسية . وليس من المعقول أن يكون النبي قد استعمله .

ب ــ ثانياً يرد في الرواية الموسّعة عند ابن سعد ، وابى نعيم وابن الجوزي أن النبي وصفه وصفاً تاماً وأنه كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ــ مع أنه وارد في نفس المصادر أنه لم يلق النبيّ ، ولهذا لم يعد صحابياً ، وقيل إن سبب عدم قدومه على النبي أنه لم يشأ مفارقة أمّه وكان شديد البر بها . فمن أين عرف النبي كل هذه المعلومات المفصّلة عن أويس ؟ هل علم ذلك من بعض وفود بني مراد الذين وفدوا على النبي ؟ من الصعب أن نصدق هذا ، لأنه ورد في نفس الرواية أنه كان رجلا زرياً لا يأبه به أحدٌ من قومه ، فماذا يدعوهم إلى ذكره عند النبي !

حـ ــ وثالثاً مسألة بحث عمر عنه بين وفود اليمن ، ثم ما زعم من ذهابه بنفسه وعلياً بن أبي طالب للبحث عنه ، وما دار بينهم من حديث ــ كل هذا غير معقول ولا ممكن أن يقع .

---

(٢) « طبقات » ابن سعد جـ ٦ ص ١٦٣ . بيروت سنة ١٩٥٧ .

لهذا نرى أن تفاصيل هذه الرواية غير صحيحة . لكن هل يدعونا هذا إلى أن نستنتج أن شخصية أويس كلها اسطورية ؟

من الصعب أيضاً أن ننتهي إلى هذه النتيجة ، إذ من غير المحتمل أن يكون ابن سعد (المتوفى سنة ٢٣٠ هـ) قد اخترع وجوده اختراعاً ولا نعرف في ما ذكره ابن سعد من أشخاص : من صحابة وتابعين وتابعي تابعين أن بينهم شخصاً مخترعاً اختراعاً . ولهذا نرى أن الشك لا ينبغي أن يتناول وجود[1] أويس القرني ، بل ما ورد عنه من أخبار تتعلق بذكر النبي له وتوصية عمر وعلياً به وربما أيضاً كل ما يتعلق بلقاء عمر له واحاديثه معه .

وتبقى بعد ذلك صورة زاهد فقير اشعث أغبر ، ورد الكوفة ، وكان يعظ الناس داعياً إياهم إلى العزوف عن المال وإلى التزام المعروف ، وأن هذا الوعظ جرّ عليه سخط الساخطين .

أما الأقوال المنسوبة إليه ، فإلى جانب ما أوردناه مما ذكره ابن سعد وأبو نعيم وابن الجوزي ، نجد فريد الدين العطار ينسب إليه الأقوال التالية :

١ـ « من عرف الله لا يخفى عليه شيء »

٢ـ « السلامة في الوحدة »

٣ـ « عليك بقلبك »

٤ـ « طلبتُ الرفعة فوجدتها في التواضع ، وطلبتُ الرئاسة فوجدتها في نصيحة الخلق ، وطلبت المروءة فوجدتها في الصدق ، وطلبتُ الفخر فوجدته في الفقر ، وطلبت النسبة فوجدتها في التقوى ، وطلبت الشرف فوجدته في القناعة ، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد » .

---

(١) يقول ماسينيون (« بحث في نشأة المصطلح » ... ص ١٦٣) إن الامام مالك شك في وجود أويس ، لكنه لا يذكر مصدره في ذلك .

وهذه الأقوال كلها تتفق مع ما ذكرناه من سلوكه ، فإن لم يكن قد قالها بنصها فإنه يقرّ معناها . وقد اختلف في سنة وفاة أويس القرني ، فقال بعضهم إنه قتل وهو يحارب في صف جيش علي بن أبى طالب (رضى الله عنه) في صفين سنة ٣٧ هـ . وقد ذكر ابن سعد (حـ٦ ص ١٦٣) أنه اشترك في معركة صفين ومن بعده ذكر ذلك الطبري (السلسلة الثالثة حـ٤ ص ٢٤٧٦ ، نشرة دى خويه ، ليدن)

الفصل الثالث

الحسن البصري وأصحابه

– ١ –

الحسن البصري

(المتوفى سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م)

لكنّ أول شخصية بارزة في الزهد نعثر عليها في الإسلام هي شخصية الحسن البصري ، الذي يعد من أنبل وأعظم الشخصيات الدينية في تاريخ الإسلام « وكان الحسن جامعاً عالماً عالياً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً ، كبير العلم ، فصيحاً جميلاً وسيماً »[1] . ولهذا كان رفيع المنزلة في عصره سواء بين الساسة (الأمويين) وبين العلماء . وكان واعظاً من الطراز الأوّل ، ولهذا لا يخلو أيّ كتاب من كتب الأدب من اقتباسات من كلامه ومواعظه .

وأبوه كان اسمه الأصلي پيروز ، مما يؤذن بأنه كان ايرانيّاً . ثم سبي في مَيْسان[2] لما سقطت هذه الناحية التي كانت تقع في أسفل البصرة – في أيدي المسلمين لدى فتح العراق . ونُقِل من بين الأسرى إلى المدينة المنوّرة . وهنا

(١) « طبقات » ابن سعد جـ ٧ ص ١٥٧ ، بيروت سنة ١٩٥٧ .

(٢) قال ياقوت في « معجم البلدان » جـ ٥ ص ٢٤٢ (طبع بيروت ١٩٥٧) : « ميسان : بالفتح ثم السكون والسين مهملة وآخره نون : اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان » . وقد فتحت في أيام عمر بن الخطاب . فولاها النعمان بن عدي . وقسم من هذه الكورة موجود الآن في ايران باسم دشت ميشان ، وهي شهرستان (= مركز) من مركز ولاية خوزستان ، مساحتها عشرة آلاف كم ، وتقع بين خط طول ٤٧ درجة و ١٥ دقيقة وحتى خط طول ٤٨ درجة و ١٨ دقيقة . وكان أكثر سكان ميسان فارسياً أيام الفتح .

تختلف الرواية : ففي رواية أن الرُّبَيِّع بنتَ النّضْر ، عمّة أنَسَ بن مالك ، اشترته وأعتقته ؛ وفي رواية أخرى أنه « ذكر عن الحسن أنه قال : كان أبواي لرجلٍ من بني النّجار ؛ وتزوّج (هذا) امرأةً من بني سَلَمة من الأنصار . فساقهما إليها من مَهْرها ، فأعتقتهما » . وفي رواية ثالثة أن أمّ الحَسَن كانت مولاةً لأمّ سَلَمة ، زوجة النبي ﷺ ، وكان اسمها خَيْرة . وهنا « يذكرون أن أمّه كانت ربما غابت ، فيبكي الصّبيّ ، فتعطيه أمُّ سَلَمة ثديها تعلّله به إلى أن تجيء أمّه . فدرّ عليها ثديها فشربه . فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك » (« طبقات ابن سعد » ج ٧ ص ١٥٧ ؛ ونقله ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٤ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م) . وواضح أن هذه الرواية غير صحيحة ، لأن أمّ سلمة ، زوجة النبي ، لم تلد فكيف لها أن يدرّ ثَدْيُها لبنا ؟! لقد اختُرِع هذا الخبر لتفسير مصدر فصاحة الحسن ؛ ولكنه غير معقول ، لا هو ولا ما أضافه العطار [1] .

وكان مولد الحسن البصري في المدينة في سنة ٢١ هـ أو سنة ٢٢ هـ (سنة ٦٤٢ م / ٦٤٣ م) ، والأرجح هو التاريخ الثاني لأنه « كان للحَسَن يوم قُتِل عثمان — رضي الله عنه — أربع عشرة سنة » .

ونشأ الحسن بوادي القُرى . ثم عاد إلى المدينة المنوّرة في سنة ٣٧ هـ . ثم وغادرها سنة ٣٨ هـ إلى البصرة . واشترك الحسن طوال ثلاث سنين في غزو كابل الأندقان والأندغان وزابلستان وكُلُّها في شرقيّ إيران . وذلك في سنة ٤٣ هـ (سنة ٦٦٣ م) وكان كاتباً للبديع بن زياد الحارثي بخراسان[2] . وبعد ذلك عاد إلى البصرة واستقر بها .

وتولى القضاء فكان « لا يأخذ على قضائه أجراً » (« طبقات » ابن سعد ج ٧ ص ١٧٢) ثم استعفى .

---

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ٢٤ .

(٢) « المحبر » لمحمد بن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) ص ٣٧٨ . حيدر آباد ، سنة ١٩٤٢ م .

أما موقفه السياسي فكان موقف المتباعد عن السياسة واضطراباتها ، خصوصاً وقد عاش في عصر الحجّاج بما عرف عنه من بطش شديد . فلما قام ابن الأشعث بثورته المشهورة في سنة ٨١ هـ ضد الأمويين ممثلين في الحجاج ، وانبرى الحجاج لقتاله وإخماد فتنته ، دعا بعضُ الناس الحسن إلى الاشتراك معهم في صف ابن الأشعث ، وقالوا له في شأن الحجاج : « يا أبا سعيد ! ما تقول في قتال هذا الطاغية (= الحجاج) الذي سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترَكَ الصلاة ، وفعَلَ وفعَلَ ؟ ... وذكروا مِنْ فِعْل الحجاج ... فقال الحسن : أرى أن لا تقاتلوه ، فإنّها إن تكن عقوبةٌ من الله فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيافكم ؛ وإن يكن بلاءٌ فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » [1] .
وكان الحسن البصري ينهى عن الخروج على الحجاج ويأمر بالكفّ عن الثورة ضده ، ويدعو إلى مقابلة مظالم الحجاج بالسكينة والتضرّع . وهو يفسّر موقفه في موضع آخر . وذلك أنه « قيل للحسَن (البصري) : ألا تدخل على الأمراء ، فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ؟ قال (الحسن) : ليس للمؤمن أن يُذِلّ نفسه . إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا : إذا تكلّمنا قالوا بسيوفهم هكذا — ووصف لنا بيده ضرباً » [2] . فهو يعلم إذن أنه لا حيلة لصاحب الرأي أمام سيف الطغاة . إنهم لا يقابلون الحجة بالحجة ، بل بالسيف والقهر والبطش والعذاب . وحين سئل عن رأيه في الموقف الذي ينبغي للمسلم أن يقفه من الفتنة ، مثل فتنة يزيد ابن المهلّب وفتنة ابن الأشعث ، كان يقول : لا تكُنْ مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء . فلما سئل : ولا مع أمير المؤمنين ؟ فغضب وقال : نعم ، ولا مع أمير المؤمنين [3] . أي أنه كان يدعو إلى اعتزال السياسة كلها .

وظل على تلك الحال من تجنب الخلفاء والولاة حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩ — ١٠١) أعدل خلفاء بني أمية وأشبه الخلفاء بعمر بن الخطاب

(١) « طبقات » ابن سعد جـ ٧ ص ١٦٣ — ١٦٤ ، بيروت سنة ١٩٥٧ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٧ ص ١٧٦ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٧ ص ١٦٤ .

فعدل عن سياسة تجنب الخلفاء ؛ ويظهر أن عمر بن عبد العزيز هو نفسه الذي بدأ بالاتصال به ، وكان الحسن البصري آنذاك في أوج مكانته الدينية والعلمية والاجتماعية . وهنا نلتقي بعدد كبير من الرسائل التي كتب بها الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يعظه وينصحه ، وقد أورد قسماً كبيراً منها ابن الجوزي في كتابه : « سيرة عمر بن عبد العزيز » وكتابه عن « الحسن البصري » [1] — نذكر منها ما يلي :

١ — رسالة في صفة الإمام العادل (« سيرة عمر بن عبد العزيز » ص ١٢١)

٢ — رسالة في ذمّ الدنيا (ابن الجوزي : « الحسن البصري » ص ٥٤)
٣ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ابن الجوزي : « الحسن البصري » ص ٥٥)
٤ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ابن الجوزي : « الحسن البصري » ص ٥٦)
٥ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (« ابن الجوزي : « الحسن البصري » ص٥٤)
٦ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ان الجوزي : « سيرة عمر بن عبد العزيز » ص ١٢٤)
٧ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ابن الجوزي : « سيرة عمر بن عبد العزيز » ص ١٢٤)
٨ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ابن الجوزي : « سيرة عمر بن عبد العزيز » ص ١٢٤)
٩ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ابن الجوري : « سيرة عمر بن عبد العزيز » ص ١٢٤)
١٠ — رسالة صغيرة في وعظ عمر (ابن الجوزي: « سيرة عمر ن عبدالعزيز » ص ١٢٦)
١١ — رسالة صغيرة إلى عمر يُعزيه في ابنه عبد الملك(العقد الفريد ج٢ص٣٣)

---

(١) ابن الجوزي : « آداب الحسن البصري » ، القاهرة سنة ١٩٣١ .

١٢ — رسالة طويلة إلى عمر بن عبد العزيز في الزهد (أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٢ ص ١٣٤ — ١٤٠)

لكنّ الأهم من هذه الرسائل هو مواعظه . ونجد منها مختارات في :

١ — أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٢ ص ١٣٢ — ١٣٤ ، ص ١٤٠ — ١٥٩

٢ — الجاحظ : « البيان والتبيين » — انظر فهرسه

الجاحظ : « الحيوان » — انظر فهرسه

٣ — المبرد : « الكامل » — انظر فهرسه

٤ — ابن قتيبة : « عيون الأخبار » — انظر فهرسه

٥ — العطار : « تذكرة الأولياء » جـ ١ ص ٢٤ — ٤٠ نشرة نكلسون ؛ * الترجمة العربية ص ٥ — ١٣ .

٦ — الهجويري : « كشف المحجوب » ، ترجمة نيكلسون الانجليزية ص ٨٦ وما يليهـــا

٧ — ابن الجوزي : « آداب الحسن البصري » ص ٥٠ وما يتلوها ؛ القاهرة سنة ١٩٣١ .

٨ — « أمالي » السيد المرتضى

٩ — « شرح نهج البلاغة » لابن أبي الحديد

١٠ — ابن عبد ربه : « العقد الفريد »

١١ — الحصري : « زهر الآداب »

ويذكر ابن النديم (« الفهرست » ص ٣٤ س ١ — س ٢) للحسن البصري تفسيراً للقرآن . وهو مفقود .

وهو في رسائله تلك إلى عمر بن عبد العزيز ، أعدل الخلفاء المسلمين بعد

* توجد هذه الترجمة العربية في المخطوط رقم ٣٣٧ بالمكتبة المركزية بجامعة طهران .

الخلفاء الراشدين ، يكتفي بالنصح العام ، دون أن يتخذ موقفاً معيناً من الأحداث الجارية أو الأشخاص . وشعاره : لا خروج ، ولا كتمان — أي لا تمرد على أولي الأمر ، ولا كتمان للرأي فيما يفعلون والحكم على ما يأتون .

لهذا نراه يدعو أهل البصرة إلى الطاعة للأمويين ، ولكنه في الوقت نفسه ينقد الخلفاء الأمويين بلا هوادة ولا استخفاء . فيأخذ على معاوية بن أبي سفيان ، أول الأمويين ، أنه ارتكب أربعة أخطاء جَسيمة في حق الأمّة الإسلامية ، هي[1] : « عن الحسن (البصري) قال : أربع خصال كُنّ في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : ١) انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزّها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ؛ ٢) واستخلافه ابنه بعده سكّيرا خِمّيرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ؛ ٣) وادعاؤه زياداً — وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفِراش وللعاهر الحجر ٤ ؛) وقتله حجراً » .

ولما استدعي هو وابن سيرين والشعبي أمام عمر ابنُ هبيرة ، والي البصرة ، كان هو الوحيد الذي تجاسر على الهجوم على سيرة يزيد بن عبد الملك ، بينما لاذ الآخران بالتقيّة [2] . ذلك أنه « لما وَلي عُمَرُ بن هُبَيْرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان — وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحَسَن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي [3] ، وذلك في سنة ثلاث ومائة . فقال لهم إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده وأخذ عليهم الميثاق بطاعته وأخَذَ عهدنا بالسمع والطاعة . وقد ولاّني ما ترون فيكتب إليّ بالأمر من

---

(١) الطبري : « تاريخ الأمم والملوك » جـ ٢ ص ١٤٦ . وحجر بن عدي قتله معاوية سنة ٥١ ، راجع الطبري ، جـ ٢ ص ١٤٣ — ١٤٦ .

(٢) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ٣٥٤ — ص ٣٥٥ . القاهرة ، سنة ١٩٤٨ .

(٣) توفي محمد بن سيرين سنة ١١٠ هـ ؛ أما الشعبي فهو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي ، وكان راوية قاصاً إخبارياً ، وتوفي سنة ١٠٥ هـ . وكانت خلافة يزيد بن عبد الملك من سنة ١٠١ إلى ١٠٥ هـ .

أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فيما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشّعْبي قولاً فيه تقيّة . فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حَسَنُ ؟ فقال : يا ابن هبيرة ! خَفِ الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله . إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرٍ إلى ضيق قبر ؛ ثم لا ينجّيك إلا عملك . يا ابن هبيرة ! إن تَعْصِ الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركبنّ دين الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فأجازهم ابن هبيرة ، وأضعف جائزة الحسن . فقال الشعبي لابن سيرين : « سفسفنا له فسفسف لنا » [1] . ولما بنى الحجّاج داراً بواسط وأحضر الحسن ليراها ، هاجم الحسن هذا العمل هجوماً عنيفاً » * .

ولما قام يزيد بن المهلّب في سنة ١٠٢ هـ بثورته على الأمويين ، كان الحسن البصري يثبط الناس عن يزيد بن المهلّب ويقول للذين يريدون الخروج معه : « أيها الناس ! الزموا رجالكم ، وكُفُّوا أيديكم واتّقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمعٍ فيها يسيرٍ ليس لأهلها بباقٍ وليس الله عَنْهم فيما اكتسبوا براضٍ . إنه لم يكن فتنةٌ إلّا كان أكثرَ أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التيه والخُيَلاء ؛ وليس يسلم منها إلاّ المجهول الخفيّ والمعروف التقيّ . فمن كان منكم خفيّاً فليلزم الحق ، وليحبس نفسه شرفاً، وكفى له به من الدنيا خلفاً . ومَنْ كان منكم معروفاً شريفاً فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا إرادةَ الله بذلك ، فواهاً لهذا ما أسعده وأرشده وأعظم أجره وأهدى سبيله ! — فهذا غداً — يعني يوم القيامة — القرير عيناً ، الكريم عند الله مآباً » [2] .

(١) أي حقرنا أنفسنا له فحقرنا. وانظر الخبر برواية أوسع في « حلية الأولياء» جـ٢ ص١٤٩–١٥٠

(٢) « تاريخ » الطبري جـ ٢ ص ١٤٠٠ – ١٤٠١ ، طبع ليدن سنة ١٨٨٥ – ١٨٨٩ .

* راجع هذه المسألة تفصيلا في « الحسن البصري » لابن الجوزي ص ٥٣ ؛ « والمنية والأمل » لابن المرتضى ص ١٤ ؛ و « أمالي » السيد المرتضى جـ ١ ص ١١٢ .

وكان طبيعياً أن يُتَّهَمَ الحَسَنُ بعد ذلك بالمراءاة من جانب أصحاب الثورة . إذ قام مروان بن المهلب خطيباً ، لما بلغه ما قاله الحسن البصري ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد . ثم قال لهم : لقد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المُرائي — ولم يُسَمِّه — يثبّط الناس . والله لو أن جاره نزع من خُصّ داره قصبة لظل يُرْعَفُ أنفه . أينكر علينا وعلى أهل عصرنا أن نطلب خيرنا ، وأن ننكر مظلمتنا ؟! أما والله ليكُفّنّ عن ذكرنا وعن جمعه إلينا من سُقّاط الأبُلّة وعلوج فرات البصرة قوماً ليسوا من أنفسنا ولا ممن جرَت عليه النعمة من أحد منّا — أو لأنْحِيَنّ عليه مِبْرداً خشناً. — فلما بلغ ذلك الحسن قال : والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه. فقال له ناسٌ من أصحابه : لو أرادك ثم شئتَ لمنعناك. فقال لهم : فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه : أآمُرُكُم ألاّ يقتل بعضُكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ؟! » [1] .

فهو إذن كان يدعو إلى السلام والوفاق بين المسلمين ، وعدم التمرد والفتنة ، لأنه يرى أن ذلك كله صراع على دنيا تافهة لا تستحق أبداً أن يقتل المسلم أخاه المسلم من أجلها . ويظهر أنه كان لكلامه آنذاك في البصرة وقع عظيم ، فلم ينضم إلى يزيد بن المهلب غير قلة قليلة ، وكان بعد ذلك أن التقى جيش الشام بقيادة مسلمة بن عبدالله ضد جيش ابن المهلب ، فقتل ابن المهلّب في سنة ١٠٢ هـ .

مواعظه وزهده

أما مواعظه فيبدو أنها جمعت في وقت مبكر ، إبان حياته أو بعد وفاته بقليل ، كما يدل على ذلك خبر في « البيان والتبيين » للجاحظ [2] . وكانت تعد نموذجاً عالياً في الفصاحة . إذ كان من المشهور أن الحسن البصري والحجاج كانا

(١) « تاريخ » الطبري جـ ٢ ص ١٤٠١ . طبع ليدن .
(٢) الجاحظ : « البيان والتبيين » جـ ١ ص ٢٣٩ س ١ ، طبعة السندوبي ، القاهرة سنة ١٩٣٢ .

أفصح الناس في عهدهما . قال عمرو بن العلاء : لم أر قرويّيْن أفصح من الحسن والحجاج . ولما سئل عن أفصحهما ، أجاب : الحسن [1] . واعترف الحجاج نفسه بهذا ، فكان يقول : « أخْطَبُ الناس صاحبُ العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ، إذا شاء خطب وإذا شاء سكت — يعني الحسن [2] » البصري .

ويغلب على هذه المواعظ ما يلي :

١ — ذم الدنيا مثل قوله : « يا ابن آدم ! بِـعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ولا تَبيعْ آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ... الثواءها هنا قليل والبقاء هناك طويل » [3] « احذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة التي قد تزينت بخُدَعها ، وغرّت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوّفت لخطّابها ، فأصبحت كالعروس المجلوّة : العيون إليها ناظرة ، والنفوس لها عاشقة ، والقلوب إليها والهة ، ولألبابها دافعة ، وهي لأزواجها كلهم قاتلة . فلا الباقي بالماضي معتبر ، ولا الآخِر بما رأى من الأول مزدجر ، ولا اللبيب بكثرة التجارب منتفع ، ولا العارف بالله والمصدق له حين أخبر عنها مُدَّكر . فأبت القلوب لها إلاّ حُبّاً ، وأبت النفوس بها إلاّ ضناً . وما هذا منّا لها إلا عشقاً ؛ ومَنْ عَشِق شيئاً لم يعقل غيره ، ومات في طلبه ولم يظفر به ، فهما عاشقان طالبان لها : فعاشقٌ قد ظفر بها واغترّ وطغى ونسي بها المبدأ والمعاد فشغل بها لبه ، وذهل فيها عقله حتى زلّت عنها قدمه وجاءته — أسرَّ ما كانت له — منيته ، فعظمت ندامته ، وكثرت حسرته ، واشتدت كُرُبَتَه مع ما عالج من سكرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت بألمه ، وحَسْرة الموت بغصته ، غير موصوف ما نزل به ؛ وآخر مات قبل أن يظفر منها بحاجته ، فذهب بكربه وغمّه ولم

---

(١) الكتاب نفسه ج ١ ص ١٤٦ ، ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) الجاحظ ، مكتاب نفسه ج ١ ص ٣٠٤ ؛ ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٨٨ .

يدرك منها ما طلب ، ولم يُرِحْ نفسه من التّعب والنّصب . خرجا جميعاً بغير زاد ، وقدما على غير مِهاد . فاحذرها الحذر كلّه فإنّها مِثْلُ الحيّة ليّنٌ مَسُّها وسُمُّها يقتل . فأعْرِض عما يعجبك فيها لقلّة ما يعجبك منها ، وضع عنك همومها لما عاينت من فجائعها وأيقنت به من فراقها ، وشدد ما اشتد منها لرخاء ما يصيبك ، وكُنْ أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ؛ فإن صاحبها كلما اطمأنّ فيها إلى سرور له أشخصته عنها بمكروه ؛ وكلما ظفر بشيء منها وثَنى رِجْلاً عليه انقلبت به . فالسّارُّ فيها غارٌّ ، والنافع فيها غداً ضار . وُصِل الرخاءُ فيها بالبلاء ، وجُعِل البقاءُ فيها إلى فناء . سرورها مشوب بالحزن ، وآخر الحياة فيها الضعف والوهن . فانظر إليها نظر الزاهد المفارق ولا تنظر نظر العاشق الوامق . واعلم أنّها تزيل الثاوي الساكن ، وتُفجع المغرور الآمِن . لا يرجع ما تولى منها فأدبر ، ولا يدري ما هو آتٍ فيها فينتظر . فاحذرها فإن أمانيها كاذبة ، وإن آمالها باطلة . عيشها نكد ، وصَفوها كدر ، وأنت منها على خطر : إمّا نعمة زائلة ، وإمّا بليّة نازلة ، وإمّا مصيبة موجعة ، وإما مَنيّةٌ قاضية ؛ فلقد كدرت عليه المعيشة إن عقل ، وهو من النعماء على خطر ، ومن البلوى على حذر ، ومن المنايا على يقين . فلو كان الخالق تعالى لم يخبر عنها بخبر ، ولم يضرب لها مثلاً ، ولم يأمر فيها بزهد — لكانت الدار قد أيقظت النائم ، ونبّهت الغافل . فكيف وقد جاء من الله تعالى عنها زاجر ، وفيها واعظ ! فما لها عند الله — عز وجل — قَدْر ، ولا لها عند الله تعالى وزن من الصِّغر ؛ ولا تزن عند الله مقدار حصاة من الحصا ؛ ولا مقدار ثراة في جميع الثرى ولا خلق خلقاً — فيما بُلِّغْتَ — أبغض إليه من الدنيا ، ولا نظر إليها منذ خلقها مقتاً لها . ولقد عُرِضت على نبينا — صلى الله عليه وسلم ! — بمفاتيحها وخزائنها — ولم ينقصه ذلك عنده جناح بعوضة — فأبى أن يقبلها . وما منعه من القبول لها ، ولا ينقصه عند الله شيء إلاّ أنه علم أن الله تعالى أبغض شيئاً فأبغضه ، وصغّر شيئاً فصغّره ، ووضع شيئاً فوضعه . ولو قبلها ، كان الدليلُ على حبّه إياها قبولها . ولكنه كره أن يحبّ ما أبغض خالقُه ، وأن يرفع ما

وضع مليكه . ولو لم يدلّه على صِغَر هذه الدار إلاّ أن الله تعالى حقّرها أن يجعل خيرها ثواباً للمطيعين ، وأن يجعل عقوبتها عذاباً للعاصين ، فأخرج ثواب الطاعة منها ، وأخرج عقوبة المعصية عنها »[1] .

وسيكون موضوع ذم الدنيا والتحذير منها وبيان هوانها من الموضوعات الرئيسية عند الصوفية . وفي هذا الذم يستشهد الحسن البصري بالقرآن كما رأينا .

٢ – ويرتبط بذم الدنيا الدعوة إلى التقليل منها ومن مُتَعها إلى أقل درجة ، وذلك بالفقر والزهد والتقشف . ويسوق لبيان ذلك نماذج من سير الأنبياء : « فأما محمد ﷺ فشدّ الحَجَر على بطنه من الجوع ؛ وأما موسى عليه السلام فرؤيت خُضْرة البقل من صفاق بطنه مِنْ هُزاله ، ما سأل الله تعالى ، يومَ أوى إلى الظل – إلاّ طعاماً يأكله من جوعه . ولقد جاءت الروايات عنه أن الله تعالى أوحى إليه أن : يا موسى ! إذا رأيت الفقر مقبلاً فقُلْ مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغني قد أقبل فقل : ذنبٌ عَجّلْتَ عقوبته. – وإن شئتُ ثلثت بصاحب الروح والكلمة (= عيسى بن مريم) ففي أمره عجيبة . كان يقول : أُدْمِي الجوعُ ، وشعاري الخوف ، ولباسي الصوف ، دابّتيَ رِجْلي ، وسراجي بالليل القمر ، وصلايتي في الشتاء الشمس ، وفاكهتي ورَيْحاني ما أنبت الأرضُ للسباع والأنْعَام . أبيتُ وليس لي شيء ، وليس أحدٌ أغنى مني . – ولو شئت ربّعْتُ بسليمان بن داود عليهما السلام ، فليس دونهم في العَجَب : يأكل خبز الشعير في خاصّته ، ويطعمُ أهله الخُشْكار[2] والناسَ الدّرْمك . فإذا جَنّه الليل لبس المسوح وغلّ اليدَ إلى العنق وبات باكياً حتى يصبح ؛ يأكل الخشن من الطعام ، ويلبس الشّعَر من الثياب ... ثم

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ١٣٥ – ١٣٦ . ويوجد بعض ما هنا من عبارات في رسالة الحسن الى عمر بن عبد العزيز (راجع « الحسن البصري » لابن الجوزي ص ٥٤)

(٢) كلمة فارسية بمعنى : ما خشن من الطحين ، وتكتب أيضاً : خشكر . وهي بالفارسية – خشكار ، فرسمها الصحيح بالعربية خشكار ، لا خشكر . والدرمك : دقيق الحواري ، والحواري هو الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق .

اقتص الصالحون بعدُ منهاجهم ، وأخذوا بآثارهم ، وألزموا الكد والعبر وألطفوا التفكّر ، وصبروا في مدة الأجل القصير »[١] . كذلك يذكر أن النبي محمداً ﷺ « لم يضع لَبِنةً على لَبِنةٍ ولا قصبة على قصبة »[٢] .

٣ — وتتردد هذه الدعوة إلى الزهد في موعظة بعث بها الحسن إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز لما كتب هذا إليه : « عِظني وأوْجِز » فكتب الحسن إليه : « أما بعد ! فإن رأس ما هو مُصْلِحك ومُصْلَحٌ به على يدك : الزهدُ في الدنيا. وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكر ، والتفكر بالاعتبار . فإذا أنت تفكّرْتَ في الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك ، ووجَدْتَ نفسك أهلاً أن تُكرِمها بهوان الدنيا ، فإنما الدنيا دار بلاء ، ومنزل غفلة »[٣] .

٤ — الدعوة إلى محاسبة النفس والشعور العميق بالمسئولية — كما في قوله : « يا ابن آدم ! اذكر قوله : « وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً » (سورة الاسراء آية ١٣ — ١٤) . عدَل ، والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك ... أعدُّوا الجواب ، فإنكم مسئولون. المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ولكنه أخذه من قِبَل ربّه »[٤] .

ويرى أن تكون هذه المحاسبة بالرجوع إلى كتاب الله ومراجعة ما فيه مع ما يفعله الإنسان . قال الحسن : « رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله ، فعرَض عليه نفسه ؛ فإن وافقه حَمِد ربّه ، وساله الزيادة من فضله . وان خالفه ، أعتب وأناب ، وراجع من قريب »[٥] .

---

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ١٣٧ .
(٢) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٨٨ .
(٣) « سيرة عمر بن العزيز » لابن الجوزي ، ص ١٢٤ .
(٤) ابن قتيبة : « عيون الأخبار » ج ٢ ص ٣٤٤ ؛ الجاحظ : « البيان والتبيين» ج ٣ ص ٦٨ .
(٥) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٦٩ .

٥ – وعلى الإنسان أن يبدأ بإصلاح نفسه قبل أن يأمر بإصلاح عيوب الآخرين . قال الحسن : « لا يستحقّ أحدٌ حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيبٍ هو فيه ؛ ولا يأمُرْ باصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ؛ فإنه إذا فعل ذلك لم يُصْلِح عيباً الا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يُصْلِحه . فإذا فعل ذلك شُغِل بخاصّة نَفسه عن عيب غيره . وانك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشرّه ، فلا تحقرَنّ شيئاً من الخير وإن صَغُر ، فإنك إذا رأيته سَرَّك مكانُه ؛ ولا تحقرنّ شيئاً من الشرّ وإن صَغُر ، فإنك إذا رأيته ساءك مكانه » [١] .

٦ – وحين كان يعترض عليه أحدٌ من الولاة أو سائر الناس بأن الله لم يحرّم على الناس التمتع بنعيم الدنيا – كان الحسن يجيب على ذلك بحميّة وغضب ، لما يرى في تفسير كلام الله هذا التفسير من خروج على روح الدين .

ومن ذلك ما رواه ابن الجوزي فقال : « وأحْضَر النّضْر بن عمرو – وكان والياً على البصرة الحسن البصريّ يوماً ، فقال (له) : يا أبا سعيد! إن الله عز وجل – خلَق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها وزينتها لعباده . وقال عز وجل : « كلوا واشربوا ولا تُسْرِفوا إنه لا يحب المسرفين » [٢] . وقال – عزّ من قائل : «قُلْ مَن حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا » [٣] .

فقال الحسن : « أيها الرجل ! اتّقِ اللهَ في نفسك . وإيّاك والأمانيَّ التي ترجّحتَ [٤] فيها فتَهلِكَ . إنّ أحداً لم يُعْطَ خيراً من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأمنية . وإنما هي داران : مَنْ عَمِل في هذه أدرك تلك ،

---

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ٧٠ .
(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .
(٣) سورة الأعراف آية ٣٢ .
(٤) أي : ملت إليها .

ونال في هذه ما قُدِّر له منها . ومَنْ أهمل نفسه خَسِرهما جميعاً . إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم – لنفسه ، وبعثه برسالته ورحمته ، وجعله رسولاً إلى كافّة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مُهَيْمناً ، وحدّ له في الدنيا حدوداً ، وجَعَل له فيها أجَلاً ؛ ثم قال عز وجلّ : « لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ » [1] ، وأمرنا أن نأخذ بأمره ونهتدي بهديه وأن نسلك طريقته ونعمل بسُنّته . فما بَلَغْنا إليه فبفضله ورحمته ؛ وما قَصّرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر . فذلك باب مخرجنا ، فأما الأماني فلا خير فيها ولا في أحدٍ من أهلها » .

فقال النضر : « والله يا أبا سعيدٍ إنّا على ما فينا لنُحِبّ ربّنا » .

فقال الحسن : « لقد قال ذلك قومٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه : « قُلْ إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحبْبكم اللهُ » [2] . فجعل – سبحانه – إتّباعَه – صلى الله عليه وسلم – عَلَماً للمحبّة ؛ وأكذَبَ مَنْ خالَف ذلك . فاتّقِ الله ، أيها الرجل ، في نفسك . وأيم الله ، لقد رأيت أقواماً كانوا قبلك في مكانك يَعْلُون المنابر وتَهتزّ لهم المراكب ، ويجرّون الذيول بَطَراً ورياءَ الناس . يبنون المَدَر ويؤثرون الأُثَر [3] ، ويتنافسون في الثياب – أُخْرجوا من سلطانهم . وسُلِبوا ما جمعوا مِنْ دنياهم ، وقَدِموا على ربّهم ، ونزلوا على أعمالهم . فالويل لهم يوم التغابُن [4] . ويا ويحهم ! «يوم [5] يفر المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه ؛ لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه » [6] .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٣) أي آثر الأشياء وأحسنها ، جمع : أثرة (بالتحريك) .

(٤) كناية عن يوم القيامة .

(٥) سورة عبس آيات ٣٤ – ٣٧ .

(٦) ابن الجوزي : « الحسن البصري » ص ٥٠ .

وهنا يلاحظ أن الحسن البصري يردّ على الاحتجاج بالآيات القرآنية — بإيراد نموذج حياة النبي ؛ وكأنّه رأى أن القرآن « حَمَّالُ أوجه » كما قال الإمام عليّ بن أبي طالب ، ولهذا يحسن تفسيره بالسُّنّة النبوية ، كما أن في كلامه هنا دعوة — لعلها الأولى — إلى الاقتداء بالنبيّ .

٧ — وقد طبّق الحسن هذا الزهد تطبيقاً عملياً صريحاً حين زهد في المناصب . والشاهد البارز على هذا موقفه حين ولي عديٌّ بن أرطاة البصرة فعزم على أن يولّي الحسن البصري القضاء فهرب الحسن واستتر ، وكتب إلى عديّ ما يلي :

« أما بعدُ ! أيها الأمير ! فإن الكاره للأمر غيرُ جديرٍ بقضاء الواجب فيه ؛ وإنّ العامل للعمل بغير نيّةٍ حقيقٌ أن لا يُعان عليه . ولك في المختارين للأمر الذي دعوتني إليه كفايةٌ وقناعة.وقَصْدُكَ إياهم وتعويلك عليهم أَوْلَى بك وأصونُ لعملك ، فإنه لا خير في الاستعانة بمَنْ لا يرى أن العمل الذي يُدْعَى إليه واجبٌ عليه وفرضٌ لازم له . فعافني ، أيها الأمير ، عافاك الله . وأحْسِن إليَّ بترك التعرُّض لي ، فإنّ الله لا يُضيع أجرَ من أحسن عملاً » .

فعافاه عديّ وأكرمه ، وقال : « والله ما كنت لأبتليه بما يكرهه [1] .

وهذا يدل على إخلاص الحسن في الزهد في الدنيا وفي صدقه في دعوته الناس إلى ذلك . خصوصاً وهذا المنصب كان أرفع ما يطمع فيه العالم الفقيه من مناصب الإدارة .

٨ — ثم نراه في هذه المواعظ يحدد أخلاق المؤمن الصادق :

أ — فيحدد خصائص أهل التقوى فيقول : إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها : صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرَّحم ، ورحمة

---

(١) الكتاب نفسه ص ٥٤ .

الضعفاء ، وقلّة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، وقلة المباهاة للناس ، وحسن الخلق . وسعة الخلق مما يقرّب إلى الله عز وجل »[1] .

ب — ويحدّد الخلال الرئيسية التي بها ينجو المؤمن : قال : « مَن كانت له أربع خلال حرّمه الله على النار ، وأعاذَه من الشيطان : مَنْ يملك نفسه عند الرغبة ، والرهبة ، وعند الشهوة وعند الغضب »[2] .

ج — ومنها في وصف الذين سينالون الجنة : « قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ؛ حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة : صبروا أياماً قصاراً تُعْقِب راحة طويلة ؛ أما الليلَ فمُصافّةٌ أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربَّنا ، ربّنا ! وأما النهارَ فحلماءُ علماءُ بَرَرَة أتقياء ، كأنهم القِداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مَرَض ، أو خولطوا — ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمرٌ عظيم »[3] .

د — ويعرّف الاسلام فيقول : « الاسلام ، وما الإسلام ؟ السرّ والعلانية فيه مشتبهة ، وأن يَسْلَم قلبُك لله ، وأن يَسْلم منك كلُّ مسلم وكل ذي عهد »[4] .

والمؤمن فيقول : « المؤمن من يعلم أن ما قال الله — عز وجل — كما قال . والمؤمن أحسن الناس عملاً وأشدُّ الناس خوفاً : لو انفق جبَلاً من مالٍ ما أمِن دون أن يعاين . لا يزداد صلاحاً وبرّاً وعبادة إلاّ ازداد فرَقاً ، يقول : لا أنجو . والمنافق يقول : سواد الناس كثير ، وسيغفر لي ولا بأس عليّ ،

---

(١) « حلية الأولياء » جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ١٤٤ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ١٥١ .
(٤) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ١٥٢ .

فينسىء العمل ويتمنى على الله تعالى» [1] . — فالمؤمن إذن يعيش في حال خوف وقشعريرة crainte et tremblement كما يقول كيركجورد . ذلك لأنه غير واثق بالنجاة مهما فعل من صالح الأعمال . لكنه ينبغي ألا نفهم من هذا أن الحسن البصري يقول بفكرة اللطف الإلهي grâce divine الذي هو الفيصل في النجاة، دون الأعمال ، لأن الحسن البصري يقول في مواضع عديدة أخرى بضرورة الأعمال للنجاة وبما سيقول به المعتزلة من الوعد والوعيد وإن كان هو أقلّ توكيداً منهم لهذه المقالة .

ويسوقنا هذا إلى معنى آخر يتردد في الفلسفة الوجودية [2] عند هيدجر وغيره وهو معنى الوحدة والفردية والمسئولية الهائلة المترتبة على ذلك . والغريب أن كلام الحسن البصري هنا يكاد أن يكون بحروفه ما سيقوله هيدجر فيما بعد ذلك باثني عشر قرناً . قال الحسن : « ابنَ آدم ! إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتُبْعَث وحدك ، وتحاسب وَحْدَك » [3] .

ه — ومن العبارات الرائعة في تحديده للمؤمنين قوله : « إن المؤمنين شهود الله في الأرض . يَعْرِضون أعمال بني آدم على كتاب الله : فما وافق كتاب الله حَمِدَ الله عليه ، وما خالف كتاب الله عرفوا أنه مخالفٌ لكتاب الله ، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضل من الخلق » [4] . والعبارة الأولى : « المؤمنون شهود الله في الأرض » حافلة بالمعاني العميقة .

و — وكان يرى أن من أسوأ الخصال في الانسان خصلتان : الاستناد إلى الظالمين ، والطغيان عند النعمة . قال الحسن : « خَصْلتان من العبد إذا صلَحتا صلَح ما سواهما : الركون إلى الظَلَمة ، والطغيان في النعمة . قال

---

(١) الكتاب نفسه ج ٢ ص ١٥٣ .
(٢) راجع كتابنا « مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية » وكتابنا : « دراسات في الفلسفة الوجودية »
(٣) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ١٥٥ س ٣ — س ٤ . ط ٢ ، بيروت سنة ١٩٦٧ م .
(٤) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ١٥٨ .

الله عز وجل « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار » (سورة هود آية ١١٣) ؛ وقال الله عز وجل : « ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي » (سورة طه آية ٨١) »[1] .

ز — ويعرّف الايمان فيقول إنه « الصبر والسماحة ... الصبر عن معصية الله ، والسماحة بأداء فرائض الله عز وجل »[2] .

ح — ويقسّم الناس إلى ثلاثة : « مؤمن ، وكافر ، ومنافق . فأما المؤمن فقد ألجمه الخوفُ ، وقوّمه ذِكْر العرض[3] . وأما الكافر فقد قمعه السيف ، وشرّده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففي الحُجُرات والطرقات يُسِرّون غيرَ ما يعلنون ، ويُضْمِرون غير ما يظهرون »[4] .

٩ — ويتخذ من هذه الموضوعات الثلاثة : الموت ، والمرض ، والفقر — موضوعات أساسية للترهيب . وقد قال[5] : « لولا ثلاثةٌ ما طأطأ ابنُ آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر » .

أ) فمن كلامه عن الموت : « فَضَح الموت الدنيا ، فلم يترك فيها لذي لُبٍّ فرحاً »[6] .

ب) وأما كلامه في الفقر فلا يدخل تحت حصرٍ وقد أوردنا بعضه

---

(١) الكتاب نفسه ج ٢ ص ١٥٨ .
(٢) الكتاب نفسه ج ٢ ص ١٥٦ .
(٣) العرض (بفتح العين وسكون الراء) الحساب ، ومنه يوم العرض أي : يوم الحساب .
(٤) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ٦٩ .
وتوجد رواية أخرى لهذه الفقرة في « الحلية » ج ٢ ص ١٥٧ .
(٥) « الحسن البصري » لابن الجوزي — راجع « جمهرة خطب العرب » ج ٢ ص ٤٨١ . القاهرة ، سنة ١٩٣٣ .
(٦) أبو نعيم : « الحلية » ج ٢ ص ١٤٩ .

من قبل . ونضيف إليه قوله : « رَحِم الله رجلا لبس خَلَقاً ، وأكل كِسْرةً ، ولَصِق بالأرض، وبكى على الخطيئة ، ودأب في العبادة»[1] وتكاد هذه العبارة ان تكون برنامجاً كاملاً للزاهد الصادق .

١٠ – ويُشَبِّه الدنيا بأنها حُلْم فيقول : « والدنيا ... حُلْمٌ ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد في أضغاث أحلام »[2] وهذا التشبيه سيشتهر كثيراً ، وسيجعله كالدرون (١٦٠٠ – ١٦٨١) – المؤلف المسرحي الأسباني الشهير – عنواناً لاحدى مسرحياته La Vida es sueno .

والواقع أن للحسن البصري في كلامه ومواعظه تشبيهات أدبية رائعة ، مثل قوله أيضاً : « إنما أنت ، أيها الإنسان ، عَدَدٌ ، فإذا مضى لك يومٌ فقد مضى بعضُك »[3] . وقوله : « واجعل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ، ولا تَعمُرُها »[4] . وقوله : « يا ابن آدم ! نهارُك ضَيفك فأحْسِنْ إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحلَ بِحَمْدِك ، وإن أسَأتَ إليه ارتحل بذمك . وكذلك ليلك »[5] .

فهذه التشبيهات تنطوي على صور عينية حيّة من شأنها أن تزيد في وقع الموعظة في النفوس .

ولهذا فإن مواعظ الحسن البصري تعد من النماذج العليا في البلاغة العربية .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٢) « الحسن البصري » لابن الجوزي ص ٥٤ ؛ « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ص ١٢١ .

(٣) « الحسن البصري » لابن الجوزي ، و « البيان والتبيين » للجاحظ جـ ٣ ص ٧٦ – ٨٣ ، الخ راجع « جمهرة خطب العرب » جمع أحمد زكي صفوت جـ ٢ ص ٤٨١ ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(٤) المرجع نفسه جـ ٢ ص ٤٨٢ .

(٥) المرجع نفسه جـ ٢ ص ٤٨١ .

وكانَ الغالبُ على نفسية الحسن البصري الميلَ إلى الحزن والهمّ . وله في هذا عبارات كثيرة تبرّر اتخاذه الحزن مزاجاً سائداً . منها قوله : « إن المؤمن يصبح حزيناً ، ويمسي حزيناً ، ولا يَسَعُه غير ذلك لأنه بين مخافتين : بين ذنبٍ قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه ، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك » [1] « وعن أبي حزم قال : سمعت الحَسَن يحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو : ما يَسَعُ المؤمنَ في دينه إلا الحزن » . وقال أيضاً : « يحق لمن يعلم أن الموت مَوْرِدُه ، وأن الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده — أن يطول حزنه » . وقال أيضاً : « طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح » . — وقال : « والله لا يؤمِنُ عبدٌ بهذا القرآن إلاّ حَزِن وذَبُل ، وإلاّ نَصِب وإلاّ ذاب وتَعِب » . ؛ وفي نفس المعنى قال أيضـاً : « والله يا ابن آدم ! لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولنّ في الدنيا حُزْنُك ، وليشتدّنّ في الدنيا خَوْفُك ، وليَكْثُرَنّ في الدنيا بكـاؤك » .

فدواعي الحزن عنده هي حال الإنسان : إذ الانسان بين خوف من سوء عمله ، ورهبة من أجله ، وتَحَسُّرٍ على ما فرّط فيه في جنب الله ، وخشيةٍ من سوء مُنْقَلَبه . فمن ذا الذي يطمئن إلى أنه يعمل صالحاً ، ويخشى الله في الناس ، ويؤدي ما عليه من حقوق الرعاية لله ؟! إن الانسان يمضي عمره في الخوف والقشعريرة ، فأنّى له إذن بالفرح والسرور ! ثم إن الدنيا غدّارة قتّالة خدّاعة ، واللبيب مَنْ حَذِرها ؛ والحَذَرُ مدعاة القلق : والقَلَق يؤدي إلى الحزن . فالمرء المؤمن هو بالضرورة في قلق دائم ، وحزن مستمر . وسئل مرة: ما يبكيك ؟ فقال : أخاف أن يطرحني غداً في النار ولايبالي.

لهذا كان قلبُ الحسن البصري — وهو المخلص في سلوكه — محزوناً

(١) « حلية الأولياء » جـ ٢ ص ١٣٢ — وتوجد روايات أخرى قريبة في نفس الموضع .

دائماً ، حتى قيل عنه : « ما كُنّا نراه إلا كأنه حديثُ عهدٍ بمصيبة » [1] . وكان يرى أن « كثرة الضحك تميتُ القلب » [2] .

وهذا المسلك سيأخذه عنه كبار الصوفية والزهّاد في القرن الثاني الهجري ، الذي يعتبر بحق عصر البكّائين — مثل عبد الواحد بن زيد وعطاء بن رباح (أو رياح) القيسي ، وهشام بن حَسّان القردوسي (المتوفى سنة ١٤٨ هـ) الذي جمع روايات الحسن البصري ، وعبد العزيز بن سليمان الراسبي (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) .

وسيصبح باب الحزن من الأبواب الرئيسية في كتب التصوف ، على أساس أن « الحزن من أوصاف أهل السلوك » [3] . ويؤيد الصوفيةُ ذلك بحديث نبويّ يقول : « إن الله تعالى يحبّ كلّ قلبٍ حزين » ، كما يروون أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم « كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة » ؛ بل يزعمون أنه ورد في التوراة أنه « إذا أحبّ الله عبداً جعل في قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مِزْماراً » . وأن السلف كانوا يقولون « إن على كل شيء زكاةً ، وزكاةُ العقل طولُ الحزن » (المرجع نفسه ص ٧١) .

وكان الحسن البصري « يخلو مع اخوانه وأتباعه من النسّاك والعباد في بيته ، مثل مالك بن دينار ، وثابت البَنّاني ، وأيوب السَّختياني ، ومحمد بن واسع ، وفرقد السَّبَخي ، وعبد الواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور . فيتكلم عليهم في هذا العلم من علم اليقين والقدرة وفي خواطر القلوب وفساد الأعمال ووسواس النفوس » [4] .

---

(١) « حلية الأولياء » جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٣) « الرسالة » القشيرية ص ٧١ ، القاهرة سنة ١٩٥٩ .

(٤) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » جـ ١ ص ٣٠٤ ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، مطبعة مصطفى الحلبي .

— ٢ —

النزعة العقلية في التفسير
عند الحسن البصري ؟

وقد أبرز ماسينيون النزعة العقلية جداً والنوازع الوَضْعية البارزة في تفسير الحسن البصري للقرآن . وأيّد ذلك بشواهد من تفسيره مما ورد في ثنايا كتب التفسير :

١ — ومن ذلك تفنيد الحسن للأساطير التي حيكت حول أبناءآدم الأوّل.

٢ — وملاحظاته الخاصة بابراهيم الخليل ، من القول بأن الذبيح هو إسحق لا اسماعيل [١] .

٣ — وملاحظاته عن هاروت وماروت وقوله إنهما لم يكونا ملكين هبطا بابل ، بل كانا أميرين من العِجْلان [٢] ، أي من غير العرب .

كما يشير ماسينيون إلى أن روح الحسن البصري النقدية جعلته يعـد « التحيات » التي تختم بها الركعة الثانية في الصلاة إدخالاً في الإسلام لعادة جاهلية [٣] ، وكانت دعوات موجهة إلى أصنام الوثنية .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٢٩٠ ، ٣١٦ — ٣١٧ ، قارن ابن سعد ج ٧ ص ١٢٥ ، ١٢٧ .
(٢) تفسير الآية رقم ٩٦ (= ١٠٢ في المصحف المصري) من سورة البقرة ، ابن قتيبة : « تأويل مختلف الحديث » ٢٢٣ ، ٢٦٤ .
(٣) الترمذي : « العلل » ، ورقة ١٧٠ ب .

ويشير أيضاً إلى ما أُثِر عن الحسن من شواذّ في قراءات القرآن ، مما أورد بَعْضها ابنُ خالويه . لكن على الرغم من هذه الروح النقدية فقد كان الحسن ذا نزعة واقعية راسخة فيما يتعلق ببعض النقط المهمة ، مثل رؤية الله حين الاسراء اذ يؤكد – ولا يشاركه في هذا الرأي غير ابن عباس – وحده تقريبا – أن النبي محمداً عاين ماهية الله وذاته (لا المَلَك) حينما أسري به إلى السماء [1] . وقرر أيضاً أن الأبرار سيعاينون ذات الله في الجنّة ، « بلا إحاطة » [2] . ولو أدرك المؤمنون أنهم لن يروا الله في الآخرة ، لماتت قلوبهم حزناً في هذه الدار .

كذلك تبدو الروح النقدية في نقده لبعض الأحاديث . فقد روَى أمامه أحدُ المُحدِّثين ، وهو أبو سَلَمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة أن النبيّ قال إن الشمس والقمر في يوم القيامة ستطرحان مثل ثورين ، في النار . فقال الحسن : لأي ذنب ارتكبا ؟ فقال المحدث : هذا ما روي عن النبي . فصمت الحسن ، بينما صاح كل الحاضرين : صدق الحسن ، لأيّ ذنب ؟ [3] .

وإذا فحصنا أقوال ماسينيون هذه وجدنا أن ثمّ عدم تدقيق فيما يقول :

١ – ففيما يتعلق بالذبيح من ولدي ابراهيم نجد في الطبري عكس ذلك ، فقال في تفسير الآية ١٠٣ من سورة الصافات : « فلما أسلما وتلّه للجبين » وهو يورد أقوال القائلين بأن الذبيح هو اسماعيل ، بعد أن أورد أقوال من قالوا إنه إسحق :

« حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن اسحق ، عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد ، عن الحسن البصري أنه كان لا يشكّ في ذلك : أن الذي أُمِر بذبحه من ابني ابرهيم : اسماعيل [4] » .

(١) عياض : « الشفاء » جـ ١ ص ١٥٩ ، ١٦٥ .
(٢) الشعراني : « الطبقات » جـ ١ ص ٢٩ .
(٣) راجع « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة ص ١٢١ .
(٤) « تفسير » الطبري جـ ٢٣ ص ٨٤ س ٦ – ٧ من أسفل . القاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٥٤ ، مكتبة الحلبي .

فلسنا ندري من أين استقى ماسينيون قوله ذلك وهو أن الحسن البصري كان يرى أن الذبيح هو اسحق ، لا اسماعيل !

وقد شارك الحسن في هذا الرأي عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وعامر ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي ، بينما قال بأن الذبيح هو اسحق : ابن عباس أيضاً (أي أنه نسب إليه القول بكلا الرأيين) وعبدالله بن مسعود وكعب الأحبار . وقد رجّح الطبري الرأي الأخير فقال : وأولى القولين بالصواب في المفدى مِنْ ابنَيْ ابرهيم خليل الرحمن ، على ظاهر التنزيل ، قولُ من قال هو اسحق ، لأن الله قال : « وفديناه بذبحٍ عظيم » فذكر أنه فدى الغلامَ الحليم الذي بُشِّر به ابرهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين ، فقال : « ربِّ هَبْ لي من الصالحين » . فإن كان المَفْدِيُّ بالذبح من ابنيه هو المبشّر به ، وكان الله — تبارك اسمه ! — قد بيّن في كتابه أن الذي بُشِّرَ به هو إسحق ، ومِنْ وراء إسحق : يعقوب ، فقال جلّ ثناؤه : « وبشّرناه باسحق ومِنْ وراء إسحقَ يعقوبَ » وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد ، فإنما هو معنيٌّ به إسحق — كان بيّناً أن تبشيره إياه بقوله « فبشّرناه بغلامٍ حليم » في هذا الموضع نحو سائر إخباره في غيره من آيات القرآن » [1] .

٢ — أما فيما يتعلق بهاروت وماروت ، فلم نجد في الطبري — وإليه يشير ماسينيون — أيّ رأي للحسن البصري في أمرهما ، رغم وفرة كلام وروايات الطبري في تفسير هذه الآية رقم ١٠٢ من سورة البقرة ، وخصوصاً ما أورد من الأخبار في بيان حقيقة هذين الملكين [2] . فهو يورد عن ابن عباس وابن مسعود أنهما ملكان اختارهما الملائكة من بين أنفسهم وأُهْبِطا إلى الأرض ،

---

(١) المرجع نفسه جـ ٣ ، ص ٨٥ .

(٢) « تفسير » الطبري جـ ١ ص ٤٥٦ — ٤٥٩ ، ط ٢ سنة ١٩٥٤ بالقاهرة ، مكتبة مصطفى الحلبي .

فوقعا في الخطيئة . وقريب من هذا أيضاً قول كعب الأحبار ومجاهد . ولم يورد رأياً للحسن البصري في هذا الموضوع .

٣ — أما دفع الحسن البصري للحديث الذي يقول إن الشمس والقمر ثوران مُكَوَّران في النار يوم القيامة ، فقد ذكره ابن قتيبة من بين الأحاديث التي يدفعها النظر وحجة العقل . قال ابن قتيبة : « قالوا : رويتم عن عبد العزيز بن المختار الأنصاري عن عبدالله الداناج قال : شهدت أبا سلمة بن عبد الرحمن في مسجد البصرة . وجاء الحسن فجلس إليه . فحدّثَ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الشمس والقمر ثوران مكوّران في النـــار يوم القيامة » . فقال الحسن : وما ذنبهما ؟ قـــال إني أحدّثك عن رسول الله ﷺ فسكتَ . قالوا : قد صدق الحسن . ما ذنبهما ؟ وهذا من قول الحسن ردّ عليه أو على أبي هريرة » [1] .

فالحسن بالنسبة إلى هذا الحديث المرويّ عن أبي هريرة قد احتج بالعقل ودفع إمكان صحّته ؛ وفي هذا دليل على استخدامه العقل في نقد الحديث .

(١) ابن قتيبة : « تأويل مختلف الحديث » ص ١٢١ — ١٢٢ . — ويتكوران في النار يوم القيامة ، أي يلفان ويجمعان ويلقيان منها كأنهما يمسخان . وكور فلانا : صرعه ؛ والمتاع : جمعه وشده ولفه على جهة الاستدارة .

—٣—

الامام العادل في نظر الحسن البصري

وقد قدّم الحسن البصري صورة للإمام العادل في رسالته التي كتبها إلى عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة سنة ٩٩ هـ ، فقال :

« اعلم ، يا أمير المؤمنين ! أن الله جعل الإمام العادل قِوام كل مائل ، وقَصْدَ كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة [١] كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف .

والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين ، كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المَرْعى ، ويذودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباعِ ، ويكنُفُها من أذى الحر والقر [٢] .

والإمام العَدْل ، يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صِغاراً ، ويُعَلِّمهم كباراً . يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته .

والإمام العدل ، يا أمير المؤمنين ، كالأمّ الشفيقة البَرّة الرفيقة بولدها : حَمَلَتْه كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربّته طفلاً ، تَسْهَر بسهره ، وتسكُن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشكايته .

(١) النصفة : اسم من الإنصاف ؛ يقال : ما جعلوا بيني وبينهم نصفة : أي إنصافاً وعدلا .
(٢) بتثليث القاف : البرد .

والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين ، وصيٌّ اليتامى ، وخازن المساكين : يُرَبّي صغيرهم ، ويمونّ كبيرهم .

والإمام العدل ، يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح : تَصْلُح الجوانحُ بصلاحه وتَفْسُد بفساده .

والإمام العدل ، يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسْمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويرُيهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن ، يا أمير المؤمنين ، فيما ملكك الله كعبدٍ أئتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهلهُ ، وفرّق ماله.

واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن الله أنزل الحدودَ ليزجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها مَنْ يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصُّ لهم ؟

واذكر ، يا أمير المؤمنين ، الموتَ وما بعده ، وقلّة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه : فتزوّدْ له ولِما بعدُه من الفزع الأكبر . واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحبّاؤك ، ويُسْلمونك في قعره فريداً وحيداً . فتزوّد له ما يصحبُك يومَ يفرُّ المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبه وبنيه . واذكر ، يا أمير المؤمنين ، إذا بُعْثر ما في القبور ، وحُصّل ما في الصدور : فالاسرار ظاهرة ، والكتابُ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها .

فالآنَ ، يا أمير المؤمنين ، وأنت في مَهَلٍ قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل — لا تحكُمْ ، يا أمير المؤمنين ، في عبادِ الله بحكم الجاهلين . ولا تسلك بهم سبيلَ الظالمين ، ولا تُسَلّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ (1) ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوْزارك ،

---

(1) الإل : العهد .

وتحملَ أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك . ولا يَغُرَّنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيّباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قُدْرتك غداً وأنت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيِّين والمُرْسلين ، وقد عَنَتْ الوجوه للحيّ القيوم . إني ، يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النّهى من قبلي ، فلم [1] آلُكَ شفقةً ونصحك . فأنْزِلْ كتابي إليك كمداوي حبيبه يَسْقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحّة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » [2] .

والمعاني الرئيسية في هذه الرسالة هي :

١ – أن أهم صفة في الإمام هي العدل . ولكنه عَدْلٌ ممزوج بالرحمة الأبوية ؛

٢ – وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام ، لأنه إن لم يتبعها ، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها ؛

٣ – وأن الامام هو المنفذ للقصاص ، فلا يحقّ له أن يقتل أحداً بغير حق ؛ إن في القصاص حياة ، فكيف يقضي على الحياة مَنْ وُكل إليه أمر توفير الحياة ؟ !

٤ – أن صلاح الرعية بصلاح الإمام وفسادها بفساده ؛ فمسئوليته عن أفعاله هي في الوقت نفسه مسئوليته عن أفعال كل رعيته . فما أعظم مسئوليته إذن !

٥ – وتظهر هذه المسئولية خصوصاً في تعيين الولاة ، فما يرتكبه ولاة الإمام وعُمّاله الإمامُ هو أول مسئول عنها . ولهذا يجب على الإمام ألا

---

(١) أي لم أقصر .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ١ ص ١٢ ؛ و « الحسن البصري » لابن الجوزي ص ٥٦ .

يسلّط المستكبرين على المستضعفين ، لأن المتكبرين لا يرعون الحرمات ولا يراقبون الله في أعمالهم وأحكامهم . فإذا عيّن الامام واحداً من هؤلاء ، فقد تحمّل مع أوزاره الخاصّة أوزارهم .

* * *

وكان الحسن يتطلب في الحاكم العادل الزهادة التامّة . ويقدم لذلك مثل النبيّ ﷺ فيقول : « لما بعث الله — عز وجل — محمداً صلى الله عليه وسلم يعرفون وجهه ويعرفون نسبه قال : هذا نَبِيّ ، هذا خياري . خذوا مِنْ سُنّته وسبيله . أما والله ما كان يغدى عليه بالجفان ولا يُراح ، ولا يغلق دونه الأبواب ، ولا تقوم دونه الحَجبَة : كان يجلس بالأرض ويوضع طعامه بالأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ويردف خلفه. وكان يلعق يده».

وكان يقول أيضاً في الزراية على الولاة المعاصرين له : « ما أكثر الراغبين عن سنة نبيّ الله — صلى الله عليه وسلم — وما أكثر التاركين لها ! ثم إن علوجاً فُسّاقاً أكلة ربا وغلول ، قد شغلهم ربي — عز وجل — ومقتهم . زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا وستروا البيوت وزخرفوها ، ويقولون : « مَنْ حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » [1] ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه . إنما جعل الله ذلك لأولياء الشيطان . الزينة ما رُكِبَ ظَهْرُه ، والطيباتُ ما جعل الله تعالى في بطونها ، فيعمد أحدهم إلى نعمة الله عليه فيجعلها ملاعب لبطنه وفرجه وظهره . ولو شاء الله — إذ أعطى العباد ما أعطاهم — أباح ذلك لهم ، ولكن تعقبها بما يسحون : « فكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين [2] » فمن أخذ نعمة الله وطُعمتَه أكل بها هنيئاً مريئاً ، ومَنْ جعلها ملاعب لبطنه وفرجه وعلى ظهره جعلها وبالاً يوم القيامة » [3] .

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .

(٣) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ١ ص ١٥٣ — ١٥٤ . والغلول : الخيانة — غل الرجل غلولا : خان . والطعمة : المأكلة والرزق . والعلج : الكافر ، والجمع علوج وأعلاج ومعلوجاء وعلجة .

ويتصل بهذا المعنى ما قاله الحسن البصري حين رأى الدار التي بناها الحجّاج بواسط . فإنه زارها فلما شاهدها قال :

« الحمد لله ! إن الملوكَ لَيَرَوْنَ لأنفسهم عِزّاً ، وإنّا لنرى فيهم كلَّ يوم عِبَراً : يَعْمِد أحدُهم إلى قصرٍ فيشيّده ، وإلى فرشٍ فينجّده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسّنها . ثم يحفّ به ذبابُ طمعٍ وفراش نارٍ ، وأصحاب سوء ، فيقول : « انظروا ما صنعتُ » ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أمّا أهل السموات فقد مقتوك ، وأمّا أهل الأرض فقد لعنوك . بَنَيْتَ دار الفناء ، وخرّبْتَ دار البقاء ، وغُرِرْتَ في دار الغرور لتذلّ في دار الحبور » . ثم خرج وهو يقول : « إن الله سبحانه أخذَ عهده على العلماء ليُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه » .

وبلغ الحجاجَ ما قال . فاشتدّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام ! أيشتمني عَبْدٌ من عَبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ! ثم أمر بإحضاره ، فجاء وهو يحرّك شفتيه بما لم يُسْمَع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : « يا أبا سعيد ! أمَا كان لإمارتي عليك حقّ حين قلْتَ ما قلتَ » ؟ فقال : « يرحمك الله أيها الأمير ! إنَّ مَنْ خوّفك حتى تبلغ أمْنَك أرفقُ بك وأحبُّ فيك مِمّن أمّنك حتى تبلغ الخوف . وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك . والأمران بيدك : العفو ، والعقوبة . فافعل الأوْلَى بك وعلى الله فتوكّلْ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل». فاستحيا الحجّاجُ منه واعتذر إليه وأكرمه وحباه »[1] .

وردُّ الحسن البصري هنا يمثل موقف الحسن البصري بعامة أمام الحكام ، كما رأيناه من قبل . يعظ وينهر ، لكن حين الصدام مع الموعوظ أو المنتهر

(١) « الحسن البصري » لابن الجوزي ص ٥٣ ؛ و « المنية والأمل » لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ، و « أمالي » السيد المرتضى ١ : ١١٢ ؛ و « جمهرة خطب العرب » جمع أحمد زكي صفوت ، جـ ٢ ص ٤٧٥ ، ٤٧١ ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

يتلطف ويكاد يتراجع ويستسلم . وتلك كانت طبيعة الرجل، فلا يطلب منه أحدٌ أكثر من هذا . فمبدؤه هو دائماً مبدؤه: لا خروج، ولا كتمانَ، أي لا تمرد ولا عنف؛ ولكن لا كتمان لما يعتقد أنه حق. يقول رأيه، ولا يلجأ الى العنف في الدفاع عنه، ولا يحتمل الاستشهاد في سبيله . إنه ديمقراطي بكل معنى الكلمة: يصرّح برأيه ولكنه لا يلجأ إلى العنف وليس مستعداً للصدام مع السلطة أبداً.

وفي رواية أخرى لهذه المقابلة بين الحجاج والحسن البصري ما يؤكّد المعنى نفسه . تقول هذه الرواية إنه لما دخل الحسن البصري على الحجاج لماأن استدعاه « قال له الحجّاج : هاهنا ! وأجلسه قريباً منه وقال : ما تقول في عَلِي وعثمان ؟ قال : أقول قَوْلَ مَنْ هو خيرٌ مِنّي عند مَنْ هو شر منك : قال فرعون لموسى : « فما بالُ القرون الأولى ؟ قال : عِلْمُهَا عند رَبّي في كتاب لا يضلُّ ربي ولا يَنْسى » [1] — عِلْمُ عَلِيٍّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيّد العلماء يا أبا سعيد ! » ودعا بغاليةٍ [2] وغلّف بها لحيته » [3] .

فهو هنا لم يشأ الحكم على الخلاف بين عليّ وعثمان أو بالأحرى وأصحاب عثمان ، وكان بذلك مؤسس مذهب الإرجاء ، إذ يرجىء الحكم عليهما إلى أن يحكم الله بينهما يوم القيامة وهو أعدل الحاكمين .

* * *

ويتصل بهذا أيضاً وصفه لأصحاب رسول الله ، فقد وصفهم بنفس الصفات التي تطلبها في الحاكم أو الإمام العادل . فقد قال لما سئل عنهم : « ظَهَرَتْ منهم علامات الخير في السيماء والسَّمْت والهدى والصدق ، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد ، وممشاهم بالتواضع ، ومنطقهم بالعمل،

---

(١) سورة طه ٥١ — ٥٢ .
(٢) الغالية : الطيب .
(٣) المراجع نفسها .

ومطعمهم ومشربهم بالطيِّب من الرزق وخضوعهم بالطاعة لربّهم تعالى ، واستعادتهم للحق فيما أحبّوا وكرهوا ، وإعطاؤهم الحقّ مِنْ أنفسهم . ظمئت هواجرهم ، ونحلت أجسامهم ، واستخفوا بسخط المخلوقين (في سبيل) رضا الخالق . لم يُفْرِطوا في غضب ، ولم يحيفوا في جور ، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن . شغلوا الألسن بالذكر ؛ بذلوا دماءهم حين استنصرهم ، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم . ولم يمنعهم خوفُهم من المخلوقين . حَسُنَتْ أخلاقهم ، وهانت مؤونتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم لآخرتهم » [1] .

(١) « الحلية » لأبي نعيم ج ٢ ص ١٥٠ .

— ٤ —

رأي الحسن في الفقهاء

لم يكن الحسن البصري يقيم كبير وزن للفقهاء ، بل ينكرهم . ذكر صاحب « الحلية » : «عن عمران القصير قال : سألت الحسن عن شيء فقلت إن الفقهاء يقولون كذا وكذا . فقال (الحسن) : وهل رأيت فقيهاً بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهدُ في الدنيا ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه عز وجل » [1] .
فهو إذن ينكر على المترسّمين برسم الفقهاء أنهم فقهاء حقاً لأنهم ليسوا زاهدين ، وليسوا على بصيرة من دينهم إذ هم شكليون لا يرعون باطن العبادات ، ولأنهم لا يداومون على عبادة الله ، بل يكتفون بأداء الفروض في أوقاتها وينسون العبادة فيما بين ذلك .

وينعي على الفقهاء مما حكاتهم الشكلية في الشعائر الدينية ، دون أدنى اهتمام بالنيّات وخلوصها . وقد روى فرقد السبخي أقواله العنيفة ضد الفقهاء [2] . قال صاحب « القوت » :

« قال فرقد السبخي للحسن — رحمهما الله تعالى — في شيء سأله عنه . فأجابه : يا أبا سعيد ! إن الفقهاء يخالفونك . فقال : ثَكِلَتْكَ أمُّك ، فُرَيْقِد ! وهل رأيت بعينيك فقهاء ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع ، الكافّ عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم » .

---

(١) « الحلية » لأبي نعيم جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » جـ١ ص١٥٣ = جـ١ ص٣١٢ ، القاهرة سنة ١٩٦١م .

ـ٥ـ

آراء الفضلاء فيه

١ ـ وصف خالد بن صفوان الحسن البصري لمسلمة بن عبد الملك بالحيرة لما سأله هذا عن خبره وحاله ، فقال خالد : « أصلح الله الأمير ! أخْبرُكَ عنه بعلمٍ . أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعْلَمُ مَنْ قِبلي به : (هو) أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل. إن قعد على أمرٍ قام به؛ وإن قام على أمر قعد عليه. وإن أمر بأمر كان أعملَ الناس به، وإن نهى عن شيء كان أتْركَ الناس له. رأيته مستغنياً عن الناس ورأيت الناس محتاجين إليه. قال (مسلمة) : حَسْبك يا خالد ! كيف يضلّ قومٌ هذا فيهم ؟! [1] » .

٢ ـ ومن الأوصاف الجامعة لمناقبه ما قاله ثابت بن قرة (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ) أكبر علماء الصابئة :

قال أبو حيان التوحيدي في كتابه : « تقريظ الجاحظ » : « حدثني أبو سعيد السيرافي ـ وَهَمَّكَ من رجلٍ ، وناهيك من عالم ، وشَرْعُكَ من صدوق ـ قال : حدثنا جماعة من الصابئين الكتّاب أن ثابت بن قرة قال :

ما أحسد هذه الأمة العربية إلاّ على ثلاثة أنفس ، أوّلهم : عمر بن الخطاب ... والثاني الحسن بن أبي الحسن البصري : فقد كان من دراري

(١) « الحلية » لأبي نعيم جـ ٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

النجوم علماً وتقوى ، وزُهْداً وورعاً ، وعفّة ورقة ، وتألّهاً وتنزُّهاً ، وفقهاً ومعرفةً ، وفصاحة ونصاحة . مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول . وما أعرف له ثانيا ، لا قريباً ، ولا مدانياً . كان منظره وَفْقَ مخبره ، وعلانيته في وزن سريرته . عاش سبعين سنة لم يُعْرَف بمقالة شنعاء ، ولم يُزَنّ بريبة (١) ولا فحشاء . سليم الدين . نقيّ الأديم ، محروس الحريم . يجمع مجلسُه ضروباً من الناس وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه : هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يُلَقّن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلالَ والحرام . وهذا يتبع في كلامه ، وهذا يجرّد له المقالة ، وهذا يحكي له الفُتْيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة ، وهو في جميع ذلك كالبحر العجّاج تدفقاً ، وكالسراج الوهّاج تألقاً ؛ ولا تَنْسَ مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل واللفظ الجزل ، والصدر الرَّحْب ، والوجه الصُّلْب ، واللسان العضب ، كالحَجّاج وفلان وفلان — مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنيه لائمة في الله ، ولا تذهله رائمة عن الله ، يجلس تحت كرسيّه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبي إسحق صاحب النحو ، وفرقد السَّبَخي صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ، ومَنْ ذا يجري مجراه ؟ والثالث أبو عثمان الجاحظ » (٢) ...

٣ — وقال أبو طالب المكي في « قوت القلوب » عن الحسن البصري : « كان الحسن — رضي الله عنه — أولَ مَنْ أنهج سبيلَ هذا العلم ، وفتق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره ، وكشف به قناعه . وكان يتكلم فيه بكلامٍ لم يسمعوه مِنْ أحدٍ من إخوانه . فقيل له : يا أبا سعيد ! إنك

(١) لم يزن : لم يتهم .

(٢) أوردها السندوبي في مقدمة نشرته لكتاب « المقابسات » لأبي حيان التوحيدي ، ص ٥٢ — القاهرة سنة ١٩٢٩ م .

تتكلم في هـذا العلم بكـلام لم نسمعه من احد غيرك . مِمّن أخذت هذا ؟ فقال : مِن حذيفة بن اليمان . قيل ، وقالوا لحذيفة بن اليمان : نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمن أين أخذته ؟ فقال : خَصّني به رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان الناس يسألونه عن الخير ، وكنتُ أسأله عن الشّرّ مخافةَ أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني ... وكان حذيفة قد خُصّ بعلم المنافقين . وأُفرِد بمعرفة علم النفاق ، وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة . فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسألونه عن الفتن العامّة والفتن الخاصّة ، ويرجعون إليه في العلم الذي خُصّ به ، ويسألونه عن المنافقين ... وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئاً من النفاق، فبرّأه منه »[1] .

٤ – وثم أقوال أخرى صغيرة متفرقة ، نذكر منها :

أ – قال عنه محمد بن علي بن الحسين : ذاك الذي يشبه كلامه كلامَ الأنبياء »[2] .

ب – الأعمش قال : « ما زال الحسن البصري يعي الكلمة حتى نطق بها » (الموضع نفسه)

جـ – عن أيوب السختياني قال : « لو رأيت الحَسَن لقلت إنك لم تجالس فقيها قط » (الموضع نفسه) .

---

(١) أبو طالب المكي : « قوت القلوب » جـ ١ ص ٣٠٥ . القاهرة ، سنة ١٩٦١ .
(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٢ ص ٤٧ .

-٦-

تلاميذ الحسن البصري

اجتمع حول الحسن البصري خلق كثير من طالبي العلم والفقه في الدين والعبادة. ولكن يظهر من بعض الأخبار [١] أنه كان يستصفي منهم: مالك بن دينار، وأيوب السختياني، وثابت البناني، ومحمد بن واسع، وفرقد وعبد الواحد بن زيد - فكان يخلو بهم في بيته للعبادة والتفكّر. فلنذكر بعض المعلومات عن هؤلاء:

١ - أما أيّوب السختياني، فهو أيّوب بن أبي تميمة السختياني، ويكنى أبابكر؛ وكان مولى لعنَزَة، إحدى القبائل التي لا تزال قوية حتى اليوم في نجد. ووُلِد أيوب سنة ٦٨ هـ، ومات بالطاعون في البصرة سنة احدى وثلاثين ومائة، وهو يومئذٍ ابن ثلاث وستين سنة [٢].

« وكان أيوب ثقةً ثبتاً في الحديث، جامعاً، عَدْلاً، ورعاً، كثير العلم، حجة » [٣]. وقال عنه أستاذه الحسن البصري: « هذا سيّد الفِتْيان » [٤].

---

(١) أبو طالب المكي: « قوت القلوب » جـ ١ ص ٣٠٤، القاهرة سنة ١٩٦١، مطبعة مصطفى الحلبي.

(٢) « طبقات » ابن سعد جـ ٧ ص ٢٥١، بيروت سنة ١٩٥٨.

(٣) الكتاب نفسه جـ ٧ ص ٢٤٦.

(٤) الكتاب نفسه جـ ٧ ص ٢٤٧.

وكان إذا سئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال : سَلْ أهل العلم . وكان كثيراً ما يقول : « لا أدري » حتى قال حماد بن زيد : « ما رأيتُ أحداً أكثَرَ مِنْ قول « لا أدري » من أيّوب ويونس » .

وكان يحب ستر زهده ويقول : « لأنْ يستر الرجل زهده خيرٌ له من أن يظهره » (الموضع نفسه ، ص ٢٤٩) . وحجّ أيوب أربعين حجة ، وكان عبيدالله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نور الله قلوبهم بالايمان ، منهم أيوب [١] .

وكان صديقاً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فلما تولى يزيد الخلافة (سنة هـ) ، قال أيوب « اللهم أنْسِهِ ذكري » ! [٢] . وكان شديد التبسّم في وجوه الناس .

ومن كلمات أيوب :

أ — « لا يستوي العبد — أو لا يسود العَبْدُ — حتى تكون فيه خصلتان : اليأس مما في أيدي الناس ، والتغافل عما يكون منهم » (الكتاب نفسه جـ ٣ ص ٥) .

ب — « الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء : أَحَبُّها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها ثواباً عند الله تعالى : الزهد في عبادة مَنْ عُبِد دون الله من كل ملك ، وصنم ، وحجر ، ووثن . ثم الزهد فيما حرّم الله تعالى من الأخذ والإعطاء . ثم يُقْبل علينا فيقول : زهدكم هذا يا معشر القرّاء فهو والله أخسّه عند الله ؛ الزهد في حلال الله عز وجل » .

جـ — وكان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الإيمان وحقائقه

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٣ ص ٤ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٣ ص ٦ .

ووثائقه ، وكريمَ ما مَنَنْتَ به عليّ من الأعمال التي ينال بها منك حُسْنُ الثواب . واجعلنا ممّن يتقيك ويخافك ويرجوك ويستحييك . اللهم استُرْنا بالعافية » .

د — « ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهاداً ، إلاّ ازداد من الله بُعْداً » .

هـ — « إن قوماً يتنعمون ويأبى الله إلاّ أن يضعهم ؛ وإن أقواماً يتواضعون ، ويأبى الله إلاّ أن يرفعهم » .

و — ما أفْسَدَ على الناس حديثهم إلاّ القُصّاص » .

ز — « إذا لم يكن ما تريد ، فأَرِدْ ما يكون » [1] .

وكان ينصح بالعمل لاكتساب الرزق ، لأن الغنى من العافية » كما قال (« الحلية » ج ٣ ص ١٠) . ولأن المرء لا يزال كريماً على اخوانه طالما لم يَحْتج إليهم (الكتاب نفسه ج ٣ ص ١١) .

وقد أسند أيوب الحديث عن أنس بن مالك ، وعمرو بن سلمة الجرمي ؛ ومن قدماء التابعين : عن أبي عثمان الهندي ، وأبي رجاء العطاردي ، وأبي العالية والحسن البصري ، وابن سيرين ، وأبي قلابة الجرمي .

٢ — فَرْقَد السَّبَخي

وهو أبو يعقوب فَرْقَد بن يعقوب السبخي [2] (بالسين فالباء فالخاء المعجمة)

---

(١) كل الأقوال التي أوردناها جاءت في « الحلية » لأبي النعيم ج ٣ ص ٥ — ص ١٢ .

(٢) في « الأنساب » للسمعاني : « السبخي : من ثقات التابعين ، يروى عن حفص بن عاصم ؛ روى عنه مالك بن أنس وحسبه شرفاً أن يروي عنه مالك ، إذ كان لا يروي إلا عن الثقات العلماء الحفاظ » (ص ٣١٣ ب س ١٨ — ١٩) .

وكان ضعيفاً منكر الحديث . قال حماد بن زيد : « سألت أيوب (= السختياني) عن فرقد فقال : ليس بصاحب حديث »[1] . وتُوُفِّي في أيام الطاعون بالبصرة سنة احدى وثلاثين ومائة ، مثل أيوب السختياني .

وقد أثرت عنه أقوال ؛ ومن الغريب أنه في بعضها يقول إنه قرأ ذلك في « التوراة » ! . ومن هذه الأقوال :

أ — قال فرقد السبخي : « قرأتُ في التوراة : أُمّهات الخطايا ثلاث : أول ذنب عُصِي الله به : الكِبْرُ ، والحسد ، والحرص . فاستُل من هؤلاء الثلاث ست ، فصاروا تسعاً : الشبع ، والنوم ، والراحة ، وحبُّ المال ، وحبُّ الجماع ، وحبّ الرياسة »[2] .

ب — « ويلٌ لذي البطن من بطنه : إن أضاعه ضَعُف ، وإن أشبعه ثَقُل » (الموضع نفسه)

جـ — « قرأت في التوراة : مَنْ أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربّه . ومَنْ جالس غنياً فتضعضع له ذهب ثلثا دينه . ومَنْ أصابته مصيبةٌ فشكاها إلى الناس فكأنّما يشكو ربه عز وجل » (الكتاب نفسه جـ ٣ ص ٤٦) .

د — « إن ملوك بني إسرائيل كانوا يقتلون قُرّاءهم على الدين ، وإن ملوككم إنما يقتلونكم على الدنيا . فدَعُوهم والدنيا » (الموضع نفسه)

هـ — وقال فرقد : « قال عيسى بن مريم : طوبى للناطق في آذان قومٍ يسمعون كلامه ! إنه ما تصدّق رجلٌ بصدقة أعظم أجراً عند الله تعالى من موعظة قومٍ يصيرون بها إلى الجنة » (الموضع نفسه) .

---

(١) « طبقات ابن سعد » جـ ٧ ص ٢٤٣ .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٣ ص ٤٥ .

و — إذا عُصِم الرجل من ذنب سَبْعَ سنين لم يَعُدْ فيه » (الموضع نفسه)

ز — عن جعفر قال : غدوت على فرقد يوماً ، فسمعته يقول : إني رأيت الليلة في المنام كأنّ منادياً ينادي من السماء : يا أصحاب القصور ، يا أصحاب القصور ، يا أشباه اليهود ! إن أُعْطيتم لم تَشْكروا ، وإن ابتليتم لم تصبروا . ليس فيكم خيرٌ بعد العذاب » (الموضع نفسه)

ح — « عن عبد الواحد بن زيد قال : سمعت فرقد السبخي يقول : ما انتبهتُ من نومٍ لي قط إلاّ ظننت مخافة أن أكون قد مُسِخْتُ » (الكتاب نفسه ، ج ٣ ص ٤٧) .

ط — « عن ابن شوذب قال : سمعت فرقد يقول : إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ؛ ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه ، فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نَقِيّيْنِ . وأنتم تلبسون ثياب الفراغ قبل العمل ! » (« الحلية » ج ٣ ص ٤٧) .

ى — « الغريب مَنْ ليس له حبيب » (الموضع نفسه) .

يا — « عن عمران قال : دُعِي الحسن (= البصري) إلى طعام . فنظر إلى فرقد وعليه جُبّة صوف ، فقال : يا فرقد ! لو شهدت الموقف لحرقت ثيابك مما ترى من عفو الله تعالى » (الموضع نفسه) .

وقد أسند فرقد السبخي عن أنس بن مالك ؛ وسمع الحديث من ربعي بن خراش ، ومُرّة الطيب ، وابراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وجابر بن زيد أبي الشعثاء .

والشيء الذي يلفت النظر في هذه الأقوال ما يزعم فرقد أنه قرأه في التوراة وما ينقل من قول عن عيسى بن مريم . ويظهر أنه كان على صلة بالتراث اليهودي والمسيحي أو برجال هذا التراث . ومن الدلالة على ذلك

أيضاً ما أسند إليه من حديث غريب انفرد به ، وهو : « نعم الإخوة لكم بنو اسرائيل : كانت فيهم المُرّة ، وفيكم الحُلْوة » . وقد علق عليه أبو نعيم في « الحلية » قائلاً : « تفرّد به عن فرقد حماد بن سلمة . ولا أعلمه رواه عنه غير عفان » (أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٣ ص ٥٠ س ٦ — ٧) . ومن الدلائل أيضاً قوله في رقم ز هنا : « يا أشباه اليهود ! » (« حلية الأولياء » ج ٣ ص ٤٦ س ٢٠) .

٣ — مالك بن دينار

ويكنى أبا يحيى ، وكان مولى لامرأة من بني سامة بن لؤيّ . « وكان ثقةً ، قليل الحديث . وكان يكتب المصاحف . ومات قبل الطاعون بيسير . وكان الطاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة » [١] .

أ — ومَثَلُه مَثَلُ فرقد السبخي : تُنْسَب إليه أقوال قرأها في « التوراة » ونبدأ بها في ذكر أقواله :

أ — « قرأت في التوراة : أيها الصّدّيقون ! تنعّموا بذكر الله في الدنيا ، فإنه لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء عظيم » [٢] .

ب — « حدثنا جعفر قال : سمعت مالكاً يقول : قرأت في التوراة : ابنَ آدم ! لا تعجز أن تقوم بين يديّ في صلاتك باكياً ، فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نوري . قال مالك : يعني تلك الرقة وتلك الفتوح التي يفتح الله لك منه » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٥٩) .

جـ — « قال : بلغني أن بني اسرائيل خرجوا إلى مخرج لهم ، فقيل لهم : يا بني اسرائيل ! تَدْعونني بألسنتكم وقلوبكم بعيدة عنيّ ؟! باطلٌ

(١) « طبقات » ابن سعد ج ٧ ص ٢٤٣ .

(٢) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٢ ص ٣٥٨ .

ما تذهبون » (الحلية » ج ۲ ص ٣٦٢) .

د — « قرأت في الحكمة أن الله يُبْغض كل حَبْرٍ سمين » « الحلية » ج ٢ ص ٣٦٢) .

ه — « قال : وُجِد في بعض الكتب : سبحوا الله ، أيها الصِّدِّيقون، بأصواتٍ حزينة » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٥٨) .

و — « قال : إن في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : إن أهونَ ما أنا صانعٌ بالعالِمِ إذا أحبَّ الدنيا أن أُخرِج حلاوة ذِكْري مِنْ قلبه » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٠) .

ز — « مالك بن دينار قال : قال موسى عليه السلام : يا ربِّ ! أين أبغيك ؟ قال : ابْغِنِي عند المنكسرةِ قلوبُهم » (« الحلية» ج ٢ ص ٣٦٤) .

ح — « قال جعفر : كنت عند مالك بن دينار ، فجاء هشام بن حسان ، وكان يأتيه هشام وسعيد بن أبي عروبة ، وحَوْشَب يطلبون قلُوبهم . فجاء هشام ، فقال : أين أبو يحيى ؟ قلنا : عند البقّال . قال : قوموا بنا إليه . قال : فحانت منه نظرة إلى هشام ، وقال : يا هشام ! إني أعطي هذا البقال كل شهر درهماً ودانقين ، وآخذ منه كل شهر ستين رغيفاً ، كلَّ ليلةٍ رغيفين ، فإذا أصبتهما سُخْناً فهو أُدْمهمَا . يا هشام ! إني قرأتُ في زبور داود عليه السلام : « إلهي ! رأيتَ همومي وأنت من فوق العُلى » . فانظر ما همومك يا هشام » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٨) .

ط — « قال : قال عيسى عليه السلام : بحقٍّ أقول لكم ! إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكـــلاب لقليلٌ في طلب الفردوس » . (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٩) .

ى — « سمعت مالك بن دينار يقول : في التوراة أن الله يبدّد عظام

رجلٍ – في يومٍ – يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين – تكلم بين اثنين بهوى » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٢) .

يا – « سمعت مالكاً يقول : كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجالُ والنساء فيعظهم ويذكّرهم بأيام الله . قال : فرأى بعض بنيه يوماً غمز للنساء . فقال : مهلا يا بني ! قال : فسقط عن سريره فانقطع نخاعه ، وأسقطت إمرأته ، وقتل بنوه في الجيش . فأوحى الله عز وجل – إلى نبيّهم عليه السلام أن أخْبر فلاناً الحبر أني لا أخرج من صَلبك صِدّيقاً أبداً . ما كان غضبك لي إلاّ أن قلتَ « يا بُنيّ مهلاً ! » » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٢ – ٣٧٣) .

يب – « قرأت في بعض الحكمة : لا خير لك – أو لا عليك – أن تعلمنّ ما لم تعلم ولا تعمل بما قد علمت ، فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً ، فحزمه حزمة ، فذهب ليحملها ، فعجز عنها – فضمّ إليها أخرى ! » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٥) .

يج – « قرأت في بعض الكتب : يُجاء براعي السوء يومَ القيامة ، فيقال : يا راعي ! شربت اللبن وأكلت اللحم ، ولم تُؤْوِ الضالّة ، ولم تجبر الكسير ، ولم ترعها حق رعايتها ، اليومَ أنتقم لهم منك » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٥) .

يد – « عن مالك بن دينار ، قال : قرأت في الزبور : بكبرياء المنافق يحترق المساكين . وقرأت في الزبور : إني لأنتقم من المنافق بالمنافق ، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً . ونظير ذلك في كتاب الله عز وجل: « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » (الأنعام ١٢٩) » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٦) .

يه – « عن مالك بن دينار قال : مكتوبٌ في التوراة : مَثَلُ امرأة حسناء لا تحصِّن فَرْجَها كمثل خنزيرة على رأسها تاج ، وفي عنقها طوق من

ذهب – يقول القائل : ما أحسن هذا الحلي وأقبح هذه الدابة !! (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٧) .

يو – « عن مالك بن دينار قال : « مكتوب في الزبور : طوبى لمن لم يسلك طريق الأثمة ولم يجالس البطالين ، ولم يقم في هوى المستهزئين ، إنما همُّه حكمة الله : لها يطلب ، وبها يتكلم، فمثله مثل شجرةٍ في وسط الماء لا يتساقط من ورقها شيء، وكلُّ عملٍ هذا تامٌ ، لا يذهبُ منه «شيء»[1] » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨١).

يز – « عن مالك بن دينار قال : « مرّ عيسى بن مريم مع الحواريين على جيفة كلب . فقال الحواريون : « ما أنتن ريح هذا » ! فقال عيسى : « ما أشدّ بياض أسنانه ! » [2] – يعظهم وينهاهم عن الغيبة» (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨٣) .

يح – « عن مالك بن دينار قال : دخل عيسى بن مريم مسجد بيت المقدس ، وهم يتبايعون [3] فيه . فجعل ثوبه مخراقاً وسعى عليهم ضرباً ، وقال : يا بني الحيّات والأفاعي ! اتخذتم مساجد الله أسواقاً [3] » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨٣) .

---

(١) هذا بعينه هو نص المزمور الأول من مزامير داوود، عبارة ١–٣ في الكتاب المقدس: طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار ، وفي طريق الخطاة لم يقف ، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس ، لكن في ناموس الرب مسرته ، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلا ؛ فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه ، تعطي ثمرها في أوانه ، وورقها لا يذبل ؛ وكل ما يصنعه ينجح » .

(٢) أي يبيع بعضهم لبعض .

(٣) ورد بنصه تقريباً في انجيل متى الاصحاح الحادي والعشرون ، العبارات ١٢ – ١٣ : « ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام . وقال لهم : مكتوب : بيتي بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » . ونظيره في انجيل مرقص اصحاح ١١ العبارات ١٥ – ١٧ ؛ وفي انجيل لوقا إصحاح ١٩ العبارة ٤٥ – ٤٦ .

يط — « سمعت مالك بن دينار يقول : « أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى ! عظ نفسك ؛ فإن اتعظت فعِظ الناس ، وإلاّ فاستْحِي منّي » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨٢)

ك — وقال مالك بن دينار : « كان عيسى بن مريم عليه السلام — إذا مرّ بدارٍ قد مات أهلها ، وقف عليها فنادى : وَيْحَ أربابك الذين يتوارثونك ، كيف لَم يعتبروا فعلك باخوانهم الماضين ! » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨٦) .

ونقف قليلاً عند أقواله التي أوردناها حتى الآن لنلاحظ ما يلي :

١ — أن مالك بن دينار كان واسع الاطلاع على الكتاب المقدس بقسميه : العهد القديم ، والعهد الجديد . ونقوله عنهما نقول صحيحة وردت في الكتاب المقدس ، وليست من نوع تلك الأقاويل التي يعزى وجودها إلى « التوراة » و « الزبور » ولا توجد فيهما .

٢ — أن ثمّ خبراً أورده صاحب « الحلية » يفسّر هذا الاطلاع ويدل دلالة قاطعة على غشيانه الأديرة . قال أبو نعيم : « حدثنا أبو بكر الآجري ، قال : حدثنا عبدالله بن محمد ، قال : حدثنا ابرهيم بن الجنيد ، قال : حدّثنا الحسن بن عرفة ، قال : حدثنا المبارك بن سعيد عن عَبّاد بن كثير ، عن مالك بن دينار ، قال : كنت مولعاً بالكتب أنظر فيها . فدخلت ديراً من الديارات ليالي الحجّاج . فأخرجوا كتاباً من كتبهم ، فنظرت فيه ، فإذا فيه : يا ابن آدم ! لِمَ تطلب عِلْمَ ما لم تعلم ، وأنت لا تعمل بما تعلم ؟ [1] » .

وهذا الخبر يفسّر لنا إذن سرّ اطلاع مالك بن دينار الواسع على « الكتاب المقدس » ، ولا بد أن اطلاعه كان على ترجمة عربية ، لأننا لا نعرف أن مالك بن دينار ، كان يعرف السريانية ؛ وعن هذه الترجمة العربية للكتاب المقدس حفظ ما حفظ وما أوردها هنا من عباراته ، ولا بد أنه كان ينقل هذه

---

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ، ج ٢ ص ٣٧٥ . القاهرة ، سنة ١٩٣٣ .

العبارات لنفسه ليحفظها فيما بعد ؛ أو ربما كان يقتني نسخة من « الكتاب المقدس » نفسه في ترجمة عربية أو فارسية .

٣ — ويلاحظ كذلك أن في بعض أقوال له أخرى يستلهم بعض ما ورد في الانجيل من عبارات ، دون أن يذكر أنه ينقل عن الانجيل . ومن ذلك قوله : « يا هؤلاء ! إن الكلب إذا طرح إليه الذهب والفضة لم يعرفهما ؛ وإذا طرح إليه العظم أكبَّ عليه ، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق » (١) . فهذا القول قد نظر فيه إلى قول المسيح في انجيل متى (الإصحاح السابع ، عبارة ٦) : « لا تعطوا القُدْسَ للكلاب ، ولا تطرحوا دُرَرَكم قدّام الخنازير لئلاّ تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزّقكم » .

* * *

وزهد مالك بن دينار قريب من التصوف . ولهذا يمكن أن يعد حلقة وسطى بين الزهد كما يمثله الحسن البصري ، وبين التصوف كما يظهر عند رابعة العدوية ومعروف الكرخي .

ذلك أنه أخذ يدعو إلى أمور لا نراها عند الزهاد السابقين :

١ — من ذلك دعوته إلى التجرد ، أي عدم الزواج .

ويدل على هذا سلوكه هو ، فقد امتنع من الزواج ، ولما قيل له : « ألا تتزوج ؟ فقال : لو استطعتُ لطلّقتُ نفسي » (٢) ؛ وكذلك قوله : « لا يبلغ الرجلُ منزلة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوي إلى مزابل الكلاب » (٣) . ثم القصة الخاصة بأحد أغنياء البصرة ، وكانت له ابنة نفيسة فائقة الجمال . وقد خطبها بعض بني هاشم فأبت فقال لها : « أراك تريدين

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٢ ص ٣٦٠ ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .
(٢) « الحلية » جـ ٢ ص ٣٦٥ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٣٥٩ .

مالك بن دينار وأصحابه ؟ فقالت هو والله غايتي » . فقال الأب لأخ له : إئت مالكَ بنَ دينار فأخبره بمكان ابنتي وهواها له . قال : فأتاه فقال له : فلان يقرئك السلام ، ويقول لك : إنك تعلم أني أكثر أهل هذه المدينة مالاً ، وأفشاهم صنيعة ، ولي ابنة نفيسة ، وقد هَوِيَتْكَ ، فشأنك وهي . فقال مالك للرجل : عجباً لك يا فلان ! أوَ ما تعلم أني قد طلقتُ الدنيا ثلاثـاً ؟ ! [1] .

٢ ــ الافراط في الزهد :

من ذلك قوله في زهده في الطعام ، قال : « ما أكلْتُ العامَ رُطْبة ولا عنبة ولا بطيخة ــ فجعل يعدّ كذا وكذا ــ ألستُ أنا مالكَ بن دينار ؟! » [2] . وقال مرة لرجل من أصحابه : إني لأشتهي رغيفاً ليّناً بابنِ رائب . فانطلق فجاء به . « فجعل مالك يقلّبه وينظر إليه ، ثم قال : اشتهيتك منـذ أربعين سنة فَغَلَبْتُكَ ، حتى كان اليومُ وتريد أن تغلبني ؟! إليك عني ! وأبى أن يأكله » (الكتاب نفسه ، ج ٢ ص ٣٦٦) . وسُمِعَ يقول : « إنه لتأتي عليّ السّنة لا آكل فيها لحماً إلاّ في يوم الأضحى ، فإني آكل من أضْحيتي » (الموضع نفسه) . وقال مرةً : « اشتريتُ لأهلي طِيباً بدرهم ، وإني لأحاسب نفسي فيه منذ عشرين سنة ، فما أجد له مخرجاً » (الموضع نفسه) . وكان أُدْمُه كلّ سنة ملحاً بفلسين . وكان يتكسب من شيئين : من عمل الخوص ، ومن نسخ القرآن . سُمِع مالك بن دينار يقول : « دخل عليَّ جابر بن يزيد وأنا أكتب . فقال : يا مالك ! ما لَكَ عملٌ إلاّ هذا : تنقل من كتاب الله من ورقة إلى ورقة ؟ هذا والله الكسبُ الحلال » (الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٦٧) . وكان يكتب المصاحف ولا يأخذ عليها من الأجر أكثر من عمل يده . وكان يكتب المصحف في أربعة أشهر .

---

(١) الكتاب نفسه ، ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٦٦ .

كذلك كان في ملبسه في غاية الزهد : وكان يقول : « لو صلح لي أن أعمد إلى بُرْدٍ لي فأقطعه باثنتين فأتزّر بقطعة وأرتدي بقطعة – لفعلتُ » (الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٣٦٧) . وكان يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة ؛ فإذا كان الشتاء ففرو وكبل وعباءة .

وقد اعترف له الحسن البصري بأنه لا يقدر على أن يجاريه في شدّة زهده . قال مالك : « لما وقعت الفتنة أتيتُ الحَسَن أسأله : يا أبا سعيد ! ما تأمرني؟ فلا يجيبني . فقلت : يا أبا سعيد ! أتيتك ثلاثة أيام أسألك وأنت معلمي فلا تجيبني . والله لقد هممتُ أن آخذ الأرض بقدمي ، وأشرب من أفواه الأنهار ، وآكل من بقل البرّيّة حتى يحكم الله بين عباده . قال : فأرسل الحَسَن عينيه باكياً ، ثم قال : يا مالك ! ومَنْ يطيق ما تطيق؟! لكنّنا والله ما نطيق هذا »[1] .

ومن غرائب اقواله في الزهد ، قوله : «لولا أن يقول الناس : جُنّ مالكٌ – لَلَبِسْتُ المسوح ووضعتُ الرماد على رأسي ، أنادي في الناس : من رآني فلا يَعْصِ ربّه عز وجل »[2] .

فمثل هذه الصيحات إنما نجدها بعد ذلك بأكثر من قرن ، عند الحلاج .

* * *

وفي الوقت نفسه نراه يتابع رسالة أستاذه الحسن البصري :

١ – في نصح الولاة . إذ يذكر أنه دخل « على والي البصرة ، فقال له الوالي : ادْعُ لي . فقال : كم من مظلومٍ بالباب يدعو عليك ! »[3] . ومرّ المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته . فقال له

(١) « الحلية » جـ ٢ ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .
(٢) الكتاب نفسه ، جـ ٢ ص ٣٧١ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٣٨٥ .

مالك : أما علمت أن « هذه المشتية تكره إلاّ بين الصفّين ؟ فقال له المهلّب : اما تعرفني ؟ فقال له : أعرفك أحسن المعرفة . قال (المهلب) : وما تعرف عني ؟ قال (مالك) : أمّا أوّلك فنطفة مَذِرة ، وأما آخرك فجيفة قَذرة ، وأنت بينهما تحمل العَذِرة. قال : فقال المهلب : الآن عرفتني حق المعرفة » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨٥) .

وفي هذا المعنى من تحقير أبهة الملك في الدنيا نجد رواية أخرى ، عن مالك بن دينار ، « قال ؛ كنت عند بلال بن أبي بردة [1] وهو في قبة له ، فقلت : قد أصبتُ هذا خالياً ، فأيّ قصص أقص عليه ؟ فقلت في نفسي : ما له خيرٌ من أن أقصّ عليه ما لقي نظراؤه من الناس . فقلت له : أتدري مَنْ بنى هذا الذي أنت فيه ؟ بناها عُبَيْدُ الله بن زياد ، وبنى البيضاء ، وبنى المسجد ؛ فولّى ما ولّى ، وصار من أمره أن هرب ، فطُلِب فقُتِل . ثم ولي البصرة بشر بن مروان ، فقالوا : أخو أمير المؤمنين . فمات بالبصرة ، فحملوه ، وحشد الناس في جنازته . ومات زنجيّ ، فحمله الزنج على طن قصب . فذُهِب بأخي أمير المؤمنين فدفنوه ، وذُهِب بالزنجي فدفنوه . ثم جعلتُ أقصُّ عليه أميراً أميراً حتى انتهيت إليه . فقلت في نفسي : قد بنيت داراً بالكوفة ، فلم ترها حتى أُخِذَت فسُجنت فعذبت ، حتى قتل فيها » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٨٠) .

---

(١) بلال بن أبي بردة الأشعري تولى القضاء في البصرة كما تولى الشرطة والقضاء في سنة ١١٠ وذلك بقرار من خالد بن عبدالله القسري والي العراق ، واستمر على ذلك حتى عزل هشام بن عبد الملك خالداً بن عبدالله سنة ١٢٠ وولى يوسف بن عمر ؛ فعزل يوسف بلالا ، وولى مكانه أبا القارح كثير بن عبدالله السلمي . وكان ظلوماً في قضائه . فشكاه خالد بن صفوان ؛ فأمر يوسف بحمل بلال مقيداً في الحديد ، ثم هرب بلال إلى الشام واختفى به ، وعثر به بعد ذلك فأخذ وأرسل إلى يوسف بن عمر والي الكوفة فعذبه حتى قتله . راجع « أخبار القضاة» تأليف وكيع محمد بن خلف بن حيان ، ج ٢ ص ٢١-٤١ ؛ القاهرة سنة ١٩٤٧ ؛ شارل پلا : «بيئة البصرة وتكوين الجاحظ» ص ٢٨٨ ، وما يتلوها.. Ch. Pellat : Le milieu basrien. قال الطبري (أخبار سنة ١٢٠ ج ٢ ص ١٦٥٨) : « كان بلال قد اتخذ داراً بالكوفة . وإنما استأذن خالداً لينظر إلى داره ، فما نزلها إلا مقيداً ثم جعلت سجناً إلى اليوم » .

وثم رواية أخرى عن قولة قالها لما لقي بلال بن أبي بردة في الطريق والناس يطوفون حوله ؛ فقال له بلال : أما تعرفني ؟ « قال : بلى ! أعرفك : أولك نطفة ، وأوسطك جيفة ، وأسفلك دودة » (« الحلية » جـ ٢ ص ٣٨٥) وهي تشبه تماماً قولته للمهلب التي ذكرناها منذ قليل .

٢ — وفي الوعظ البالغ الذي يدور حول تحقير الدنيا والزهد فيها والتزام الفقر والحزن . ومن ذلك قوله :

أ — « إذا لم يكن في القلب حُزْنٌ خَرِب ، كما إذا لم يكن في البيت ساكنٌ يخرب » (١) .

ب — وكان يقول في دعائه : « اللهم أَقْبِل بقلوبنا إليك حتى نعرفك حَسَناً ، وحتى نرعى عهدك وحتى نحفظ وصيّتك حسناً . اللهم سوّمنا سيما الأبرار ، وألْبِسْنا لباس التقوى ؟! اللهم إنّا نتوب إليك قبل الممات ، ونلقى بالسلام قبل اللزام ! اللهم انظر إلينا منك نظرةً تجمع لنا بها الخير كله : خيرَ الآخرة ، وخيرَ الدنيا » . ويقف مالك عند كلامه هذا ويقول : « يَحْسِبون أني أعني بخير الدنيا الدينارَ والدرهم . لا ! إنما أعني العمل الصالح — حتى ألْقاك يومَ ألقاك . وأنت عني راضٍ ، رغبةً ورهبةً إليك يا إله السماء وإله الأرض » ثم يبكي بكاءً خفيفاً (٢) .

حـ — وقال في وصف الصدق ، وهو يكثر من ذكر الصدق والصدّيقين في كلامه :

« إن الصدق يبدو في القلب ضعيفاً ، كما يبدو نبات النخلة : يبدو غصناً واحداً ، فإذا نتفها صبيٌّ ذهب أصلها ؛ وإن أكلتها عنز ذهب أصلها . فتسقى فتنتشر ، وتسقى فتنتشر ، حتى يكون لها أصل أصيل يوطأ ، وظل

---

(١) « الحلية » جـ ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) « الحلية » جـ ٢ ص ٣٦٠ — ٣٦١ .

يستظلُّ به ، وثمرة يُؤْكل منها . كذلك الصدق يبدو في القلب ضعيفاً ، فيتفقده صاحبه ويزيده الله تعالى ، ويتفقده صاحبه ، فيزيده الله حتّى يجعله الله بركةً على نفسه ، ويكون كلامه دواءً للخاطئين . قال . ثم يقول مالك : أما رأيتموهم ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : بلى ! والله لقد رأيناهم : الحَسَن وسعيد بن جبير وأشباههم : الرجل منهم يحيى اللهُ بكلامه الفئام من الناس » [1] .

د — وكان يزجر حملة القرآن الذين لايفيدون منه في تقويم نفوسهم وسلوك سبيل الصلاح والتقوى . قال : « يا حَمَلَةَ القرآن ! ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض : فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحسُّ [2] فتكون فيه الحبّة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضّر وتَحْسُنَ . فيا حَمَلَةَ القرآن ! ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟! أين أصحاب سورة ؟ أين أصحاب سورتين ؟ ماذا عملتم فيهما ؟! » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩) .

وقال أيضاً : « إن من الناس ناساً إذا لقوا القرّاء ضربوا معهم بسهم ؛ وإذا لقوا الجبابرة وأبناء الدنيا أخذوا معهم بسهم . فكونوا من قُرّاء الرحمن ، بارك الله فيكم » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٣) .

هـ — ويحمل على زمانه فيقول : « إنكم في زمانٍ أشهب لا يبصر زمانكم إلاّ البصير ، إنكم في زمان كثُر فيه تفاخرهمْ ، قد انتفخت ألسنتهم في أفواههم ، وطلبوا الدنيا بعمل الآخرة . فاحذروهم على أنفسكم

(٣) « الحلية » ج ٢ ص ٣٥٩ — ٣٦٠ . والفئام (بكسر الفاء) : الجماعة من الناس ؛ ولا واحد له من لفظه ؛ وجمعه : فئوم (بضم الفاء والهمزة على الواو) .

(٤) الحس : برد يحرق الكلأ . وحواس الأرض : البرد والبرد والريح والجراد والمواشي — قيل لها ذلك لاستئصالها نبات الأرض . ويقال أيضاً : أصابتهم حاسة ، وذلك إذا أضر البرد وغيره بالكـلأ .

لا يوقعونكم في شباكهم » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٣) .

و — وينهى عن حب الدنيا فيقول : « إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعامٌ ولا شراب ولا نومٌ ولا راحة ؛ وكذلك القلب إذا علِقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة » [1] (الموضع نفسه) . وقال : « اصطلحنا على حبِّ الدنيا ، فلا يأمر بعضُنا بعضاً ، ولا ينهى بعضُنا بعضاً . ولا يَدَرُنا اللهُ على هذا . فليت شعري أيُّ عذاب الله ينزل ! » (الموضع نفسه) . وقال في الدنيا وخداعها : « اتّقوا السّحّارَة فإنها تسحر قلوب العلماء — يعني الدنيا » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٤) . وقال أيضاً في نفس المعنى : « مَنْ غَلَبَ شهوةَ الحياة الدنيا فذلك الذي يَفْرَق الشيطان من ظِلّه » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٦٥) . وقال أيضاً : « إن الله تعالى إذا أحب عبداً انتقصه من دنياه ، فكفّ عليه ضيعته ، ويقول : لا تبرَحْ من يدي . قال : فهو متفرّغ لخدمة ربه تعالى . وإذا أبغض عبداً دفع في نحره شيئاً من الدنيا ، ويقول : اغْرُبْ من يدي فلا أراك بين يديّ . فتراه معلّق القلب بأرض كذا وبتجارة كذا » (« الحلية » ج ٢ ص ٣٧٠) [2] . — وقال : « عَجَباً ممن يعلم أن الموت مصيره والقبر مورده — كيف تقرّ بالدنيا عينُه ، وكيف يطيب فيها عيشه ! ثم يبكي مالك حتى يسقط مغشياً عليه (« صفة الصفوة » ج ٣ ص ٢٠٠) — وقال : « خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها . قالوا : وما هو ؟ قال : معرفة الله عز وجل » (« صفة الصفوة » ج ٣ ص ٢٠٤) . — وقال : « إن الله جعل الدنيا دار مفرّ ، والآخرة دار مقرّ . فخذوا لمقركم من مفرّكم . وأخْرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم . ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم ، ففي الدنيا حييتم ، ولغيرها خلقتم . إنما مثل الدنيا كالسمّ : أكَلَه مَنْ لا يعرفه ، واجتنبه مَنْ يعرفه . مَثَلُ

(١) راجع هذا القول برواية أخرى في « صفة الصفوة » لابن الجوزي ج ٣ ص ٢٠١ ، حيدر آباد سنة ١٣٥٦ هـ .

(٢) وورد أيضاً في « صفة الصفوة » ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

الدنيا مَثَلُ الحيّة مسُّها ليّنٌ وفي جوفها السمّ القاتل ، يحذرها ذوو العقول ، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم » (« صفة الصفوة » ج ٣ ص ٢٠٦) .

في مواجيده

وكان مالك بن دينار كثير المواجيد . فكان كثيراً ما يغلق على نفسه باب الحجرة في بيته ويترنم بكلام غير مفهوم ، ويبكي بكاء شديداً ، ويشهق ويتنفس حتى يغشى عليه ، كما شهد بذلك عبد العزيز بن سلمان العابد ، وعبد الواحد بن زيد [(١)] .

وكان يحقق ما قاله عن الأبرار من أن « الأبرار يتواصون بثلاث : بسجن اللسان ، وكثرة الاستغفار ، والعُزْلة » [(٢)] .

ودخل المقابر ذات يوم « فإذا رجلٌ يدفن . فجاء حتى وقف على القبر ينظر إلى الرجل وهو يدفن . فجعل يقول : « مالكٌ غداً هكذا يصير ، وليس له شيء يتوسّده في قبره » . فلم يزل يقول : « غداً مالكٌ هكذا يصير » حتى خرّ مغشيّاً عليه في جوف قبره . فحملوه فانطلقوا به إلى منزله مغشيّاً عليـــه » [(٣)] .

وسمع قارئاً يقرأ : « إذا زُلْزِلَتْ الأرض زِلْزَالَها » فجعل ينتفض ، وأهل المجلس يبكون ويصرخون ، حتى انتهى القارىء إلى هذه الآية : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومَنْ يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » — فأخذ مالك يبكي ويشهق حتى غشي عليه ، فحُمل بين القوم صريعاً [(٤)] .

---

(١) « صفة الصفوة » ج ٣ ص ٢٠١ .
(٢) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٢٠٠ ؛ « الحلية » ج ٢ ص ٣٧٧ .
(٣) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٤) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٢٠٢ .

وكان دائم الحزن ، لأنه كان يقول : « إن القلب إذا لم يكن فيه حُزْنٌ – خَرِبَ ، كما أن البيت إذا لم يُسْكَن – يخرب »[1] .

ومن كلماته البليغة في هذا المعنى : « حدثنا جعفر قال : قلنا لمالك بن دينار : ألا تدعو قارئاً ؟ قال : إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة . فقلنا له : ألا تستسقي ؟ فقال : انكم تستبطئون المطر ، لكني أستبطيء الحجارة ! »[2].

ولما أوشك على الموت جعل يقول : لمثل هذا اليوم كان دؤوب أبي يحيى »[3] (يعني نفسه) .

ولما حضره الموت قال : « لولا أني أكره أن أصنع شيئاً لم يصنَعْه أحدٌ كان قبلي ، لأوصيتُ أهلي إذا أنا مُتُّ أن يقيّدوني وأن يجمعوا يدي إلى عنقي ، فينطلقوا بي على تلك الحال حتى أدفن ، كما يُصْنَع بالعبد الآبق »[4] .

ذلك أنه كان يرى أن « عُرْسَ المتقين يومُ القيامة »[5] . والموت هو الطريق إلى حضور هذا العُرْس . فلماذا لا يرحّب به !

تقويم

وهكذا نرى أن شخصية مالك بن دينار من الشخصيات الخطيرة في تطور التصوف الإسلامي . وهو يمثل حلقة الانتقال من مرحلة الزهد التي بلغت أوجها

---

(١) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٢٠٧ ؛ و « الحلية » ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) « صفة الصفوة » ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٤) الكتاب نفسه ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٥) « حلية الأولياء » ج ٢ ص ٣٨٠ .

عند الحسن البصري ، ومرحلة التصوف بالمعنى الدقيق التي ستبدأها رابعة العدويـــــة .

وهو أول شخصية صوفية امتزجت فيها الروحية الاسلامية بعناصر غير اسلامية ، وكتابية على وجه التخصيص . فقد كان يغشى أديرة النصارى ، ويديم الاطلاع على « الكتاب المقدس » بعهديه القديم والجديد ، ويستشهد بما ورد فيهما بدقة تدل على علم واسع صحيح بأسفار العهد القديم والجديد ، وبخاصة منها المزامير والأناجيل الأربعة .

ومواجيده تشهد بتوكيده للجانب العاطفي الانفعالي في التصوف ، إلى جانب الزهد في السلوك .

ولهذا نعتقد أن من الواجب دراسته دراسة عميقة ، وابراز دوره في تطور التصوف الإسلامي ، ووضعه في المكانة الجديرة به .

٤ — عبد الواحد بن زيد

أما عبد الواحد بن زيد فبينه وبين مالك بن دينار مشابه عدّة ، ومكانتهما في تطوير التصوف أو الزهد إلى تصوف متقاربة . ثم أنه أوفى على مالك في جانب المواجيد ، وفي كثرة السياحة .

فنحن نعلم من مصادرنا أنه كان في الشام وذهب إلى بيت المقدس [١] وأنه كان يتردد على عبادان [٢] . وكان يصحبه في هذه السياحات بعض كبار الزهاد ؛ فقد كان في رحلته في سوريا وفلسطين بصحبة محمد بن واسع ومالك بن دينار . وفي إحدى رحلاته إلى عبادان كان بصحبة صالح المُرّي وعُتْبة الغلام وسلَمة الأسْواري . وقد توفي في سنة ١٧٧ هـ .

وكان أيضاً يتردد على الرهبان ويحادثهم ويأخذ عنهم النصائح [٣] .

وأبرز مناقبه الإفراط في البكاء وفي إثارة الوجد عند الآخرين — حتى قال حصين بن القاسم الوزان : « لو قسم بث عبد الواحد بن زيد على أهل البصرة لَوسِعَهم » [٤] . وكان تأثيره ينفذ إلى درجة أن يُغْشَى على السامعين من شدة التأثر .

---

(١) « الحلية » جـ ٦ ص ١٥٦ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٦ ص ١٦٠ .

(٣) الكتاب نفسه جـ٦ ص١٥٥ ؛ ابن عربي : محاضرة الأبرار جـ٢ ص٢٠٢ ؛ القاهرة سنة ١٣٠٥هـ.

(٤) الكتاب نفسه جـ ٦ ص ١٦١ .

وفي الحث على البكاء قال : « يا اخوتاه ! ألا تبكون خوفاً من النيران ؟! ألا وإنه مَنْ بكى خوفاً من النار أعاذه الله تعالى منها . يا اخوتاه ! ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ! يا إخوتاه ! ألا تبكون ؟! بلى ! فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع خير القدماء والأصحاب من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً . — ثم جعل يبكي حتى غُشِي عليه »[1] .

وكان هو في الوقت نفسه يبكي دائماً . قال الحارث بن عبيد : « كان عبد الواحد بن زيد يجلس إلى جنبي عند مالك بن دينار ، فكنتُ لا أفهم كثيراً من موعظة مالك ، لكثرة بكاء عبد الواحد »[2] .

وقد بالغ الرواة في بيان تأثير عبد الواحد بن زيد في سامعيه مبالغة لا يقبلها العقل . من ذلك ما رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (ج ٣ ص ٢٤١) عن زيد بن عمر ، قال : « شهدت مجلس عبد الواحد بن زيد بعد العصر . فكنتُ أنظر إلى منكبيه يَرْتعدان ، ودموعه تتحدّر على لحيته ، وهو ساكت والناس يبكون . فقال : ألا تستحيون مِنْ طول ما لا تستحيون ؟ — و (كان) في القوم فتى ، فغُشِي عليه ، وما أفاق حتى غربت الشمس ، فأفاق وهو يقول : مالي ، مالي ! كأنهُ يُعَمّي على الناس أمره . ثم خرج فتوضأ . » وفي رواية أخرى : « عن مِسْمَع بن عاصم قال : شهدتُ عبد الواحد ذات يومٍ وهو يعظ . قال : فمات يومئذٍ في ذلك المجلس أربعة أنفس ، قبل أن يقوم . قال مِسْمَع : فأنا شهدت جنازة بعضهم »[3] . كذلك يروي صاحب « حلية الأولياء » حكاية أخرى في نفس المعنى : « عن حصين بن القاسم الوزّان قال : كنّا عند عبد الواحد بن زيد وهو يعظ . فناداه رجلٌ من

---

(١) الكتاب نفسه ج ١ ص ١٦١ .

(٢) الكتاب نفسه ج ٦ ص ١٥٩ .

(٣) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » ج ٣ ، ص ٢٤١ .

ناحية المسجد : « كُفَّ عنّا يا أبا عبيدة ، فقد كَشَفْتَ قناع قلبي » ... فلم يلتفت عبد الواحد إلى ذلك ، ومرّ في الموعظة . فلم يزل الرجل يقول « : كُفَّ عنا يا أبا عبيدة ! فقد كَشَفْتَ قِناع قلبي » وعبد الواحد لا يقطع موعظته حتى والله حَشْرَجَ الرجلُ حشرجةَ الموت ، ثم خرجت نَفْسُه ، ثم مات . قال ؛ أنا والله شهدت جنازته يومئذٍ ، فما رأيت بالبصرة يوماً أكثر باكياً من يومئذ »[1] .

هذه الروايات تتّسم من غير شك بالمبالغة الشديدة التي قد تصل إلى حد الإحالة . لكننا نستطيع أن نستخلص منها أمرين :

الأول : أن عبد الواحد بن زيد كان شديد التأثير فيمن يعظهم ، وهذا التأثير لا يرجع الى بلاغة عبد الواحد بن زيد بقدر ما يرجع الى طريقته في الوعظ : من البكاء والتحنُّن وابداء التأثر بحيث يكون تأثير الكلام عاطفياً أشدّ وأعنـف .

والثاني : أن جوّ البصرة الديني كان آنذاك مشحوناً بالعواطف الدينية الفياضة ، وبنوعٍ من الحساسة المرهفة للتقوى . تُرى أكان ذلك بسبب الأحداث السياسية العنيفة التي عَجّت بها هذه الفترة ، مما وقع بين الأمويين وخصومهم الثائرين عليهم ؟ يبدو أن الأمر كان كذلك ، فانصرف الناس الى التقوى وشدة الحساسية الدينية .

ولم تقتصر هذه الحالة الوجدانية على عبد الواحد بن زيد ، بل شملت كذلك أصحابه مثل صالح * المريّ وعتبة الغلام وسلمة الأسواري . فقد ذكر صاحب « الحلية » عن مسلم العَبّاداني (نسبة إلى : عَبّادان الثغر

---

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٦ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

* راجع عن صالح المري : « حلية الأولياء » لأبي نعيم ج ٦ ص ١٦٥ — ١٧٧ ؛ وعن عتبة بن الغلام : « الحلية » ج ٦ ص ٢٢٦ — ٢٣٩ .

المشهور ، والحافل آنذاك بالعبّاد) قال : قَدِم علينا مرةً صالح المُرّيّ وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وسلمة الأسواري ، فنزلوا على الساحل . فهيّأت لهم ذات ليلة طعاماً ، فدعوتهم ليه ، فجاؤا . فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا قائل يقول مِنْ بعض أولئك المطوّعة ، وهو على ساحل البحر ماراً رافعاً صوته يقول :

وتُلْهِيك عن دار الخلود مطاعِـــمٌ   ولذّةُ نفسٍ غَيُّهـــا غيرُ نافـع

قال : فصاح عتبة صيحة فسقط مغشياً عليه . وبكى القوم ، ورفعنا الطعام وما ذاقوا منه والله لقمة واحدة » [1] .

وكان يدعو إلى الفقر التام ، ولذا قال : « ما يَسُرُّني أن لي جميعَ ما حوَتْ عليه البصرةُ من الأموال والثمرة بفلسين » [2] .

ولا بد أنه كان كثير السهر والتهجد ، اذ يروى أنه كان يصلّي الغداة بوضوء العتمة طوال أربعين سنة [3] . ويفسّر سلوكه هذا قوله : « فرّق النومُ بين المصلّين وبين لذّتهم في الصلاة ، وبين الصائمين وبين لذّتهم في الصيام » [4] ، وكان كثيرا ما يردّد هذين البيتين :

ينام مَنْ شاء على غفلـــةٍ   والنومُ كالموت فلا تتكلْ
تنقطع الأعمالُ فيه كمـــاً   تنقطع الدنيا عن المنتقِـلْ

فكرة المحبّة

ويبدو أن عبد الواحد بن زيد كان أوّل من نمّى فكرة المحبة بين العبد والرب . فهو كثيراً ما يردد هذا التعبير : المحبّة ــ ومن ذلك قوله :

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٦ ص ١٦٠ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٦ ص ١٥٧ .
(٣) الكتاب نفسه ، جـ ٦ ص ١٦٣ .
(٤) الكتاب نفسه جـ ٦ ص ١٦٢ .

أ — « ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلاّ الرّضا ؛ ولا أعلم درجةً أرفعَ ولا أشرفَ من الرضا ، وهي رأس المحبة »

ب — « مَنْ نَوى الصبر على طاعة الله صَبّره الله عليها وقوّاه لها . ومَنْ نَوَى الصبر عن معاصي الله أعانه الله على ذلك وعصمه منها ... يا سيّار [1] ! أتراك تصبر لمحبّته عن هواك فيخيب صبرك ؟ لقد أساء بسيّده الظنّ مَنْ ظنّ به هذا وشِبْهَه . قال : ثم بكى عبد الواحد حتى خِفْتُ أن يُغْشَى عليه ، ثم قال : أتأبى أنت يا مِسْمَع [2] ! نعمَةٌ غادية ورائحة على أهل معصية ؛ فكيف ييأس من رحمته أهلُ محبّته ؟! » [3] .

ومن هنا كان عبد الواحد بن زيد هو الراوي للحديث القُدْسي التالي ، عن الحسن (= البصري) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يقول الله تعالى : اذا كان الغالب على عبدي الإشتغال بي جعلتُ نعيمه ولذّته في ذكري. فإذا جعلتُ نعيمه ولذّته في ذكري **عشقني وعَشِقْتُه** فإذا عشقني وعشقته رفعتُ الحجاب فيما بيني وبينه ، وصِرْتُ معالم بين عينيه ، لا يسهو اذا سها الناس . أولئك الأبطالُ حقاً . أولئك الذين اذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً وعذاباً ذكرتهم فصرفتُ ذلك عنهم » .

وقد علق عليه أبو نعيم فقال : « كذا رواه عبد الواحد عن الحسن مُرْسلاً . وهذا الحديث خارجٌ من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن ، لمكان محمد بن الفضل ، وعبد الواحد وما يرجعان إليه من الضعف » [4] .

---

(١) اسم من يخاطبه .
(٢) مسمع بن عاصم ، الذي روى هذا الكلام .
(٣) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٦ ص ١٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٦٥ .

وهذا الحديث القدسي ينصّ صراحة على فكرة العشق الإلهي ، وبلفظ العشق ، لا المحبّة [1] .

وثم حديث آخر رواه ويؤذن – كما لاحظ ماسينيون [2] – بمذهب « الاتصاف » الذي قال به الحلاّج أو « التخلق » كما قال به الواسطي ،

وكان عبد الواحد بن زيد يرى أن تلاوة « الشهادة » لا تفيد ، إلاّ بفضل خاص من الله . قال [3] –وهو يروي عن الراهب الذي التقى به أن الراهب قال له : « يا هذا ! كما لا يجوز الزيف من الدراهم ، كذلك لا تجوز « لا إله إلاّ الله» إلا بنور الاخلاص » .

وكان يعتبر القدس (وعين السلوان) في نفس مستوى مكة (وبئر زمزم) ؛ وكان يؤكد أن الخَضِر يقيم في المسجد الأقصى [4] .

---

(١) يرى ماسينيون (« بحث في أصول المصطلح الفني » ... ص ٢١٤) أن العشق يدل على الرغبة ، بينما المحبة تدل على تمام الحب !

(٢) الكتاب نفسه ص ٢١٤ .

(٣) ابن عربي : « محاضرات الأبرار » جـ ٢ ص ٢٠٢ ، القاهرة سنة ١٣٠٥ – في خبر عبد الواحد بن زيد مع الراهب .

(٤) المقدسي : « مثير الغرام » ورقة ٩٩ ، ١٢١ ب .

٥ ـ محمد بن واسع [١]

وآخر من نتحدث عنهم من أصحاب الحسن البصري: محمد بن واسع. وكان من كبار القرّاء ومن أفضلهم. قال مالك بن دينار: «القرّاء ثلاثة: فقارىء للرحمن، وقارىء للدنيا، وقارىء للملوك. ويا هؤلاء! محمد بن واسع عندي من قراء الرحمن»؛ وفي رواية أخرى، قال مالك بن دينار: «للأمراء قرّاء، وللأغنياء قرّاء، وإن محمد بن واسع من قرّاء الرحمن» [٢]. وكان محمد بن واسع يقول: «القرآن بستان العارفين؛ فأينما حلّوا منه حلّوا في نزهة» [٣]. ولهذا كان الحسن البصري يسميه «زين القرّاء».

وكان أيضاً من البكائين، حتى قيل: «إذا رأيت وجه محمد بن واسع حَسِبْتَ أن وجهه وَجْهُ ثكلى» [٤]. ولكن بكاءه من النوع الهادىء المتكتّم، ومدح هو جماعة بكاؤها من هذا النوع فقال: «لقد أدركتُ رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس أقرانه على وسادة واحدة، قد بُلّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته. ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصفّ فتسيل دموعه على خدّه ولا يشعر به الذي إلى جنبه» [٥].

(١) راجع عنه: أبو نعيم: «حلية الأولياء» جـ ٢ ص ٣٤٥ – ٣٥٧
(٢) «الحلية» جـ ٢ ص ٣٤٥.
(٣) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٣٤٧.
(٤) الكتاب نفسه جـ ٢ ص ٣٤٧.
(٥) الموضع نفسه.

كذلك كان يعيب الطعام مع البكاء . وكان مع ذلك يأخذ على البكائين تقصيرهم في البكاء .

وكان شديد الإحساس بالذنوب ، حتّى قال : « لو كان يوجد للذنوب ريحٌ ما قدرتم أن تدنوا مِنّي مِنْ نَتَن ريحي » [1] . ويشعر بأنه « يرحل كلَّ يوم إلى الآخرة مرحلةً » [2] .

ولهذا كان يدعو إلى مقت النفس في سبيل الله . وفي هذا يقول : « مَنْ مَقَتَ نَفْسَه في ذات الله أمّنه الله مِنْ مقته » [3] .

* * *

وهو من أولئك الذين أبوا أن يتولوا القضاء حين ما دعوا إلى ذلك ، لأنهم يتحرجون من كل ما يتعلق بالسلطان ، لما يلابسه من الجور . عن ابن شوذب قال : « قسم أمير من أمراء البصرة على قراء أهل البصرة . فبعث إلى مالك بن دينار فقبل ، وأبى محمد بن واسع ، وقال : يا مالك ! قَبِلْتَ جوائز السلطان ! فقال : يا أبا بكر ! سَلْ جُلَسائي . فقالوا : يا أبا بكر ! اشترى بها رقاباً فأعتقهم . فقال له محمد (بن واسع) : أنْشُدُك الله ! أقَلْبُك الساعة له على ما كان عليه قبل أن يجيزك ؟ قال (مالك بن دينار) : اللهمّ لا ! قال (محمد بن واسع) : ترى أيّ شيء دخل عليك ! فقال مالك لجلسائه : إنما مالِكٌ حمار ؛ إنما يَعْبُدُ الله مِثْلُ محمد بن واسع » [4] .

أما دعوته إلى القضاء فذلك أن مالك بن المُنْذِر ، وكان على شرطة البصرة ، دعا محمد بن واسع ليجلس على القضاء . فأبى محمد بن واسع ؛ فعاود مالكُ بن المنذر العَرْضَ عليه ، فاستمر ابن واسع على رفضه . فقال

(١) الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٢) الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٤٨ .
(٣) الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٥٠ .
(٤) « الحلية » ج ٢ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

له مالك بن المنذر يهدده : لتجلِسنّ على القضاء ، أو لأجلدنّك ثلثمائة جلدة ، فقال له محمد بن واسع : « إن تفعل ، فأنت مُسلّط . وإن ذليل الدنيا خيرٌ من ذليل الآخرة » [1] . وقد عاتبته زوجته على عدم قبوله منصب القضاء وقالت له : « لك عيالٌ ، وأنت محتاج » فأجابها : « ما دُمْتِ تَرَيْنَنِي أصبر على الخلّ والبقل ، فلا تطمعي في هذا مِنّي ! » [2] .

ذلك أنه كان يرى أن ولاية القضاء قد تدعو إلى التجبّر وظلم الناس . ولهذا روي أن محمد بن واسع دخل على بلال بن أبي بردة ، وقال له : « يا بلال ! إنّ أباك حدثني عن أبيه ، عن النبي ﷺ ، قال : إن في جهنم وادياً يقال له هَبْهَب * ، حقّاً على الله أن يُسْكِنَه كلّ جبّار . فإيّاك ، يا بلال ، أن تكون ممن يُسْكنه » [3] .

* * *

ودعاؤه يدلّ على ما قلناه من شدّة إحساسه بالذنوب . فقد روي أنه كان يقول في دعائه : « أستغفرك من كل مقام سوء ، ومقعد سوء ، ومدخل سوء ، ومخرج سوء ، وعمل سوء ، وقول سوء ، ونيّة سوء . أستغفر منه فاغفر لي ، وأتوب إليك منه فتُبْ عليّ » [4] .

ومن كلماته في بيان الخطايا الكبرى ، قال : « أربعٌ يمتن القلب : الذنب على المذنب ، وكثرة مثافنة النساء وحديثهنّ ، ومُلاحاة الأحمق :

---

(١) الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٥٠ .
(٢) الكتاب نفسه ج ٢ ص ٣٥٣ .
(٣) محمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع : « أخبار القضاة » ج ٢ ص ٢٥ . القاهرة ، سنة ١٩٤٧ م .
(٤) « الحلية » ج ٢ ص ٣٤٦ .
* في الحديث : « إن في جهنم وادياً يقال له هبهب ، يسكنه الجبارون » (لسان العرب ج ٢ ص ٢٧٧ ، تحت مادة : هبب) . والهبهب : السريع .

تقول له ويقول لك ، ومجالسة الموتى ، قيل : وما مجالسة الموتى قال : مجالسة كلّ غنيٍ مُتْرَف وسلطانٍ جائر »[1] .

وكان محمد بن واسع يصوم أغلب أيامه ، ويخفي عن الناس ذلك (المرجع نفسه ، جـ ٢ ص ٣٥٢) . ذلك لأنه كان يرى أن « مَنْ قلّ طعامه فَهِم وأفْهَمَ ، وصفا ورقّ ؛ وإن كثرة الطعام لتثقل صاحبه عن كثير مما يريد (المرجع نفسه جـ ٢ ص ٣٥١) .

واشترك مع يزيد بن المهلب في غزو خراسان . وفي أثناء ذلك استأذن يزيد بن المهلب للحج ، فأذن له ؛ فقال ابن واسع أتأذن به للجيش كلهم ؟ فقال يزيد : لا . فقال ابن واسع : إذن لا حاجة لي بالحج ! (المرجع نفسه جـ ٢ ص ٣٥٢) . وهذا يدلّ على سخاوة نفس وإيثار بالغ ، إذ لم يسمح لنفسه أن يرخص له وحده دون سائر إخوانه في الجهاد .

وهذا شاهد آخر على اشتراك الصوفية في الجهاد في أطراف بلاد الاسلام .

ويظهر أنه أقام مدة في خراسان ، وذلك في عهد ولاية قتيبة بن مُسْلِم كما يدل على ذلك خبر آخر يقول : « كان محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم في جيش ، وكان صاحب خراسان . وكانت الترك خرجت إليهم ، فبعث إلى المسجد ينظر مَنْ فيه . فقيل له : ليس فيه إلاّ محمد بن واسع رافعاً اصبعه . فقال قتيبة : إصبُعه تلك أحبُّ إليَّ مِنْ ثلاثين ألف عِنان »[2] .

---

(١) « الحلية » جـ ٢ ص ٣٥١ . وثافنه : جالسه ولازمه كأنه ألصق ثفنة ركبته بثفنة ركبته. لاحاه : لاعنه ولاومه ، وتلاحى القوم تلاحيا : تلاعنوا وتلاوموا ، أي لعن ولام كل واحد منهم الآخر .

(٢) « الحلية » جـ ٢ ص ٣٥٣ .

الفصل الرابع
كبار الصوفية في القرن الثاني

—١—

ابراهيم بن أدهم *

شخصية فريدة في تاريخ التصوف كله . وحياته تُشبه حياة جوتاما بوذا ، مؤسس الديانة البوذية . ومن هنا كانت مصدراً لقصص كثيرة ونوادر أمعن في الأسطورة منها في التاريخ .

إذ يروون عن أوّلية أمره أنه قال :

---

(١) راجع عنه : « طبقات الصوفية » لأبي عبد الرحمن السلمي (المتوفى سنة ٤١٨ هـ) ص ٢٧ – ٣٨ ، القاهرة سنة ١٩٥٣ ؛ « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) جـ٧ ص ٣٦٧– ٣٩٥ ، جـ ٨ ص ٣– ٥٨ ، القاهرة سنة ١٩٣٧ ؛ «صفة الصفوة» لابن الجوزي جـ ٤ ص ١٢٧ – ١٣٢ ، طبع حيدر أباد سنة ١٣٥٥ ؛ « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي جـ ١ ص ٤ – ٥ ، القاهرة ، محيي الدين عبد الحميد ؛ « التاريخ الكبير » لأبي عبدالله البخاري (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) جـ ١ ص ٢٧٣ ، حيدر أباد سنة ١٢٦١ هـ ؛ « شذرات الذهب » لابن العماد جـ ١ ص ٢٥٥ ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ؛ « مرءاة الجنان » لليافعي (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) جـ ١ ص ٣٤٩ ، حيدر اباد سنة ١٣٣٨ هـ ؛ تاريخ ابن عساكر جـ ٢ ص ١٦٧ – ١٩٦ ؛ « الأنساب » للسمعاني (المتوفى سنة ٥٤٢ هـ) ورقة ٨٩ ، ليدن سنة ١٩١٢ ؛ « طبقات » الشعراني (المتوفى) جـ ١ ص ٩١ ، القاهره ؛ « سير أعلام النبلاء » للذهبي جـ ٦ ص ١ ورقة ١٢٤ – ١٢٧ ، مخطوط في مكتبة أحمد الثالث في استانبول ؛ القشيري : « الرسالة » ص ٩ سطر ١٢ وما يليه ، القاهرة سنة ١٣١٨ هـ « كشف المحجوب » للهجويري ، ترجمة نيكلسون ص ١٠٣ وما يليها ؛ العطار : « تذكرة الأولياء » ، جـ ١ ص ٨٥ – ١٠٦ ، نشرة نيكلسون ؛ جامي : « نفحات الأنس » رقم ١٤ ،

« كان أبي من أهل بلخ ، وكان من ملوك خراسان . وكان من المياسر . وحبّب إلينا الصيد . فخرجتُ راكباً فرسي ، وكلبي معي . فبينما أنا كذلك ، إذ ثار أرنب ، أو ثعلب ، فحرّكتُ فرسي . فسمعتُ نداءً من ورائي : « ليس لذا خُلِقْتَ ، ولا بذا أُمِرْتَ » . فوقفتُ أنظر يمنةً ويسرة ، فلم أر أحداً . فقلت : لعن الله ابليس ! ثم حركتُ فرسي ، فإذا بي اسمع نداءً أجهر من ذلك » : يا ابراهيم ! ليس لذا خُلِقْتَ ، ولا بذا أُمِرْتَ » . فوقفت أنظر يمنةً ويسرةً ، فلا أرى أحداً ، فقلت : لعن الله إبليس ! ثم حركتُ فرسي فإذا بي أسمع نداءً من قَرَبوس سَرْجي : « يا ابراهيم ! ما لذا خُلِقْتَ ، ولا بذا أُمِرْتَ » ! فوقفت وقلت : أنْبِهتُ ، أنْبِهْتُ ! جاءني نذيرٌ من ربِّ العالمين ! والله لا عَصَيْتُ الله بعد يومي ذا ماعصمني ربي .

« فرجعتُ إلى أهلي ، فخلّيت عن فرسي . ثم جئت إلى أحد رعاة لأبي ، فأخذتُ منه جُبّة وكساءً ، وألقيت ثيابي إليه . ثم أقبلت إلى العراق : أرضٌ ترفعني ، وأرض تضعني ، حتى وصلت إلى العراق . فعملتُ بها أياماً . فلم يَصْفُ لي منها شيءٌ من الحلال . فسألتُ بعض المشايخ عن الحلال ، فقالوا لي : إذا أردتَ الحلالَ فعليك ببلاد الشام .

« فصرت إلى بلاد الشام . وصِرْتُ إلى مدينة يقال لها المنصورة — وهي المصيصة — فعملتُ بها أياماً ، فلم يَصْفُ لي شيءٌ من الحلال . فسألتُ بعضَ المشايخ ، فقالوا لي : إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرسوس ، فإن

نشرة ليس les ، الكلاباذي : « التعرف » ص ١٠٨ ، القاهرة سنة ١٩٣٤ ؛ « الأغاني » للأصفهاني ج١٢ ص ١١١، ١١٣» ؛ كتاب مشاهير علماء الأمصار » ص ١٨٣ ، القاهرة ، فيزبادن سنة ١٩٥٩ .

ثم راجع الدراسات التالية عنه :

a) H. von Kremer : **Gesch. d. Herrschenden Ideen des Islams**, p. 57 sqq.

b) Nicholson : « Ibrahim b. Adham », in **Zeit. f. Assyriologie, XXVI,** (1912), 215-220.

فيها المباحات والعمل الكثير . فتوجهت إلى طرسوس ، فعملت بها أيّاماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد . فبينما أنا قاعدٌ على باب البحر ، إذ جاءني رجلٌ ، [1] فأكّد أني أنظر له بستانه — وكنت في بساتين كثيرة . وإذا أنا بخادم قد أقبل ، ومعه أصحابه ، ثم صاح : يا ناطور ! فقلت : هوذا أنا . قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه . فذهبتُ فأتيته بأكبر رمان . فأخذ الخادم رمانةً فكسّرها ، فوجدها حامضة ، فقال لي : يا ناطور أنت في بستاننا منذ كذا وكذا ، تأكل فاكهتنا وتأكل رُمّاننا ، ولا تعرف الحلو من الحامض ؟ قال ابراهيم : قلت : والله ما أكلتُ مِنْ فاكهتكم شيئاً ، وما أعرف الحلو من الحامض . فأشار الخادم إلى أصحابه ، وقال : « أما تسمعون كلامَه هذا ؟ » ثم قال : « أتراك لو أنك ابرهيم بن أدهم ! ! » — ما زاد على هذا وانصرف . فلما كان من الغد ، ذكر صفتي في المسجد ، فعرفني بعضُ الناس . فجاء الخادم ، ومعه عُنُق [2] من الناس . فلما رأيته قد أقبل مع أصحابه ، اختفيت خلف الشجر والناس داخلون ، فاختلطت معهم وهم داخلون وأنا هارب .

« فهذا كان أوائل أمري وخروجي من طرسوس إلى بلاد الرمال .

وروى يونس بن سليمان البلخي عن ابراهيم بن أدهم ، وزاد في هذه القصة : « إذا هو على فرسه يركضه ، إذ سمع صوتاً من فوقه : يا إبراهيم ! ما هذا العبث ؟ « أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » [3] . اتّق الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة . فنزل عن دابّته ورفض الدنيا ، وأخذ في عمل الآخرة » [4] .

وبرواية أوجز مع اختلاف قليل في بعض التفـــاصيل فيما يتعلق بكلام

---

(١) في المطبوع : فأكثر . والعبارة كلها والتي تليها يبدو أن فيهما نقصاً وتحريفاً .

(٢) العنق : الجماعة من الناس .

(٣) سورة المؤمنون ،ية ١١٥ .

(٤) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٧ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

هذا الهاتف ، أورد هذه الحكاية أبو عبد الرحمن السلمي في « طبقات الصوفية» (ص ٣٠ ، ٣١) . إذ زعم أن هذا الهاتف هو الخضر . قال السلمي رواية عن ابرهيم بن أدهم : « فبينا أنا في البادية ، إذا أنا برجل يسير ، ليس معه إناءٌ ولا زاد . فلما أمسى وصلّى المغرب ، حرّك شفتيه بكلامٍ لم أفهمه . فإذا أنا بإناءٍ فيه طعام وإناءٍ فيه شراب ، فأكلتُ وشربتُ . وكنت معه على هذا أياماً . وعلّمني « اسم الله الأعظم » . ثم غاب عني وبقيت وحدي . فبينا أنا ذات يومٍ ، مستوحشٌ من الوحدة ، دعوتُ الله به . فإذا أنا بشخصٍ آخذ بحجزتي ، وقال : سَلْ تُعْطَه . فراعني قوله : فقال : لا رَوْعَ عليكَ ولا باس عليك ! أنا أخوك الخضر . إن أخي داود علّمك اسم الله الأعظم » فلا تَدْعُ به على أحد بينك وبينه شحناء » .

ثم جاء فريد الدين العطار في « تذكرة الأولياء » [1] فزوق في هذه الرواية واخترع فيها من التفاصيل ، ما شاء له خياله الجامح .

فلننظر الآن في صحة هذه الرواية :

١ — ابرهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر ، التميمي العجلي . وكنيته : أبو إسحق . وهو عربي صريح النسب . قال أبو نعيم : « وكان من العرب من بني عِجْل ، كريم الحسب » . (ج ٧ ص ٢٧٣) . وبنو عجل من بكر بن وائل . وكانت أسرته تسكن الكوفة ، ثم انتقلت إلى بلخ في خراسان ، واستقرت هناك .

ولا تدلّنا كتب التاريخ أن ولياً لخراسان أو لبلخ كان اسمه أدهم في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة أو في القرن الأول الهجري . فما تذكره هذه الرواية من أن أباه أدهم ، كان من ملوك خراسان ، لا أساس له من التاريخ .

---

(١) العطار : « تذكرة الأولياء » ترجمة عربية مخطوطة في كتابخانه مركزي دانشكاه تهران ، من مجموعة سيد محمد مشكوة ، برقم ٢٣٧ في ص ٣٩ — ٤٠ .

٢ – أمّا ارتحاله من بلخ إلى العراق ثم الشام ، واستقراره بالشام ، فأمر تشهد عليه الوثائق التاريخية كلها وأخبار من لقيه من الزهاد .

٣ – أما ما انفرد به السُّلَمي من ذكر أن هذا الهاتف هو الخضر ، فهذا من التفاصيل الأسطورية التي كثيراً ما ذكرت ابتداءً من القرن الرابع الهجري بمناسبة الأحوال الحاسمة في سِيَر كبار الصوفية .

وأسطورة أوّلية حياة ابرهيم بن أدهم هذه ، نظراً لتشابهها مع أسطورة أوّلية جوتاما بوذا ، سرعان ما لفتت أنظار الباحثين من المستشرقين الأوربيين . فكتب اجنتس جولدتسهر مقالاً باللغة المجرية بعنوان A Buddhismus hatasa az Iszlamra (« البوذية في الاسلام ») لخصه T. Duka في « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » Jour. of the Royal Asiat. Soc. (سنة ١٩٠٤ ص ١٣٢ وما يتلوها) ، وفي هذا المقال – بين أن الأسطورة الخاصة بابرهيم بن أدهم تشابه أسطورة أولية جوتاما بوذا ، وأنه لا بد أن تكون أسطورة هذا الصوفي المسلم قد صيغت على غرار أسطورة حياة مؤسس البوذية .

ووافقه على هذا الرأي نيكلسون في مقاله عن « ابراهيم بن أدهم » في دائرة المعارف الاسلامية » (الطبعة الأولى جـ ١ ص ٤٥٩ عمود أ من الطبعة الفرنسية) دون تحقيق .

ثم جاء ماسينيون في كتابه « بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الإسلامي (ص ١٧٢ باريس سنة ١٩٥٤) فنقد هذه الفكرة قائلاً : « لقد نسبت إليه في عهد متأخر لمحة من أسطورة بوذا : أسطورة الأمير الشحّاذ في بلخ ؛ راجع أسطورة ارتحاله للصيد ، وفقاً لابن منده » . وقال في تعليقه (ص ٢٣٥ – ٢٣٦) : « إن ابن أدهم فرّ من بلخ في سنة ١٣٢ (وهي السنة التي قام فيها أبو مسلم الخراساني بثورته) ، ولحق بأخته ، وهي عربية محض النسب ، من بني عجل ، في الكوفة (« الأغاني » ط ٢ جـ ١٢ ص ١٠٦ – ١٠٧) وقد كان لها ولد شاعر هو محمد بن كُناسة الأسَدي . والمراحل اللاحقة من حياته

معروفة جيداً ، فيما عدا ما قيل أنه أقام في أخريات حياته ؛ بالقرب من بحر لوط (= البحر الميت ، وكان ملجأ panérèmos جماعة الاسّانيين والمسيحيين الفلسطينيين الأوّلين) ؛ وربما كان ذلك هو الذي جعل خراسانياً آخر ، هو ابن كرّام ، يأتي إلى الثغور (القائمة بين سوريا وبيزنطة) . وقد قتل ابن أدهم مجاهداً على الساحل السوري ؛ ودُفِن في جَبَله ، وهناك زرتُ قبره وقد زود بمسجد وحَبَّسَ عليه المماليكُ والعثمانيون وقفاً كبيراً (بُدّد في سنة ١٩٣٠) . وباسمه أنشئت طريقة صوفية في القرن الرابع عشر الميلادي (اليافعي) ، هي الأدهمية ، كانت لها زوايا في أهم المدن العثمانية ، خصوصاً في بيت المقدس (وكانت لا تزال زاوية الأدهمية في بيت المقدس موجودة في سنة ١٩١٧ : راجع « مجلة الدراسات الإسلامية » سنة ١٩٥١ ، ص ٩٣) » .

وقد قدّم العطار تفاصيل عن رحلة ابرهيم بن أدهم من بلخ إلى أن وصل الشام ، لسنا ندري مدى صحتها ، لأننا لا نجدها في المصادر العربية الصحيحة أو شبه الصحيحة ، ولأنه قرنها بمعجزات وكرامات وخوارق واتصال مستمر مع الخضر . ولهذا نكتفي منها بذكر الأماكن التي أقام فيها ابرهيم بن أدهـم :

١ — فهو يذكر أن ابرهيم بن أدهم رحل من بلخ إلى مدينة مرو الروذ ، ومن ثمّ إلى نيسابور فسكن فيها تسع سنين (ص ٤١ من الترجمة العربية المذكورة) .

٢ — ثم قطع البوادي أربع عشرة سنةً « بالصلاة والخضوع والخشوع إلى أن وصل إلى قريب من مكة » (ص ٤١) . ويتوسع العطار في الحديث عن مقامه بمكة .

ومن الممكن أن يكون مجيؤه إلى مكة ، بعد اقامة لم يَرْضَها في العراق . ومن مكة رحل إلى بلاد الشام . وفي مكة صحب سفيان الثوري والفضيل بن

عياض (السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٢٧) .

وفي بغداد لقي الامام أبا حنيفة النعمان (المتوفى سنة ١٥٠ ﻫ) . ويذكر العطار أن ابرهيم بن أدهم دخل يوماً على أبي حنيفة ، فنظر إليه أصحاب أبي حنيفة باحتقار ، فقال أبو حنيفة : « هو سيدنا » فقيل : وبأي شيء بلغ هذا المقام ؟ فأجاب أبو حنيفة : لأنه مشغول بخدمة ربه ، وأنتم مشغولون بخدمة أبدانكم [1] .

أسفاره في الشام

وإذا أخذنا بالرواية القائلة بأنه ذهب إلى مكة ، فلا ندري ما هو الطريق الذي سلكه حتى وصل إلى الشام . إذ بحسب روايته عن نفسه ، التي أوردناها في أول هذا الفصل ، نجده يبدأ رحلته في سوريا بمدينة المَصِّيصة ،«وهي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم . كانت من الأماكن التي يرابط بها المسلمون قديماً » [2] — أي بدأ الشام بأقصى شماله ، وكان الطبيعي أن يدخل بلاد الشام من وسطها أو جنوبها ، أي أقربها إلى مكـــة .

ويقيم في المصيصة أياماً ، لم يَصْفُ له فيها شيءٌ من الحلال . فتوجه إلى طرسوس (*) فعمل بها ناطوراً للبساتين وحصّاداً . ولكن لم يستقر بهـــا طويلاً . إذ نراه بعد ذلك في مرعش ، ومدينة صور [3] ، ثم في بيـــت المقدس [4] ، ثم في عسقلان [5] ، ثم في غزة [6] . وفي كل هذه الأماكن كان

(١) راجع « تذكرة الأولياء » الترجمة العربية المذكورة ، ص ٣٩ .

(٢) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي : « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » جـ ٣ ص ١٢٨٠ . القاهرة ، سنة ١٩٥٥ .

(٣) « حلية الأولياء » جـ ٧ ص ٣٨٠ ش ١٠ .

(٤) المرجع السابق جـ ٧ ص ٣٧٤ .

(٥) المرجع السابق جـ ٧ ص ٣٧٢ .

(٦) المرجع السابق جـ ٧ ص ٣٧٩ .

(*) « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٨ س ١٧ .

يكسب عيشه إما بوصفه ناطوراً للبساتين ، أو من الحصاد ، أو من طحن الحبوب .وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مُدْيَ قمح ، أي قفيزين [1] . وكان الحصاد أحبّ إليه من لقاط الحب بعد الحصاد . وكان إذا صلّى العشاء وقف بين يدي الدور فنادى بأعلى صوته : من يريد أن يطحن ؟ فكانت المرأة تخرج القفة ، فينصب الرحى بين رجليه ، ولا ينام حتى يطحن ، أحياناً بلا كراء (المرجع نفسه حـ١ ص ٣٧٣ س١) .

وقد أقام في الشام أربعاً وعشرين سنة على الأقل (المرجع نفسه حـ١ ص ٣٧٣ س ١٦ ؛ ص ٣٧٨ س١٦) ، يقوم بالحصاد أو الطحن أو نظارة البساتين وإذا فرغ من الحصاد أرسل بعض أصحابه فحاسب صاحب الزرع ، ويجيء بالدراهم ، فلا يمسها بيده ، ويقول لأصحابه : اذهبوا كلوا بها شهواتكم (الموضع نفسه) . ذلك أن ابرهيم بن أدهم كان سخياً جداً ، يجود بكل أو بمعظم ما يصل إليه من أجر عمله . وقد روى صاحب «الحلية» حكايات كثيرة في ذلك[2] . وكان مفرطاً في التدقيق في ان يكون ما يناله من المال حلالا .

اشتراكه في الغزو والجهاد

وعلى رغم مازعمه هو من أنه لم يات الشام « لجهاد ولا لرباط . . . بل ليشبع من خبز حلال » ، [2] فإن كثيراً من الأخبار التي ذكرها أبو نعيم في « الحلية » وابن عساكر في « التاريخ الكبير » (حـ٢ ص ١٩٦) تدل على اشتراكه في غزوات بحرية ضد البيزنطيين . عن أحمد بن بكار قال: «غزا معنا ابرهيم بن أدهم غزاتين ، كلّ واحدة أشدّ من الأخرى : غزاة عباس

---

(١) « حلية الأولياء » جـ ٧ ص ٣٧٣ .

(٢) راجع « الحلية » جـ ٧ ص ٣٨٤ – ٣٨٦ .

الأنطاكي ، وغزاة محكاف . فلم يأخذ سهماً ولا نفلا . وكان لا يأكل من متاع الروم ، نجيء بالطرائف والعسل والدجاج فلايأكل منه ، ويقول : هو حلال ، ولكن أزهد فيه . كان يأكل مما حمل معه ، وكان يصوم . . . وغزا في البحر غزاتين لم يأخذ سهمه ولا يفترض . قال : على هذا الغازى . . . ومات ابرهيم في صائفة السفر بالبطن »[1] . فهو إذن كان متطوعاً للجهاد في سبيل الله ، ولهذا كان يرفض أن ينال سهمه في الغنائم ، لأنه لا يجاهد لنوال المال ، بل في سبيل الله وحده .

وقد مات في احدى هذه الغزوات ضد البيزنطيين ؛ وتقول بعض الروايات انه دفن في جزيرة بيزنطية كان يغزوها ،قرب حصن يدعى سوكين أو سوفنن * وفي رواية أخرى أنه لما مات في اثناء غزوه لتلك الجزيرة البيزنطية ، « حمل إلى صور ، فدفن في موضع يقال له مدفلة . فأهل صور يذكرونه في تشييب أشعارهم ؛ ولا يرثون ميتاً إلا بدأوا أولا بابرهيم بن أدهم قال القاسم بن عبد السلام : قد رأيت قبره بصور والمدينة الأخرى عسقلان[2] » .

وكما حدث لكثير من الصوفية ، زعم أنه دفن في مواضع كثيرة ، منها بغداد ، ودمشق ، وجبلة ، وصور ؛ وربما كان أشهر الروايات انتشاراً أنه دفن في جَبَلة ، بالقرب من اللاذقية ، على جبل اللُّكّام ، في سوريا . وكما أشار ماسينيون ، فيما أوردناه عنه من قبل ، يوجد لابرهيم بن أدهم قبرٌ في جَبَلة ، حبس عليه السلاطين المماليك والسلاطين العثمانيون بعدهم أوقافاً كبيرة ، وشيدوا عنده مسجداً .

على أن ثمّ رواية تقول إنه ذهب أيضاً إلى مصر ، وزار الاسكندرية . فقد

(١) « حلية الأولياء » جـ ٧ ص ٣٨٨ .
(٢) « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٩ .
(*) سوفنن : حصن ببلاد الروم .

روى السّلَمي [1] عن رجل من أهل الاسكندرية ، يدعى أسلم بن يزيد [2] الجهني ، أنه لقي ابرهيم بن أدهم في الاسكندرية وتحادث معه . كذلك ذكر ابن عساكر في تاريخه (ج ٢ ص ١٩٦) — عن أبي سعيد بن يونس أن ابرهيم بن أدهم قَدِم مصر .

سنة وفاته

قال البخاري [3] إنه توفي سنة احدى وستين ومائة .

وقال ابن عساكر [4] في تاريخه : « مات سنة اثنتين وستين ومائة ، وقيل سنة ثلاث » .

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٢٢ .

(٢) هو أسلم بن يزيد ، أبو عمران التجيبي ، راجع عنه « تهذيب التهذيب » ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) أورده « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي ج ١ ص ٥ ، القاهرة بدون تاريخ ، مطبعة السعادة .

(٤) ابن عساكر : « التاريخ الكبير » ج ٢ ص ١٩٦ . دمشق ، سنة ١٣٣٠ هـ .

قصة حياة ابرهيم بن أدهم

ونظراً إلى هذه الملامح الشائقة في قصة حياة ابرهيم بن أدهم فقد أنشئت قصص أدبية تدور حول حياته ، نذكر منها :

١ — قصة كتبها الدرويش حسن الرومي (٩٧٣ هـ / ١٥٦٦) باللغة التركية بعنوان : « الطراز المُعْلَم في قصة السلطان ابرهيم بن أدهم » .

لكن النص التركي ضاع . بيد أنها ترجمت إلى العربية ، واختصر هذه الترجمة أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي القرماني (المولود في سنة ٩٣٨ هـ والمتوفى في ٢٩ شوال سنة ١٠١٩ هـ / ١٣ يناير سنة ١٦١١ م) بعنوان : « الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان ابرهيم » ، وتوجد منها نسخ خطية في برلين تحت رقمي ٩٠٥٥، ٩٠٥٦، وفي رامفور (جـ١ : ٦٧٠)، كما توجد منها نسخة خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان : « سيرة السلطان ابرهيم بن أدهم » [١] .

٢ — وفي المخطوط رقم ٢٧٥٢ (فهرست برتش) في مكتبة جوتا بألمانيا توجد قصة بعنوان : « قصة ولي الله أدهم » باللغة العربية .

٣ — وفي القرن التاسع عشر الميلادي وضعت مسرحية باللغة الفارسية بعنوان : « شاه ابرهيم بن أدهم » ، وبعنوان : « شاه ابرهيم ووزيرش » .

---

(١) راجع : حبيب الزيات : « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها» ص ٣٩ تحت رقم ١٣٠(٢).

ويوجد منها مخطوطة في مكتبة الفاتيكان [1] ، برقم ٦٥٨ في فهرست روسي وبومباتشي [1] . وأشخاص المسرحية هم : شاه ابرهيم — وزير — دختران ماهپيكر ، شاطر شاه ، هاتف ، ملكه مادرشاه — سلمـــاني — شابجـــرد سلمـــاني .

وفي المخطوط رقم ٢٨٣٩ (ورقة ١٠٧ ب — ١١٤ أ) بكتابخانه مركزي دانشكاه تهران نجد قصة بعنوان : « قصة أدهم درويش با وزير أدهم پادشاه ودختر پادشاه كه اسم دختر مهرا فروز است » . وتبدأ هكذا بعد البسملة والتحميـــد :

« أما بعد ! راويان أخبار ، وناقلان آثار چنين أورده اندكه دربلاد خراسان وزيري بود كه اورا ادهم وزير ميكفتند قضارا شبى ادهم وزير در خواب ريد ، كه در بلندى ايستاده بود كه ازان بلندى بذير افتاد » .

وتنتهي هكذا : « ... پاد شاهي خودرا باو داد ابرهيم همرا هم بمكتب فرستاد رعيه را هفت ساله تجشيد هفت شبانه روز شيلان كشيده آخر پادشاه برحمت حق رفت ، ادهم هم برحمت حق رفت ، پاد شاهي بابرهيم ادهم منتقل شد ، الحال پاد شاهى ابرهيم ادهم دراينجاهم مشهور است » .

وبعده خاتمة النسخ هكذا : « تمت الكتاب بعون الملك الوهاب ، بيد الحقير الفقير أقل الطلبة محمد حسن بن محمد علي ، غفر الله لهما ، في السادس عشر شهر محرّم الحرام في قصبة خبوشان في سنة ١٣٢١ ، في يوم الأحد سنـــة ١٢٢١ » .

٤ — ونظم أبو الحسن (أو أبو الحسين) محمد قصيدة باللغة الهندستانية

---

(١) Ettore Rossi - Alessio Bombaci : Elenco di drammi religiosi persiani, Fondo MSS. Vaticani Cerulli, Citta del Vaticano, 1961.

وتقع في ١٢ ورقة ، مقاس ١٨ × ٦ سم .

بنوان : « جلزار ابرهيم » (ميرات سنة ١٨٦٥ ، طبع حجر في لكهنو سنة ١٨٦٩ ، وكونپور سنة ١٨٧٧ [١]) .

٥ — كذلك توجد بلغة الملايو قصة عن ابرهيم بن أدهم ، بروايتين إحداهما موجزة [٢] ، والأخرى مطوّلة ، لعلها مترجمة من كتاب عربي لشيخ حضرمي اسمه أبو بكر (راجع Ph. S. van Ronkel في كتابه : «فهرس المخطوطات الملاوية التابعة للشركة البتاڤية ص ١٢٠ — ١٢٢ ، برقم ١١٧ — ١٢٢) .

٦ — كذلك توجد ترجمات شعرية بلغة جاوة نقلهـــا P.P. Roorda ونشرها في أمستردام سنة ١٨٤٣ . راجع مقال فان آرندونك في الطبعة الأولى من « دائرة المعارف الاسلامية ، (جـ ٢ ص ٤٦٠ ، عمود أ من الطبعة الفرنسية ، سنة ١٩٢٧) .

آراؤه

وحياة ابرهيم بن أدهم أغنى من آرائه ؛ ولهذا لم يؤثر عنه الكثير مـــن الأقوال ، وأكبر قدر منها أورده أبو نعيم في «الحلية» (جـ ٨ ص ١٢ — ٤٠) ،

---

(١) راجع J. F. Blumenhardt : **Cat. of Hindustani Printed books in the British Museum**, p. 216; Garcin de Tassy, **Hist. de la littérature hindoue et hindoustanie**, I, p. 10.

(٢) وقد نشرها مع ترجمة هولندية روردا فان ايزنجا P. P. Roorda van Eysinga **Levensschets van Sultan Ibrahiem, vorst van Eirakh**, Batavia, 1822;

ونشر النص مع تعليقات :

D. Lenting : **Geschiedenis van Sultan Ibrahiem, zoon van Adaham, vorst van Irakh**, Breda, 1846, n. éd. de A. Regensburg, Batavia 1890

ونشر النص بالحروف اللاتينية في سنة ١٨٩١ .

وتدور معظم المعاني حول الحث على الطاعة والخوف والزهد والإيثار والصدق والتفكر في الله . ونورد فيما يلي بعض ما قاله في هذه المعاني :

١ ــ في ذم الدنيا :

قال ، لما سئل : لم حُجبِتْ القلوبُ عن الله ؟ : « لأنها أحبّت ما أبغض الله : أحبّت الدنيا ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأدب ، في نعيم لا يزول ولا ينفد ، خالداً مخلّداً ، في مُلْكٍ سَرْمدٍ لا نفاد له ولا انقطاع »[1] .

وكتب الى بعض اخوانه : « أما بعد ! فعليك بتقوى الله الذي لا تحلّ معصيته ولا يرجى غيره . واتّقِ الله ، فإنه من اتقى الله ــ عز وجل ــ عزّ وقَوِي ، وشبع ورَوِي ، ورفع عقله عن الدنيا ، فبدنه منظور بين ظهراني أهل الدنيا ، وقلبهُ معاينٌ للآخرة . فأطفأ بصرَ قلبه ما أبصرت عيناه من حبّ الدنيا . فقذّر[2] حَرامَها وجانب شهواتها ، وأضرّ بالحلال الصافي منها إلاّ ما لا بُدّ له : من كِسْرةٍ يشدُّ بها صلبه ، أو ثوب يواري به عورته ، مِنْ أغلظ ما يقدر عليه وأخشنه ، ليس له ثقة» ولا رجاءٌ إلاّ الله ؛ قد رُفِعَتْ ثقته ورجاؤه من كل شيء مخلوق ، ووقعت ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء . فجَدَّ وهزَلَ وأنهك بدنه لله حتى غارت العينان وبدت الأضلاع ، وأبدله الله تعالى بذلك زيادةً في عقله ، وقوةً في قلبه . وما زُخِر له في الآخرة أكثر .

فارفض يا أخي الدنيا ، فإن حبّ الدنيا يُصمّ ويُعْمي ، ويُذِلُّ الرقاب ، ولا تَقُلْ غداً وبعد غد ، فإنما هَلَكَ مَنْ هَلَك بإقامتهم على الأماني ، حتى جاءَهم الحقّ بغتةً وهم غافلون ، فنُقلوا على إصرارهم إلى

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ١٣ .

(٢) قذر الشيء : كرهه واجتنبه واستقذره .

المظلمة الضيّقة ، وأسلمهم الأهلون والولد ؛ فانقَطِعْ إلى الله بقلب منيب ، وعزمٍ ليس فيه شكٌ . والسلام »[1] !.

ويرتبط بهذا – الحثُّ على الإقلال من الإخوان ومخالطة الناس ، ولهذا يقول : « حب لقاء الناس من حبّ الدنيا ، وتركهم من ترك الدنيا » ؟ وقال : « أقلُّوا من الاخوان والأخِلاّء »[2] . وقال : اتخذ اللهَ صاحباً ، وذرِ الناس جانباً »[3] .

وله مواعظ في ذم الدنيا تذكرنا بكلمات الحسن البصري ، ومن ذلك قولـــــه :

« ليس مِنْ أعلام الحبّ أن تحبّ ما يُبْغِض حبيبُك : ذَمّ مولانا الدنيا فمدحناها ، وأبغضها فأحببناها ، وزهّدنا فيها فآثرناها ورَغِبْنا في طلبها . وَعَدَكم خراب الدنيا فحصّنتموها ، ونُهِيتم عن طلبها فطلبتموها . وأنذرتم (من) الكنوز فكنزتموها ! . دعتكم إلى هذه الغرّارة دواعيها فأجبتم مسرعين مناديها . خدعتكم بغرورها وَمنتكم فأنفذتم خاضعين لأمنيتها تتمرّغون في زهواتها ، وتتمتعون في لذّاتها ، وتتقلبون في شهواتها ، وتتلوّثون بتباعتها . تنبشون ، بمخالب الحرص ، عن خزائنها ، وتحفرون ، بمعاول الطمع ، في معادنها ؛ وتَبْنون ، بالغفلة ، في أماكنها ؛ وتحصّنون ، بالجهل ، في مساكنها . تريدون أن تجاوروا الله في داره ، وتحطوا حالكم بقربه ، بين أوليائه وأصفيائه ، وأهل ولايته ، وأنتم غرقى في بحار الدنيا حيارى ، ترتعون في زهواتها ، وتتمتعون في لذاتها ، وتتنافسون في غمراتها . فمن جَمْعِها ما تشبعون ، ومن التنافس فيها ما تملّون . كذبتم والله أنفسكم ، وغرّتكم ومنّتكم الأماني ، وعللتكم بالتواني ، حتى لا تعطوا اليقين من قلوبكم واله لدق

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ١٨ – ١٩ .

(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ١٩ .

(٣) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٣٧ .

من نياتكم . وتتنصّلون إليه من مساوىء ذنوبكم وتعصوه في بقية أعماركم . أما سمعتم الله تعالى يقول في محكم كتابه : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار » ! [1] . لا تُنال جَنّتُه إلاّ بطاعته ، ولا تُنال ولايته إلا بمحبته ، ولا تُنال مرضاته إلا بترك معصيته ، فإن الله تعالى قد أعدّ المغفرة للأوّابين ، وأعدّ الرحمة للتوّابين ، وأعدّ الجنّة للخائفين ، وأعدّ الحور للمطيعين ، وأعدّ رؤيته للمشتاقين » [2] .

ويذكر ابن أدهم أنه خرج يريد بيت المقدس فلقي سبعة نفر فسألهم أن يفيدوه شيئاً ينتفع به فقالوا له : انظر كل قاطع يقطعك عن الله من أمر الدنيا والآخرة فاقطعه . انظر ألا ترجو أحداً غير الله ولا تخاف غيره . انظر كلّ من يحبُّه فأحِبّه وكلّ مَنْ يُبْغِضه فأبْغِضْه . عليك بالدعاء والتضرع والبكاء في الخلوات ، والتواضع والخضوع له حيث كنتَ ، والرحمة للمسلمين والنصح لهم [3] .

٢ ــ الزهــد :

ويميز ابن أدهم بين ثلاثة أنواع من الزهد ، فيقول : « الزهد ثلاثة أصناف : فزُهْدُ فرضٍ ، وزهد فضلٍ ، وزهد سلامة . فالفرض : الزهد في الحرام ، والفضل : الزهد في الحلال ، والسلامة : الزهد في الشبهات » [4] .

ومن الزهد كراهية الشهرة . قال ابن أدهم : « ما صدق اللهَ عبدٌ أحبَّ الشهرة » [5] .

---

(١) سورة ص آية ٢٧ – ٢٨ . .
(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٢٥ .
(٣) راجع : أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٢٥ – ٢٦ .
(٤) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٢٠٦ .
(٥) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٣١ .

ومن الزهد قلة الحرص . قال ابن أدهم : « قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع تورث كثرة الغم والجزع »[1] .

٣ — التواضع :

وكان ابرهيم بن أدهم ينهى عن الكبر ويحث على الخضوع والتواضع . ومن ذلك قوله :

« إياكم والكبر ! إيّاكم والإعجابَ بالأعمال ! انظروا إلى مَنْ دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم ! مَنْ ذلّل نفسه رفعه مولاه ؛ ومَنْ خضع له أعزّه ؛ ومَنْ اتقاه وقاه ؛ ومن أطاعه أنجاه ؛ ومَنْ أقبل إليه أرضاه ؛ ومَنْ توكّلَ عليه كفاه ؛ ومَنْ سأله أعطاه ؛ ومَنْ أقرضه قضاه ؛ مَنْ شكره جازاه . فينبغي للعبد أن يَزِنَ نفسه قبل أن يُوزَن ، ويُحاسِب نفسه قبل أن يُحاسَب ، ويتزيّن ويتهيأ للعرض على الله العليّ الأكبر »[2] .

وقال أيضاً : « اشغَلُوا قلوبكم بالخوف من الله ، وأبدانكم بالدأب في طاعة الله ، ووجوهكم بالحياء من الله ، وألسنتكم بذكر الله . وغضُّوا أبصاركم عن محارم الله ، فإن الله تعالى أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمدا ! كل ساعة تذكرني فيها فهي لك مذخورة ؛ والساعة التي لا تذكرني فيها فليست لك . هي عليك ، لا لك »[3] .

٤ — حب الله :

ونجد عند ابن أدهم بعض فقرات يعبر فيها عن الحب الإلهي ، ويعدّ بهذا أول من تكلم فيه ، إن صحّت هذه العبارات عنه :

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٣٥ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٤٠ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٤٠ .

أ — من ذلك قوله : « لو أن العباد علموا حبّ الله — عز وجل — لقلّ مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبّوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى إن منهم قائماً وراكعاً وساجداً منذ خَلَقَ الله تعالى الدنيا ما التفت إلى مَنْ عَن يمينه وشماله ، اشتغالاً بالله — عزّ وجل — وبخدمته » (١) .

ب — ونراه يعبّر عن الصوفية بوصف « المحبّين » . ذكر أبو نعيم عن فارس النجار أنه قال : « بلغني أن ابرهيم بن أدهم رأى في المنام كأنّ جبريل — عليه السلام — قد نزل إلى الأرض ، فقال له : لِمَ نزلت إلى الأرض ؟ قال : لأكتب المحبّين . قال : مِثل مَنْ ؟ قال : مثل مالك بن دينار ، وثابت البنّاني ، وأيوب السختياني — وعدّ جماعات . قال : أنا منهم ؟ قال : لا . فقلت : فإذا كتبتهم فاكتب تحتهم : مُحِبٌّ للمحبّين » . قال : فنزل الوحي : اكتبه أوّلهم » (٢) .

ج — كما يصفهم في جملة أخرى بوصف : « الأحباء المشتاقين » — قال : « بؤساً لأهل النار لو نظروا إلى زوّار الرحمن قد حُمِلوا على النجائبُ يزفّون إلى الله زَفّاً ، وحُشِروا وفداً وفداً ، ونصبَ لهم المنابرَ ، ووضعت لهم الكراسي ، وأقبل عليهم الجليلُ — جل جلاله — بوجهه ليَسُرُّهم ، وهو يقول : إلي عبادي إلي عبادي ، إلي أوليائي المطيعين ، إلي أحبّائي المشتاقين إلي أصفيائي المحزونين . هأنذا ! عرّفوني : مَنْ كان منكم مشتاقاً أو محبّاً أو متعلقاً فليتمتع بالنظر إلى وجهي الكريم . فوَعزّتي وجلالي لأفرحنكم بجواري ، ولأسرّنكم بقربي ، ولأبيحنّكم كرامتي . من الغرفات تُشْرِفون ، وتتّكئون على الأسِرّة فتتملّكون . تقيمون في دار المقامة أبداً لا تظعنون . تَأمَنون فلا تحزنون . تصِحّون فلا تسقمون : تتنعّمون في رَغَد العيش لا تموتون .

---

(٢) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٣٦ .
(٣) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٣٤ — ٣٥ .

وتعانقون الحورَ الحسان فلا تملّون ولا تسأمون . كلوا واشربوا هنيئاً ، وتنعّموا : بما أنحلتم الأبدان ، وأنهكتم الأجساد ، ولزمتم الصيام ، وسهرتم بالليل والناس نيسام » [1] .

٥ – نظرته في الجنة :

لكن لا يبدو من هذه الفقرات أن لابرهيم بن أدهم نظرية خاصّة مفصّلة في العشق الإلهي على نحو ما سنرى عند رابعة العدوية . وإنما كلامه هنا عام .

وهناك شبه آخر مع رابعة العدوية ، وذلك في نظرته إلى الجنة . وقد عبّر عنها في جملتين متقاربتين هما :

أ – قال : « اللهم إنّك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناحَ بعوضة ؛ إذا أنت آنستني بذكرك ، ورزقتني حُبّك ، وسهّلت عليّ طاعتك ، فأعطِ الجنة لمن شئت » [2] .

ب – وقال : « اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناحَ بعوضة فما دونها ، إذا أنت وهبت لي حُبّك ، وآنستني بمذاكرتك ، وفرّغتني للتفكر في « عظمتك » [3] .

وهذه المعاني بعينها نجدها عند معاصرته رابعة العدوية كما بينا ذلك بالتفصيل في كتابنا شهيدة العشق الآلهي [4] .

٦ – الإيثـار :

وكان ابرهيم بن أدهم يدعو إلى الايثار قبل كل شيء ، وعلى هذا أصّل مبدأ

(١) أبو نعيم : « الحلية » ج ٨ ص ٣٧ .
(٢) الكتاب نفسه ج ٨ ص ٣٥ .
(٣) الكتاب نفسه ج ٨ ص ٣٦ .
(٤) عبد الرحمن بدوي : « شهيدة العشق الإلهي : رابعة العدوية » ص القاهرة .

التصوف . ذكر أبو نعيم أنه اجتمع شقيق البلخي مع ابرهيم بن أدهم أثناء الطواف حول البيت الحرام في الحج . « فقال ابرهيم لشقيق : على أيّ شيء أصَّلْتم أصلكم ؟ قال (شقيق) : أصَّلْنا أصلنا على أنّا إذا رُزِقنا أكلنا ، وإذا مُنِعنا صبرنا . فقال ابرهيم : هكذا تفعل كلابُ بلخ . فقال له شقيق : فعلى ماذا أصَّلْتم ؟ قال (ابرهيم) : أصَّلْنا على أنّا إذا رُزِقنا آثرنا ، وإذا مُنِعنا شكرنا وحمدنا . فقام شقيق فجلس بين يدي ابرهيم وقال : يا أستاذ ! أنتَ أستاذنا »[1] .

وقد رويت روايات كثيرة عن هذا اللقاء الأول بين شقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤ هـ وقيل سنة ١٥٣ هـ) وبين ابرهيم بن أدهم أثناء هذا الحج . ومن ذلك أن ابرهيم سأله : ما بَدْءُ أمرك الذي بلّغك إلى هذا ؟ فذكر شقيق أنه رأى في بعض الفلوات طائراً مكسور الجناحين ، أتاه طائر صحيح الجناحين في منقاره جرادة فأطعمه إياها . قال شقيق : فتركت التكسُّب لذلك واشتغلتُ بالعبادة . فقال له ابرهيم : ولِمَ لا تكون أنت الطائرَ الصحيح الذي أطعم الطائر المكسور ، حتى تكون أفضل منه ؟ أما سمعت عن النبي (ص) أنه قال : « اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى » ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار ؟ فأخذ شقيقٌ يدَ إبراهيم وقبّلها وقال : أنت أستاذنا يا أبا اسحق .

فابرهيم بن أدهم إذن يرى الإيثار إذا وَجَد ، ويدعو إلى التكسب حتى يكون المرء مُعْطياً لا مستعطياً .

وأُثِرَتْ عن ابرهيم بن أدهم أدعيةٌ عديدة منها :

٧ ـ أدعيته :

أ ـ كان له هذا الدعاء يدعو به ربه في كل جمعة إذا أصبح عشر

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٣٧ – ٣٨ .

مرات ، وإذا أمسى يقول مثل ذلك — وهو : « مرحباً بيوم المزيد ، والصبح الجديد ، والكتاب الشهيد . يومنا هذا يومُ عيد . اكتب لنا فيه ما نقول . بسم الله الحميد المجيد ، الرفيع الودود ، الفعّال في خلقه ما يريد . أصبحتُ بالله مؤمناً ، وبلقاء الله مصدّقاً ، وبحُجتّه معترفاً ، ومن ذنبي مستغفراً ، ولربوبية الله خاضعاً ، ولسوى الله جاحداً ، وإلى الله تعالى فقيراً ، وعلى الله متوكلاً ، وإلى الله منيباً . أُشْهِدُ اللهَ وأُشْهِد ملائكته وأنبياءه ورسله وحَمَلة عرشه ، ومن خلق ومَنْ هو خالق — : بأن الله لا إله إلا هو ، وحده لا شريك له ؛ وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ؛ وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكراً ونكيراً حق ؛ ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعة آتيةٌ لا ريب فيها ، وأن الله يبعث مَنْ في القبور . على ذلك أحيا ، وعليه أموت ، وعليه أبْعَثُ إن شاء الله .

اللهم أنت ربي لا ربّ لي إلاّ أنت . خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك اللهمّ مِنْ شَرّ كلّ ذي شر .

اللهم إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت . واهدِني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت . واصرِفْ عنّي سيّئها فإنه لا يصرف سيّئها إلاّ أنت .

لبّيْكَ وسَعْدَيك ، والخير كله بيديك . وأنا لك ، أستغفرك وأتوب إليك .

آمنتُ ، اللهم ، بما أرسلتَ من رسول . وآمنتُ ، اللهم ، بما أنزلت من كتاب . « صلى الله وسلم على محمد وعلى آله وسلّم كثيراً » : خاتم كلامي ومفتاحه ، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يا ربّ العالمين . اللهم أوْرِدنا حوضه ، واسقنا بكأسه مشرباً مريئاً سائغاً هنيئاً لا نظمأ بَعْده أبداً . واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ناكسين ولا مرتابين ولا مقبوحين ولا مغضوباً علينا ولا ضالّين . اللهم اعصمني من فتن الدنيا ، ووفقني لما تحبُّ من العمل وترضى ،

وأصلِح ليَ شأني كله . وثبّتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولا تُضلّني وإن كنتُ ظالماً . سبحانك سبحانك يا عليّ ، يا عظيم ، يا باري ، يا رحيم ، يا عزيز ، يا جبّار . سبحان مَنْ سبّحت له السموات بأكنافها . سبحان من سبّحَتْ له الحيتان بلغاتها . وسبحان من سبّحَتْ له النجوم في السماء بأبراقها . وسبحان من سبّحَتْ له الشجر بأصولها ونضارتها . وسبحان مَنْ سبّحَتْ له السموات السبع ، والأرضون السبع ومَنْ فيهنّ ومَنْ عليهنّ . سبحانك ! سبحانك يا حيّ ، يا حليم ، سبحانك لا إله إلاّ أنت وحـــدك » [1] .

وهذا الدعاء هو في الوقت نفسه بيـــان عقيدة profession de foi إذ يحتوي على أصول العقيدة الإسلامية . والصورة التي ورد بها ستكون نموذجاً لذلك الفيض الهائل من أدعية الصوفية وأحزابهم ، ولكنه يمتاز عليها بقلة التكرار ، والاهتمام بمعاني العقيدة ، وعدم ترداد عبارات بعينها إلاّ لأقل مقدار (مثل : سبحانك ، اللهم ، سبحان ، «يا» متلوة بالأسماء الحسنى).

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٣٨ — ٣٩ .

— ٢ —

شقيق البلخي *

من مشاهير مشايخ خراسان ؛ ويقول السلمي عنه : « وأظنّه أول من تكلم في علوم الأحوال بكُور خراسان » (ص ٦١) . هو شقيق بن ابرهيم ، أبو علي ، الأزدي ، من أهل بلخ (*) .

وكان في بدء حاله غنياً جداً ، فقد ذكر حفيده علي بن محمد بن شقيق إنه كان لجده ثلثمائة قرية .

ويروى أن السبب في سلوكه طريق التصوف هو أنه « كان قد خرج إلى بلاد الترك لتجارة — وهو حَدَثٌ الى قوم يقال لهم الخصوصية وهم يعبدون الأصنام. فدخل إلى بيت أصنامهم ، وعالِمهُم فيه حلَق رأسه ولحيته ، ولبس ثياباً حمراء أرجوانية. فقال له شقيق: إن هذا الذي أنت فيه باطل. ولهؤلاء ولك ولهذا الخَلْق خالِقٌ وصانع ليس كمثله شيء ، له الدنيا والآخرة ، قادر على كل شيء رازق كل شيء . فقال له الخادم: ليس يوافق قولُك فِعلَك. فقال له شقيق: كيف

* ترجمته في : السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٦١ — ٦٦ ؛ أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٥٨ — ٧٣ ؛ ابن خلكان : « وفيات الأعيان » جـ ٢ ص ١٧١ (طبعة محي الدين) ؛ ابن شاكر الكتبي : « فوات الوفيات » جـ ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، القاهرة سنة ١٩٥١ : « صفة الصفوة » جـ ٤ ص ١٣٣ — ١٣٤ ؛ القشيري : « الرسالة » ص ١٦ ، الشعراني : « الطبقات الكبرى » جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ ؛ ابن العماد : « شذرات الذهب » جـ ١ ص ٣٤١ ؛ الذهبي : « ميزان الاعتدال » جـ ١ ص ٤٤٩ ؛ اليافعي : « مرءاة الجنان» ط ١ ص ٤٤٥ .

(*) كانت بلخ (وهي الآن قرية صغيرة في شمال أفغانستان) قبل الاسلام مركزاً للديانة البوذية ، وكان فيها دير بوذي مشهور يدعى «نوبهار» كان على رأسه برمك الذي كان له نفوذ كبير على المدينة.

ذاك ؟ قال : زعمت أن لك خالقاً رازقاً قادراً على كل شيء ، وقد تغيّبت إلى هاهنا لطلب الرزق ولو كان كما تقول فإن الذي رزقك هاهنا هو الذي يرزقك ثمّ ، فتربح العناء ! قال شقيق : « وكان سبب زهدي كلامُ التركي » . فرجع وتصدق بجميع ما ملك وطَلَب العلم »[1] .

عمّن اخذ شقيق علم الطريق ؟

يقول السلمي (ص ٦٠) إنه « صحب ابرهيم بن أدهم ، وأخذ عنه» ولكنه لا يذكر متى كان ذلك : هل كان في بدء دخوله الطريق ، أو فيما بعد . إذ أن ما أوردناه من قبل عن لقائهما بمكة ينذرُ بأن لقاءهما كان متأخراً ، بعد أن سلك شقيق طريق التصوف مدة غير قصيرة . ومن هنا يغلب على الظن أنه أخذ عن ابن أدهم الطريقة بعد لقائه به في الحج .

ثم إن قوله : « صَحِبَ ابرهيم بن أدهم » يعني صحبةً طويلة . لكن مصادرنا لا تذكر أنه ذهب إلى الشام ، ونحن نعلم من ناحية أخرى أن ابن أدهم ذهب إلى الشام بعد الحج ؛ ونعلم أن شقيقاً البلخي أقام خصوصاً في خراسان ، ومن هنا عُدّ من مشاهير مشايخ خراسان . لهذا ينبغي أن نفترض أن صحبة شقيق لابرهيم بن أدهم كانت قصيرة ، وفي مكة فحسب ، ولم تكن في غيرهـــا .

وليس لدينا عن حياة شقيق البلخي بعد هذا غير معلومات ضئيلة جداً .

---

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٥٩ . وذكرها ملخصة : ابن خلكان جـ ٢ ص٧ ١١ ؛ وابن الجوزي في « صفة الصفوة » جـ ٤ ص ١٣٣ . واشارته هنا إلى كون العالم الجالس في بيت الأصنام « حلق رأسه ولحيته ولبس ثياباً أرجوانية » تدل على أن بيت الأصنام هذا كان معبداً بوذياً ، إذ هذه علامات خاصة بالراهب البوذي . فرأسه حليق ولحيته حليقة ، والأثواب الثلاثة التي يحق له لبسها كانت في الأصل حمراء قانية (= أحمر أرجواني أو حمراء مصفرة . راجع – في « دائرة معارف الدين والأخلاق » المقال الخاص بالرهبنة البوذية ، جـ ٨ ص ٧٩٨ عموداً ، نيويورك سنة ١٩٦٤ (الطبعة الأولى سنة ١٩١٥) .

من ذلك ما رواه تلميذه حاتم الأصمّ فقال : « كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافّو الترك ، في يوم لا أرى فيه إلاّ رءوساً تطير ، وسيوفاً تَقْطَع ، ورماحاً تَقْصِف . فقال لي شقيق ونحن بين الصفّين : كيف ترى نفسك يا حاتم ؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفت إليك امرأتك ؟ قلتُ (أي حاتم) : لا والله ! قال : لكنّي والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زُفّتْ فيها امرأتي .

قال (أي حاتم) : ثم نام (أي شقيق) بين الصفّين . ودَرَقته [١] تحت رأسه ، حتى سمعتُ غطيطه .

قال حاتم : ورأيت رجلاً من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي . فقلتُ : مالك ؟ قال : قُتِل أخي . قلتُ : حظٌّ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه . قال (حاتم) : فقال (هذا الرجل) لي : اسكت ! ما أبكي أسفاً عليه ولا على قتله ؛ ولكنني أبكي أسفاً أن لا أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف .

قال حاتم : فأخذني في ذلك اليوم تركي فأضجعني للذبح ، فلم يكن قلبي به مشغولاً ؛ كان قلبي بالله مشغولاً ، أنظر ماذا يأذن الله له فيّ . فبينا هو (أي التركي) يطلب السكين من جَفْنة [٢] إذ جاءه سهم غائر فذبحه ، فألقاه [٣] عني » [٤] .

وفاته

ولا بد أن تكون هذه المعركة هي معركة كولان ، من بلاد الترك ، التي

---

(١) الدرقة : الترس من جلود ليس فيه خشب ، والجمع : درق .
(٢) الجفن : الغمد .
(٣) أي بعيداً عني .
(٤) أبو نعيم : « حلية الأولياء » ج ٨ ص ٦٤ ؛ وباختصار في « فوات الوفيات » ج ١ ص ٣٨٦ ، القاهرة سنة ١٩٥١ .

قتل فيها شقيق البلخي ، وذلك في سنة أربع وتسعين ومائة . قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٩٤ : « وفي هذه السنة قُتِل شقيق البلخي الزاهد ، في غزاةَ كولان من بلاد الترك » [١] . وقال ابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات » عن شقيق : « ومات في غزوة كولان سنة أربع وتسعين ومائة [٢] » . وقال ابن العماد في « الشذرات » (جـ ١ ص ٣٤١) : « وفيها استشهد – في غزوة – أبو علي شقيق البلخي الزاهد » .

وقد أخطأ ابن خلكان حين قال : وكانت وفاته (أي شقيق البلخي) سنة ثلاث وخمسين ومائة » [٣] – بدليل ما ذكره ابن الأثير ، واستدركه ابن شاكر الكتبي على ابن خلكان . ويرجّحّ وفاته في سنة ١٩٤ لا في سنة ١٥٣ أنه تتلمذ على ابرهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١ أو سنة ١٦٢ أو سنة ١٦٣ .

تلاميـــذه

وقد اجتمع حوله مريدون كثيرون جداً . قال ابن العماد في « شذرات الذهب » (جـ ١ ص ٣٤١) : « سافر مرةً وفي صحبته ثلثمائة مريد . وهو شيخ حاتم الأصم » .

لكن أشهر تلاميذه هو حاتم الأصم ، وقد قال عن نفسه : « اختلفتُ إلى شقيق ثلاثين سنة » [٤] .

---

(١) ابن الأثير : « الكامل في التاريخ » جـ ٦ ، حوادث سنة ١٩٤ ، ص ٩٥ ، القاهرة سنة ١٣٠١ هـ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : « فوات الوفيات » جـ ١ ص ٣٨٦ ، القاهرة سنة ١٩٥١ ، وفيها ورد اسم كولان خطأً هكذا : كوملان . قال ياقوت : « كولان (بالضم ، وآخره نون) : بلدة طيبة في حدود بلاد الترك من ناحية بما وراء النهر » (معجم البلدان » جـ ٤ ص ٤٩٤ ، بيروت سنة ١٩٥٧) .

(٣) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » جـ ٢ ص ١٧١ ، برقم ٢٧٥ ، القاهرة (عبد الحميد) .

(٤) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » جـ ٤ ص ١٣٥ .

آراؤه

١ ــ بداية الطريق :

يرى شقيق أن ثمّ سبعة أبواب يُسْلَك منها إلى طريق الزهد وهي :

١ ــ الصبر على الجوع بالسرور ، لا بالفتور ؛ بالرضا لا بالجزع ؛
٢ ــ والصبر على العُرْي بالفرح لا بالحزن ؛
٣ ــ والصبر على طول الصيام بالتفضل ، لا بالتعسف ، كأنه طاعم ناعم ؛
٤ ــ والصبر على الذل بطيب نفسه لا بالتكره ؛
٥ ــ والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط ؛
٦ ــ وطول الفكرة فيما يودع بطنه من المطعم والمشرب ، ويكسو به ظهره من أين ، وكيف ، ولعل ، وعسى [1] .

فالصوفي لا بد له أن يصبر على هذه الأمور الشديدة : الجوع ، العري ، الصيام ، الذل ، البؤس ، التورع عن المحرّمات ، وأن يتحملها عن طيب خاطر ورغبة في معاناتها وكأنها من الأمور الممتعة لنفسه . والمهم في الزهد هو هذا الرضا بهذه الشدائد والإقبال عليها بشغف وحرص . وهذا التحديد هو الذي يعطي لكلام شقيقٍ البلخي جدّته وعمقه .

ويفرّق شقيق بين المتزهّد والزاهد فيقول : « عشرة أبواب من الزهد

(١) راجع « حلية الأولياء » ج ٨ ص ٧٠ .

يسمّى الرجل منها زاهداً إذا فعلها ؛ فإذا خالفها سُمّي متزهداً — والمتزهّد الذي يتشبّه بالزهاد في رؤيته وسُمْعته وخشوعه وقوله ، ومدخله ومخرجه ، ومطعمه وملبسه ، ومركبه ، وفعله ، وحرصه ؛ وحبّ الدنيا يشهد عليه بخلافه . ترى رضاه رضا الراغبين ، وبساطه في كلامه وعجلته بساط الراغبين ، وحسده وبَغْيَه وتطاوله وكِبْره وفخره وسوء خلقه وحفا لسانه وطول خوضه فيما لا يعنيه يدلّ على نفاق المتزهد ، لا على خشوع الزاهد . فاحذر من هذه الصفة . وإذا وجدت فيمن يزعم أنه زاهدٌ هذه الخصال التي أصفها لك ، فارْجُ له بأن يكون في بعض طريق الزهّاد : (١) إذا سرّته حسنة وساءته سيئة . (٢) وكره أن يُحْمَد بما لم يفعل من البرّ ، فأمّا إذا لم يفعل فيكرهه كما يكره لحم الخنزير والميتة والدم . (٣) وإذا عرف هذه الخصال وصرف فيها نهاره وساعاته وليلته وساعاتها ؛ نقص أمَلُه وطال غَمّه بما أمامه . (٤) فإذا شَغَل نَفْسَه بغير ما خُلِق له طال حزنه ، وعلم أنه مفتون ، وترك مَنْ شغله عن الطاعة في تلك الساعة . فبهذا يجدون حلاوة الزهد ، وبه يحترزون من حزب الشيطان . (٥) وإنّ ذِكْرَ الله عندهم أحلى من العسل ، وأبرد من البرد ، وأشفى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف . (٦) وتكون مجالستهم مع من يصف لهم الزهادَ ويَعِظهم أحبَّ إليهم وأشهى عندهم ممن يعطيهم الدنانير والدراهم عند الحاجة — وذلك بقلوبهم ، لا بألسنتهم . (٧) وأن يخلو أحدهم بالبكاء على ذنوبه وعلى الخوف الشديد أن لا يُقْبَلَ منه ما يعمل . (٨) ويُظْهِر للناس من التبسُّم والنشاط كأنّه ذو رغبة لا ذو رهبة . (٩) وأن لا يحدّث نفسه أنه خيرٌ من أحدٍ مِنْ أهل قبلته . (١٠) وأن يعرف ذنوبه ولا يعرف ذنوب غيره .

فإذا كانت فيه هذه الأبواب العشرة كان في طريق الزهّاد ؛ فأرجو أن يَسْلُكَه ، إن شاء الله .

وسبعة أبوابٍ تتلو هذه الأبواب :

١ — التواضع لله بالقلب ، لا بالتصنع ؛

٢ — والخضوع للحق طوعاً ، لا بالاضطرار ؛

٣ — وحُسْن المعاشرة مع مَنْ ابتُلِي بمعاشرتهم ، لا رغبةً فيما عندهم ؛

٤ — والهربُ من المنكَبِّين على الدنيا كهرب الحمار من البيطار ، والنفور عنها كنفور الحمار من زئير السبع ؛

٥ — وطلب العافية من كل ما يخاف عقابه ، ولا يرجو ثوابه ؛

٦ — ومجالسة البكّائين على الذنوب والرحمة لنفسه ولأنفسهم ، ومخاطبة العالمين بظاهره لا بقلبه ؛

٧ — ولا يتخوف من الكائن بعد الموت والأهوال والشدائد .

فإذا فعل ذلك ، سلك طريق الزهّاد ، ونال أفضل العبادة » (١) .

وهذا برنامج حافل لمن أراد سلوك الطريق . ويبرز منه المعاني التالية :

أ — البكاء على الذنوب ، وهو ما سماه الحسن البصري «البكاء على الخطيئة » ؛

ب — أن يعرف السالكُ ذنوب نفسه ، ولا يعرف ذنوب غيره . وهذا يدخل في باب المحاسبة الذي سنجده واضحاً كل الوضوح عند الحارث المحاسبي . وعلى السالك أن يستر على أخيه عيبه ولا يفشي في الناس عيب غيره ، رجاء رجوعه عن المعصية واستصلاح نفسه (٢) .

جـ — استبطان الأعمال ، بأن تكون بالقلوب قبل أن تكون بالجوارح . وهذا ينسحب إلى كل الخصال : فالتواضع لله يجب أن يكون بالقلب ، لا بتصنع مظاهر خارجية ؛ والخضوع للحق يكون طوعاً ، لا باضطرار .

د — الدعوة إلى معرفة المرء لنفسه .

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٦٦ .

٢ ــ المعرفــة :

وشقيق يدعو بحرارة إلى المعرفة . والمعرفة عنده على أربعة أنواع :

١ ــ معرفة الله ؛

٢ ــ ومعرفة المرء نفسه .

٣ ــ ومعرفة أمر الله ونهيه .

٤ ــ ومعرفة عدو الله وعدو نفسه .

أما معرفة الله فهي « أن تعرف بقلبك انه لا معطي غيره ولا مانع غيره ولا ضار غيره ولا نافع غيره .

وأما معرفة النفس ، (فهي) أن تعرف نفسك أنك لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع شيئاً من الأشياء الا أن يشاء الله .

وأما معرفة أمر الله تعالى ونهيه فهي « أن تعلم أن أمر الله عليك وأن رزقك على الله ؛ وأن تكون واثقاً بالرزق ، مخلصاً في العمل . وعلامة الإخلاص أن لا تكون فيك خصلتان : الطمع والجزع .

وأما معرفة عدو الله (فهي) أن تعلم أن لك عدوّاً لا يقبل الله منك شيئاً إلاّ بالمحاربة . والمحاربة في القلب أن تكون محارباً مجاهداً متعباً للعدو »[1] .

ويجب أن يَعْرِف الله بالقدرة أي أن الله قادر إذا كان معه شيء أن يأخذه منه فيعطيه غيره ، وإذا لم يكن معه شيء فالله قادر أن يعطيه[2] .

٣ ــ التوكــل :

وينقسم التوكل إلى أربعة أنواع :

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) المرجع نفسه جـ ٨ ص ٦٦ .

١ ــ توكل على المال ؛
٢ ــ وتوكل على النفس ؛
٣ ــ وتوكل على الناس ؛
٤ ــ وتوكل على الله .

« وتفسير التوكل على المال أن تقول : ما دام هذا المال في يدي فلا أحتاج إلى أحد . والتوكل على النفس هو الاعتداد بقوى الانسان الخاصة وحدها . والتوكل على الناس الاعتماد عليهم في كل الحوائج . « وتفسير التوكل على الله أن تعرف أن الله تعالى خلقك . وهو الذي ضمن رزقك وتكفّل برزقك ، ولم يحوجك إلى أحد ، وأنت تقوله بلسانك : « والذي يطعمني ويسقيني » (سورة الشعراء آية ٧٩) ــ فهذا هو التوكل على الله . وقال الله تعالى : « وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين » (سورة المائدة آية ٢٣) ، « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (سورة المائدة آية ١١) وقال : « إن الله يحب المتوكلين » (سورة آل عمران آية ١٥٩ ») [1] .

ويعرّف التوكل تعريفاً عاماً فيقول : « التوكلُ أن يطمئنّ قَلْبُكَ بموعود الله » [2] .

ويدعو العبد إلى عدم الاهتمام : « لأن رزقك لا يُعْطَى لأحدٍ سواك » (السلمي ، ص ٦٣) .

٤ ــ الزهــد :

ويرى أن « ثلاث خصال » هي تاج الزاهد :

الأولى : أن يميل على الهوى ، ولا يميل مع الهوى ؛

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ١ ص ٦١ ــ ٦٢ .
(٢) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٦٣ .

والثانية : أن ينقطع إلى الزهد بقلبه ؛

والثالثة : أن يذكر — كلما خلا بنفسه — كيف مدخَله في قبره ، وكيف مخرجه ؛ ويذكر الجوع والعطش والعُرْيَ وطول القيامة والحساب والصّراط ، وطول الحساب والفضيحة البادية . فذكره لهذا كله يشغله عن ذكر دار الغرور » [1] .

« وأقرب الزهاد من الله أشدّهم خوفاً ؛ وأَحَبُّ الزهاد إلى الله أحسنهم له عملاً . وأفضل الزهّاد عند الله أعظمهم فيما عنده رغبة . وأكرم الزهاد عليه أتقاهم له . وأتم الزهاد زهداً أسخاهم نفساً وأسلمهم صدراً . وأكمل الزهاد زهداً أكثرهم يقينـــاً » [2] .

« والزاهد والراغب كرجلين : يريد أحدهما المشرق ، والآخر يريد المغرب — هل يتفقان على أمرٍ واحد ، وبغيتهما شتى ؟ !

دعاء الراغب : اللهم ارزقني مالاً وولداً وخيراً ، وانصرني على أعدائي ، وادفع عني شرورهم وحسدهم وبَغْيهم وبلاءهم وفتنتهم ، آمين !

ودعاء الزاهد : اللهم ارزقني علم الخائفين وخوف العاملين ، ويقين المتوكلين ، وتوكل الموقنين . وشكر الصابرين وصبر الشاكرين ، وإخبات المغلبين وإنابة المخبتين ، وزهد الصادقين ؛ وألحقني بالشهداء والأحياء المرزوقين . آمين ، ربّ العالمين !

هذا دعاؤه . هل (من) شيء من دعاء الراغب يحيط به ؟ لا ، والله ! هذا طريق ، وذاك طريق » [3] .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٦٢ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٧٠ .
(٣) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٧٠ .

٥ ــ الطاعـــة :

والطاعة ينبغي أن تكون لوجه الله ، لا طمعاً في ثواب . قال شقيق : « لكل شيء حُسْنٌ ، وحُسْنُ الطاعة أربعة أشياء : إذا رأى العبدُ نفسَه في طاعة فليَقُلْ لنفسه : هذه طيّبة من الله ، وهو الذي مَنّ بها عليّ . وإذا عَلِم ذلك كَسَر العجْبَ ، ويكون قلبه معلّقاً بالثواب . فإذا علق قلبه بالثواب كثر الرياء ، لأنه عَمِل ليثابَ عليه . فإذا وسوس له الشيطان يقول : إنما أعمله لثواب أنتظره من الله عز وجلّ . فعند ذلك يغلب الشيطان بإذن الله . فإذا عمله وهو يريد الثواب من الله تعالى فقد كَسَر الطمع من الناس والمحمدة والثناء . وتفسير الطمع نسيان الرب . فإذا نسي الله طَمع في الخلق . فهو في وقته ذلك عاقلٌ ، إلاّ أن يكون رجلاً يتلقى الأشياء من ربه وأراد بمسألته أن يؤجر في الآخــرة »[1] .

وينبغي لمن أصيب بالفقر بعد الغنى ألا يحزن ، بل أن يعلم أن القلة أعظم من النعمة . قال شقيق : « مَنْ خرج من النعمة ووقع في القِلّة — ولا تكون القلة أعظم عنده من النعمة — فهو في غمّين : غمٌ في الدنيا ، وغم في الآخرة . ومَنْ خرج من النعمة ووقع في القلّة ، وكانت القلّة أعظمَ عنده من النعمة التي خرج منها ، كان في فرَحين : فرح الدنيا ، وفرح الآخرة »[2] . والزاهد يخشى من الغِنى ، ويغتنم الفقر .

وعلامة المؤمن الصادق أن ينظر « إلى ما وعده الله ووَعَده الناس : بأيّهما قلبه أوثق »[3] .

والتقوى في الرجل إنما تعرف « في ثلاثة أشياء : في أخذه ، ومَنْعه ، وكلامه »[4] .

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٦٩ .

(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٦٩ ، السلمي ، ص ٦٥ .

(٣) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٦٦ ؛ السلمي ، ص ٦٤ .

(٤) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٦٣ .

٦ ـ الفقـــر :

وكان يدعو إلى اتقاء الأغنياء ؛ قال : اتّق الأغنياء ! فإنّك متى عقدت قلبك معهم ، وطمعت فيهم ، فقد اتخذتهم أرباباً من دون الله عز وجل .

والدليل على أن العبد اختار الفقر على الغنى هو أن « يخاف أن يصير غنيّاً ، فيحفظ الفقرَ بالخوف ، كما كان من قبل يخاف أن يصير فقيراً ، فيحفظ الغِنَى بالخوف » [١] .

وعليه أن يرى الفقر مِنّة من الله عليه . قال : « إن حفظ الفقر أن ترى الفقر مِنّةً من الله عليك ، حيث لم يُضَمّنك رِزْقَ غيرك ، ولم يَنْقُصْك مما قَسَم لك » .[٢]

٧ ـ التوبة والاستعداد للموت :

وتفسير التوبة عند شقيق البلخي : « أن ترى جُرْأتك على الله ، وترى حِلْمَ الله عنك » [٣] .

وأهل طاعة الله « أحياء في مماتهم ، وأهل المعاصي أمواتٌ في حياتهم » [٤] .

وعلى العبد أن يستعد للموت ، قال شقيق : « استعدّ إذا جاءك الموتْ لا تسأل الرجعة » [٥] أي استعد حين يأتيك الموت ألا تطلب العودة إلى الحياة لأداء صالح الأعمال ، بل استعد بحيث إذا جاءك الموت تكون واثقاً من أن ما

---

(١) السلمي ، ص ٦٥ .
(٢) السلمي ، ص ٦٥ .
(٣) السلمي ، ص ٦٥ .
(٤) السلمي ، ص ٦٦ .
(٥) السلمي ، ص ٦٣ .

قدمت من أعمال صالحة في الدنيا كفيلٌ بأن يبلغك الفوز في الآخرة .

ولهذا يقول أيضاً : « العاقلُ لا يخرج من هذه الأحرف الثلاثة :

الأول : أن يكون خائفاً لما سلَف منه من الذنوب ؛

والثاني : لا يدري ما ينزل به ساعةً بعد ساعة ؛

والثالث : يخاف من إبهام العاقبة فلا يدري ما يُختَم له »[1] .

(١) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٦٣ .

ـ٣ـ

حـاتم الأصـم *

وأبرز تلاميذ شقيق البلخي هو حاتم الأصمّ ، وهو من قدماء مشـايخ خراسان ، من أهل بلخ . وهو مولى للمُثَنّى بن يحيى المحاربي (المتوفى سنة ٢٢٣ هـ) .

واسمه حاتم بن عنوان ، ويقال حاتم بن يوسف ، ويقال : حاتم بن عنوان بن يوسف الأصم . وكنيته أبو عبد الرحمن .

ولد في بلخ . ثم قدم بغداد والتقى بالإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي — وكان في طريقه إلى الحج . ويذكر الخطيب البغدادي [1] هذا اللقاء ، وأن ابن حنبل سأله : « يا حاتم ! فيم التخلّص من الناس ؟ قال : يا أحمد ! في ثلاث خصال . قال : وما هي ؟ قال : أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً ، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحداً منهم حقاً لك ، وتحتمل مكروههم ولا تكره أحداً على شيء . فأطرق أحمد ينكت باصبعه على الأرض ، ثم رفع رأسه ثم قال : يا حاتم ! إنها لشديدة . فقال له حاتم : ولَيْتَك تَسْلَم ، ولَيْتَك تسْلم » .

(*) راجع عنه : أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٧٣ — ٨٤ ؛ ابن الجوزي : « صفة الصفوة » جـ ٤ ص ١٣٤ ، ١٣٧ ؛ الخطيب البغدادي : « تاريخ بغداد » جـ ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٥ ؛ « طبقات » الشعراني جـ ١ ص ٩٣ ؛ ابن العماد : « شذرات الذهب » جـ ٢ ص ٨٧ ؛ اليافعي : « مرآة الجنان » جـ ٢ ص ١١٨ ؛ « الرسالة القشيرية » ص ٢٠ ، بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

ولا بد أنّ ابن حنبل كان ، قبل هذا اللقاء ، على علمٍ بمكانة حاتم . ويؤيد ذلك ما رواه الخطيب البغدادي (نفس الموضع جـ ٨ ص ٢٤٢) أن ابن حنبل لما سمع بعض كلام حاتم منقولاً إليه قال : « سبحان الله ما أعقله من رَجُـــل ! » .

وجرت له مناظرات مع العلماء في بغداد ، فقطعهم ، على الرغم من أنه كان أعجميّ اللسان . وقد سُئِل عن السبب في انتصاره رغم أعجميته ، فقال : « معي ثلاث خصالٍ أظهر بها على خصمي . قالوا : أي شيء هي ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأَحْفَـظُ نفسي لا تتجاهل عليه . فبلغ ذلك أحمدَ بن محمد بن حنبل ، فقال : سبحان الله ! ما أعقله مِنْ رَجُـــــلٍ ! »[1] .

وقد تزوج أربع نسوة ، ورزق تسعة من الأولاد ؛ ومع ذلك لم يطمع الشيطان في أن يوسوس إليه في شيء من أرزاقهم[2] .

والحكاية التي تروى عن مصرع شقيق تروى عن حاتم الأصم أيضاً فقد ذكر الخطيب البغدادي هذه الحكاية منسوبة إلى حاتم لا إلى شقيق ، وهي أنه كان في معركة مع الترك ، فقال حاتم : « لقينا الترك ، وكان بيننا جولة . فرماني تركيٌّ بوهق[3] فأقلبني عن فرَسي . ونزل عن دابته فقعد على صدري ، وأخذ بلحيتي هذه الوافرة ؛ وأخرج من جفنة سكيناً ليذبحني به . فوحقّ سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكّينه ، إنما كان قلبي عند سيدي أنظر ما ينزل به القضاء منه ، وقلت : سيدي إن قضيت عليّ أن يذبحني هذا ، فعلى الرأس والعين إنما أنا لك وملكك . فبينا أنا اخاطب سيدي وهو قاعدٌ

---

(١) الخطيب البغدادي : « تاريخ بغداد » جـ ٨ ص ٢٤٢ . القاهرة سنة ١٩٣١ م .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٩ ص ٢٤٤ .
(٣) الوهق (محركة ، ويسكن) : الحبل يرمى في أنشوطة ، فتؤخذ به الدابة والإنسان .

على صدري آخذٌ بلحيتي ليذبحني ، إذ رماه بعضُ المسلمين بسهمٍ فما أخطأ حلقه . فسقط عنيّ . فقمتُ أنا إليه ، فأخذت السكين من يده فذبحته . فما هو إلاّ أن تكون قلوبكم عند السيّد (= الله) حتى تروا مِنْ عجائب لطفه ما لم تَرَوْا من الآباء والأمهات [1] » .

وتوفي حاتم الأصم في قرية تدعى واشَجَرْد (بالشين المفتوحة ، والجيم وراء ساكنة ، ودال مهملة) ، عند رباط يقال له : « رأس سَرُوند » وعلى جبلٍ فوق واشجرد — سنة سبع وثلاثين ومائتين هجرية [2]

---

(١) البغدادي : « تاريخ بغداد » جـ ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٩١ . واشجرد : من قرى ما وراء النهر ، نحو ترمذ . راجع ياقوت جـ ١٠ ص ٣٨٧ .

آراؤه وأقواله

يذكر الخطيب البغدادي (جـ ٨ ص ٢٤١ السطر الأخير) أن لحاتم الأصم « كلاماً مدوّناً في الزهد والحِكَم » . والجمل المروية عنه بليغة العبارة ، عميقة الإشارة ، لا تخلو من المفارقات . وربما كان هذا هو السبب في قول أبي بكر الوراق عنه : « حاتم الأصمّ : لقمان هذه الأمة : » (الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٢٤٥ س ١٣ — س ١٤) . وقد وصف حاتم حال نفسه فقال : « رأيتُ رزقي من عند ربي ، فلم أشتغل إلاّ بربيّ . ورأيتُ أن الله تعالى وكل بي ملكين يكتبان عليّ كلّ ما تكلمت به فلم أنطق إلاّ بالحق . ورأيتُ أن الخلق ينظرون إلى ظاهري ، والرب تعالى ينظر إلى باطني ، فرأيتُ مراقبته أوْلى وأوجب ، فسقطتْ عنيّ رؤية الخلق . ورأيتُ أن لله مستحثّاً يدعو الخَلْقَ إليه ، فاستعددتُ له متى جاءني لا أحتاج أن يقتلني — يعني مَلَك الموت »[1] .

وعلى نحو أكثر تفصيلاً يورد أبو نعيم أن شقيقاً البلخي سأل حاتماً الأصم : « مُذْ أنت صحبتني ، أيّ شيء تعلمتَ ؟ فقال (حاتم) : ست كلمات : قال : أوّلُهن ؟ قال (حاتم) : رأيتُ كل الناس في شكّ من أمر الرزق وإني توكلت على الله تعالى — « وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها » — فعلمتُ أنيّ مِنْ هذه الدواب ، فلم أشغل نفسي بشيءٍ قد تكفّل لي به ربّي .

---

(١) ابن الجوزي : « صفة الصفوة » جـ ٢ ص ١٣٥ ، حيدر أباد سنة ١٣٥٦ هـ .

قال : أحسنت ! فما الثانية ؟

قال (حاتم) : رأيت لكل إنسان صديقاً يفشي إليه سرّه ويشكو إليه أمره . فقلت : أنظر مَنْ صديقي ، فكل صديق وأخ رأيته قبل الموت ، فأردت أن أتخذ صديقاً يكون لي بعد الموت ؛ فصادقتُ الخير ليكون معي إلى الحساب ، ويجوز معي إلى الصراط ، ويثبتني بين يدَيْ الله عز وجلّ .

قال : أصَبْتَ . فما الثالثة ؟

قال (حاتم) : رأيت كلّ الناس لهم عدوٌّ فقلتُ : أنظر من عدوي ؛ فأمّا من أثابني فليس عدوّي ، وأمّا مَنْ أخذ منّي شيئاً فليس هو عدوّي . ولكن عدوّي الذي إذا كنتُ في طاعة الله أمرني بمعصية الله ، فرأيت ذلك إبليس وجنوده ، فاتخذتهم عدوّاً ، ووضعت الحرب بيني وبينهم ، وَوَتّرْتُ قوسي ووصلت سهمي فلا أدعه يقربني .

قال : أحسنت . فما الرابعة ؟

قال : رأيت الناس لهم طالبٌ كلّ واحد منهم يوماً واحداً ، فرأيت ذلك مَلَكَ الموت ، ففرّغتُ له نفسي ، حتى إذا جاء لا ينبغي أن أمسكه ، وأمضي معه .

قال (أي شقيق) : أحسنت . فما الخامسة ؟

قال (حاتم) : نظرتُ في هذا الخلق فأحببت واحداً وأبغضت واحداً : فالذي أحببته لم يُعْطِني ، والذي أبغضتُه لم يأخذ منّي شيئاً . فقلت : مِنْ أين أتيت هذا ؟ فرأيت أني أتيت هذا مِنْ قِبَل الحسد . فطرحتُ الحسد من قلبي ، وأحببت الناس كلّهم . فكل شيء لم أرضه لنفسي ، لم أَرْضَه لهم .

قال (شقيق) : أحسنت . فما السادسة ؟

قال حاتم) : رأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى ، ورأيت مأواي

القبر . فكل شيء قدرت عليه من الخير قدّمته لنفسي حتى أَعْمُرَ قبري ، فإن القبر إذا لم يكن عامرا لم يُسْتَطَعْ القيامُ فيه .

فقال شقيق : عليك بهذه الخصال الستة ، فإنك لا تحتاج إلى علمٍ غيره »[1] . وواضح من هذه الأقوال انها تمثل برنامج الطريق الصوفي . وإذا ترجمت إلى معانٍ مجردة كانت :

١ — التوكل على الله .
٢ — فعل الخير .
٣ — حرب إبليس .
٤ — الاستعداد للموت .
٥ — اطراح الحَسَد .
٦ — تعمير القبر بالعمل الصالح السابق .

وعلينا الآن أن نستعرض آراء حاتم الأصمّ في معاني التصوف الأساسية :

١ — الزهد :

كان حاتم الأصم يرى ان رأس الزهد » الثقة بالله ووسطه : الصبر ، وآخره الاخلاص[2] .

وللزهد ثلاث شرائع هي : الصبر بالمعرفة ، والاستقامة على التوكل ، والرضا بالعطاء . فأما الصبر بالمعرفة فمعناه أنه إذا نزلت الشدة أن تَعْلَم بقلبك أن الله يراك على حالك ، فتصبر وتحتسب وتعرف ثواب ذلك الصبر . « ومعرفة ثواب الصبر أن تكون مستوطن النفس في ذلك الصبر ، وتعلم أن لكل شيء وقتاً . والوقت على وجهين : إما أن يجيء الفَرَج ، وإمّا أن يجيء الموت . فإذا كان هذان الشيئان عندك ، فأنت حينئذ عارفٌ صابر . — وأما الاستقامة على التوكل فالتوكل إقرارٌ باللسان ، وتصديقٌ بالقلب . فإذا

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٢) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٧٥ .

كان مُقِرّاً مصدقاً أنه رازقٌ لاشك فيه ، فإنه يستقيم . والاستقامة على معنيين : أن تعلم أن شيئاً لك وشَيئاً لغيرك ، وأن كل شيء لك لا يفوتك ، والذي لغيرك لا تناله ولو احتلت بكل حيلة . فإذا كان مالك لا يفوتك ، فينبغي لك أن تكون واثقاً ساكناً . فإذا علمت أنك لا تنال ما لغيرك ، فينبغي لك أن لا تطمع فيه . وعلامة صدق هذين الشيئين أن تكون مشتغلاً بالمعروض . وأما الرضا بالعطاء، فالعطاء ينزل على وجهين: عطاء ماتهوَى أنت فيجب عليك الشكر والحمد ؛ وأما العطاء الذي لا تهوى . فيجب عليك أن ترضى وتصبر » [1] .

ويقسّم الشهوة إلى ثلاثة أنواع : شهوة في الأكل ، وشهوة في الكلام ، وشهوة في النظر . ويقول : « احفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة » [2] . والثقة هنا أي الثقة بالله أنه يرزقك ؛ وحفظ اللسان يكون بالتزام الصدق . وحفظ النظر يكون باستخلاص العبرة مما يراه الإنسان .

ويطالب الانسان بأن يتعهد نفسه في ثلاثة مواضع : « إذا عَمِلْتَ ، فاذكر نَظَرَ الله إليك ، وإذا تكلّمت فاذكر سَمْعَ الله إليك ؛ وإذا سكنت ، فاذكر علم الله فيك [3] » .

ويقسم القلوب إلى خمسة : « قلب ميّتٌ ، وقلبٌ مريض ، وقلبٌ غافل ، وقلب متنبه ، وقلبٌ صحيح سالم » [4] .

٢ ــ المــوت :

ويقسم حاتم الأصم الموت تقسيماً سيشتهر عند الصوفية فيما بعد وهو تقسيم الموت إلى : « موت أبيض ، وموت أسود ، وموت أحمر ، وموت

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٧٦ .
(٢) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٩٦ .
(٣) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٩٧ .
(٤) الكتاب نفسه ، ص ٩٦ .

أخضر : فالموت الأبيض : الجوع ، والموت الأسود : احتمالُ أذى الناس ؛ والموت الأحمر : مخالفة النفس ؛ والموت الأخضر : طَرْحُ الرقاع بعضُها على بعض »[1] .

ويدعو إلى الاستعداد للموت « وعلامة الاستعداد أن لا تكون في حالٍ من الأحوال غير راضٍ من الله »[2] .

٣ ـ التوبــة :

ويعرّف التوبة فيقول : « التوبة أن تنتبه من الغَفْلة ، وتذكر الذنب ، وتذكر لطف الله وحِلْمَ الله وسَتْرَ الله ، إذا أذنبتَ لم تأمن الأرض والسماء أن يأخذاك . فإذا رأيت حكمه رأيت أن ترجع من الذنوب مثل اللّبَن إذا خرَجَ من الضّرعْ لا يعود إليه فلا تَعد إلى الذنب كما لا يعود اللبن في الضرع .

وفعل التائب في أربعة أشياء : أن تحفظ اللسان من الغيبة والكذب والحسد واللغو . والثاني أن تفارق أصحابَ السوء . والثالث : إذا ذُكِر الذنب تستحي من الله . والرابع : تستعد للموت . وعلامة الاستعداد أن لا تكون في حالٍ من الأحوال غيرَ راضٍ من الله . فإذا كان التائب هكذا ، يعطيه اللهُ أربعةَ أشياء (١) أوّلها يحبّه ، كما قال تعالى : « يحبّ التوابين ويحبُّ المتطهرّين » (سورة البقرة آية ٢٢٢) . (٢) ثم يخرج من الذنب كأنه لم يذنب قط ، كما قال ص : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » . (٣) والثالث : يحفظه من الشيطان فلا يكون له عليه سبيل . (٤) والرابع : يؤمنه من النار قبل الموت ، كما قال تعالى : « ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبْشِروا بالجنّة التي كنتم توعدون » (سورة فُصّلت آية ٣٠) .

---

(١) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٩٣ ؛ أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٧٨ .
(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٧٨ .

ويجب على الخَلْق أربعة أشياء : ينبغي لهم أن يحبّوا هذا التائب كما يحبّه الله تعالى ، ويدعوا له بالحفظ ، ويستغفروا له كما تستغفر له الملائكة — قال الله تعالى : « فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهِمْ عذاب الجحيم » (سورة غافر آية ٧) — ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم . والرابع أن ينصحوا للتائب كما ينصحون لأنفسهم »[١] .

٤ — الطاعة والمعصية :

يرى حاتم الأصمّ أن أصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف ، والرجاء ، والحب ؛ وأن أصل المعصية ثلاثة أشياء : الكبر ، والحرص ، والحسد .

والمنافق يأخذ من الدنيا بالحرص ، ويمنع بالشك ، وينفق بالرياء . والمؤمن يأخذ بالخوف ، ويمسك بالشدّة ، وينفق لله خالصاً في الطاعة[٢] .

وهنا ينبغي أن نلحظ التشابه بين تحديد حاتم للمعاصي وبين تحديد الكتاب المقدس لها : فنحن نعلم أنه في المسيحية يميّز بين المعاصي الكبيرة pechés capitaux, capital sins . وبين المعاصي الصغيرة péchés véniels, venial sins وقد اختلف آباء الكنيسة والكتاب المسيحيون القدماء في تحديدها وعددها ، إلى أن جاء القديس جريجورويس الكبير فحدها بسبع وهي : الكبر ، والحرص ، والحسد ، والشهوة ، والشره ، والغضب ، والكسل . وفي سفر « الجامعة » من أسفار العهد القديم (اصحاح ٩ عبارة ١٥) نجد المؤلف يقول إن الكِبْر هو رأس سائر المعاصي ، وهو المعصية التي ارتكبها الملائكة العصاة والتي ارتكبها آدم ؛ والكبر بطبعه يمكن أن يؤدي بالانسان إلى ارتكاب أية معصية . وما يميز الكبيرة من الصغيرة في اللاهوت المسيحي هو أن المعصية الكبيرة تحرم الروح من اللطف الإلهي الواهب للقداسة ؛

---

(١) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٧٨ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٧٩ .

بينما المعصية الصغيرة لا تحدث هذه النتيجة ، وإنما تُضْعف تأثير اللطف الإلهي في الإنسان وتجعله مستحقاً للعقوبة الموقوتة في المطهر . والكبيرة ضلال تام ؛ بينما الصغيرة توقّف في طريق بلوغ النجاة .

وواضحٌ من هذا أن تحديد حاتم الأصم لأهل المعصية يتشابه مع تحديد آباء الكنيسة المسيحية للكبائر ، وإن كان قد اقتصر على ثلاث من السبع التي استقرت منذ جريجوريوس الكبير على أنها الكبائر السبع .

٥ — التوكــل :

ويعرّف التوكل بأنه « طمأنينة القلب بموعود الله تعالى . فإذا كنت مطمئناً بالموعود استغنيت غنى لا تفتقر (معه) أبداً » [١] .

وهذا التعريف من أدق ما قيل في التوكل . فالتوكل بحسب هذا التعريف حالة طمأنينة للنفس بما وعد الله به من الرزق والخير في الدنيا والآخرة ؛

وتظهر قيمته إذا عرفنا أن التوكل قد اتخذ عند بعض الصوفية معنى مرذولاً ، استنكره الغزالي فقال : « وقد يُظَنّ أن معنى التوكل تركُ الكسب بالبدن ، وتركُ التدبير بالقلب ، والسقوطُ على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم . وهذا ظنُّ الجهّال ، فإن ذاك حرامٌ في الشرع ... إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد » [١] .

ثم إن التوكل سيتسع معناه بعد ذلك بحيث يشمل الاعتقاد ، كما نرى ذلك عند بعض مُتأخري الصوفية ، وبه أخذ طاش كبرى زاده في « مفتاح السعادة » فقال : « لا بد لمن يتوكل على الله أن يَعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا فاعل غيره ، يعتقد معه تمام العلم والقدرة ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة

(١) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٧٦ س ٣ — س ٤ .

(١) الغزالي : « احياء علوم الدين — جـ ٤ ، ص ٢٢٨ . القاهرة ، سنة ١٣٤٦ هـ . وراجع « كيمياي سعادت » ، طبع نولكلشور ، ص ٥٠٨ — ٥٣٠ .

بجملة العباد . فإن لم يعتقد بأحد هذه الأمور لم يتم توكله »[٢] .

وحاتم الأصم يربط مقصوده من التوكل بما يراه من ان المؤمن لا يُغْلَب « عن خمسة أشياء : عن الله عز وجل ، وعن القضاء ، وعن الرزق ، وعن الموت ، وعن الشيطان »[٣] . فما دام لا يُغْلَب عن هذه الأمور ، فلا بد له من التفويض إلى الله فيها ، وهو التوكل .

وحكايته مع علماء المدينة (المنوّرة) تتصل بموضوع التوكل . فقد جاءوا لتحدّيه ، فسألوه : « ما تقول في رجل يقول : اللهم ارزقني ؟ قال حاتم : متى طَلَبَ هذا الرزق : في الوقت ، أم قبل الرزق ؟ قالوا : ليس يُفْهَم هذا يا أبا عبد الرحمن . قال (حاتم) : إن كان هذا العبدُ طَلَبَ الرزق من ربّه في وقت الحاجة فنعم ؛ وإلاّ فأنتم عندكم حَرْثٌ ودراهم في أكياسكم وطعامٌ في منازلكم ، وأنتم تقولون : اللهم ارزقنا . قد رزقكم الله فكُلُوا وأطْعموا إخوانكم — حتى قالها ثلاثاً — فَسَلُوا الله حتى يعطيكم . أنت عسى (أن) تموت غداً وتُخَلّف هذا على الأعداء ، وأنت تسأله أن يرزقَكَ زيادة ؟! »[١] أي أن طلب الرزق لا ينبغي أن يكون إلاّ في وقت الحاجة فقط ؛ فهذا جائز ، أما قبل الحاجة أو عند وجود الرزق فلا يجوز مطلقاً . وهذا هو التوكل * .

---

(١) طاش كبرى زاده (المتوفى سنة ٩٦٢ هـ) : « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » جـ ٣ ص ٤٠٩ — ٤١٠ حيدر آباد الدكن ، الهند ، سنة ١٣٥٦ هـ .

(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٢ ص ٧٩ .

(٣) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٨٣ — ٨٣ .

* وراجع الفصل الذي عقده شيخ الاسلام أبو بكر عبد الله بن عمر بن داود الواعظ البلخي في كتابه : « فضائل بلخ » المؤلف في غرة رمضان سنة ٦١٠ هـ ، الترجمة الفارسية لعبدالله بن محمد بن محمد بن حسين حسيني بلخي ، بتصحيح عبد الحي حبيبي ، انتشارات بنياد فرهنك ايران سنة ١٣٥٠ هـ ش ، ص ١٦٥ ، ١٧٧ .

ـ٤ـ

الفضيل بن عياض *

ومن كبار مشايخ خراسان وأوائلهم أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، التميمي ثم اليربوعي .

وقد اختُلِف في مكان مولده : فقيل إنه من قرية يقال لها فُنْدين (بضم الفاء ، ثم السكون وكسر الدال المهملة وياء مثناة تحته ونون) من قرى مَرْو الشاهجان ، ومرو الشاهجان من أشهر مدن خراسان ، وبينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً ، وتوجد الآن في تركستان الروسية .

وقيل إنه ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورْد ، وكلتاهما اليوم في ازبكستان الروسية . وروى عنه ابرهيم بن شمّاس ، قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : وُلِدْتُ بسمرقند ، ونشأت بأبيورَد ، ورأيتُ بسمرقند عشرة آلاف جَرْزة بدرهم [1] » .

---

(١) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٨ .

(*) راجع عنه : ابو نعيم حلية الاولياء جـ ٨ ص ٨٤ — ١٤٠ ابن الجوزي صفة الصفوة » جـ ٢ ص ١٣٤ ، السلمي طبقات الصوفية ص ٦ — ١٤ ، ابن عساكر « تاريخ دمشق جـ ٣٤ ص ٦٣٨ وما يتلوها جـ ٣٥ ص ١ — ٩ ابن حجر تهذيب التهذيب » جـ ٨ ف ٢٩٤ — ابن خلكان «وفيات «الاعيان رقم ٥٠٤ ، ابن العماد ٧ شذرات الذهب جـ ١ ص ٣١٦ — ٣١٨ — الشعراني الطبقات » جـ١ ص ٧٩ — ٨٠ ، اليافعي « مرآة الجنان » جـ ١ ص ٤١٥ — ٤١٧ .

وقيل إنه ولد في بخارى : « قال عبد الله بن محمد بن الحارث : فُضَيْل بن عياض بخاري الأصل »[1] .

* * *

ويروي ابن خلكان[2] حكاية غريبة عن السبب في دخول الفضيل طريق التصوف ، فيقول : « كان (أي الفضيل) في أول أمرِه (أو : عمره) شاطراً يقطع الطريق بين أبيَوْرد وسَرَخس . وكان سبب توبته أنه عَشِق جارية . فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، سَمع تالياً يتلو : « ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذِكر الله ؟! » (سورة الحديد آية ١٦) فقال : يا ربّ ! قد آن . فرجع ، وآواه الليل إلى خربة ، فإذا فيها رفقة . فقال بعضهم : نرتحل . وقال بعضهم : حتى نصبْح ، فإن فُضَيْلاً في الطَريق يقطع علينا . فتاب الفضيلُ وآمنهم ، وكان من كبار السادات » .

وقَدِم الكوفة ، فسمع بها الحديث . وقد أسند الحديث فيما بعد.[3]

وانتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات في المحرّم سنة سبع وثمانين ومائة ، و « قبره بالأبطح مشهور مزور »[4] .

واختلف في سنّه حين جاء الكوفة : فقال ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (جـ ٢ ص ١٣٤) : « وقدم الكوفة ، وهو كبير ، فسمع بها الحديث » ، وبالعكس قال ابن الأهدل فيما نقله ابن الصماء (« شذرات الذهب » جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨) عنه أنه : « قَدِم الكوفة شاباً ، وسمع من منصور

---

(١) الكتاب نفسه ، ص ٨ .
(٢) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » برقم ٥٠٤ جـ٣ ص ٢١٥ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .
(٣) ابن خلكان جـ ٣ ص ٢١٦ ؛ السلمي : « طبقات الصوفية » ص ٨ ؛ شذرات الذهب » جـ ١ ص ٣١٦ .
(٤) ابن العماد جـ ١ ص ٣١٨ .

وطبقته » . ومنصور هو منصور بن المعتمر السلمي ، أبو عتاب الكوفي ، المتوفى سنة ١٣٢ هـ . وقد أخذ عن أبي وائل وكبار التابعين ، وكان أحفظ أهل الكوفة [١] .

وقد أسند الفضيل عن جماعة من كبار التابعين ، منهم الأعمش ، ومنصور بن المعتمر ، وعطاء بن السائب ، وحصين بن عبد الرحمن ، ومسلم الأعور ، وأبان بن أبي عياش . وروى عنه عدد كبير من العلماء ، منهم : سفيان الثوري ، وسفيان بن عُيَيْنة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وحسين بن علي الجعفي ، ومؤمل بن إسماعيل ، وعبد الله بن وهب المصري ، وأسعد بن موسى ، وثابت بن محمد العابد ، ومسدّد ويحيى بن يحيى النيسابوري ، وقتيبة بن سعيد ، والامام الشافعي .

وقد قال الذهبي في « القسطاس » في الذب عن الثقات : « فضل بن عياض ثقةٌ بلا نزاع » . وقال عنه ابن المبارك : « ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل بن عياض » . وقال شريك : « هو حجةٌ لأهل زمانه [٢] » .

وكان يميل إلى التشيع . ويدل على ذلك :

٢ — قوله : إذا نظرتُ إلى رجل من أصحاب أهل البيت كأنما نظرت إلى رَجُلٍ من رسول الله (ص [٣])

ب — أنه روى أحاديث أزرى فيها على عثمان بن عفان [٤] — حتى إن قُطْبة بن العلاء قال : « تركتُ حديث فُضَيل بن عياض لأنه روى أحاديث أزْرى (فيها) على عثمان بن عفان رضى الله عنه » . ويعلق الذهبي على هذا

---

(١) راجع عنه « شذرات الذهب » جـ ١ ص ١٨٩ ، و « خلاصة تذهيب الكمال » ص ٣٣٢ .
(٢) ذكره ابن العماد جـ ١ ص ٣١٧ .
(٣) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٩٦ .
(٤) ابن العماد : « شذرات الذهب » جـ ١ ص ٣١٧ .

فيقول : « حدثنا عبد الصمد بن يزيد الصائغ قال : ذُكِر عند الفُضَيل – وأنا أسمع – أصحابُ رسول الله (ص) فقال : اتّبعوا ، فقد كفيتم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم . قلتُ (أي الذهبي) : لا يقبل قول قطبة . ومَنْ هو قطبة حتى يسمع قوله واجتهاده ! فالفضيل روى ما سمع ولم يقصد غضاً ولا إزراءً على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ففعل ما يسوغ . أفبمثل هذا يقول : تركتُ حديثه ؟! فهو كما قيل : « رمتني بدائها وانسلّت » . وقطبةُ – فقد قال البخاري: فيه نظر ، وضعّفه النسائي وغيره . وأما فُضَيْل فاتقانه وثقته لا حاجة بنا لنقل أقوال مَنْ أثنى عليه ، فإنه رأسٌ في العلم والعمل – رحمه الله تعالى . انتهى كلام « القسطاس » [1] » .

وكان أستاذه في الحديث – منصور بن المعتمر السلمي الكوفي ، الذي تحدثنا عنه من قبل – يذكر عنه أنه كان يميل إلى التشيع . قال الذهبي في « العبر » عنه : « يقال فيه يسير تشيّع » [2] .

كتاب في مناقب وكلام الفضيل

ويذكر ابن الجوزي أنه أفرد كتاباً في مناقب الفضيل بن عياض وكلامه وجملة من رواياته . قال في أواخر الفصل الذي عقده له في الكتاب « صفة الصفوة » (ج ٢ ص ١٣٩) : « اقتصرنا على هذا القدر من أخبار الفضيل ، لأنّا قد أفردنا كلامه ومناقبه كتاباً . فمن أراد الزيادة فلينظر في ذلك الكتاب » . كما أدرج ذكر ابنه : علي بن الفضيل بن عياض في هذا الكتاب (المرجع نفسه ج ٢ ص ١٤٠ س ٢ – س ٣) .

لكننا لا نعلم بوجود مخطوط لهذا الكتاب حتى الآن [3] .

---

(١) أوردا بن العماد في « الشذرات » ج ١ ص ٣١٧ .
(٢) أورده ابن العماد في « الشذرات » ج ١ ص ١٨٩ .
(٣) راجع بروكلمن GAL ج ١ ص ٦٦٢ ، الملحق ج ١ ص ٩١٦ – ٩١٧ .

وكان الفضيل بن عياض أيضاً دائم الحزن ، شديد الفكرة ، إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن ظهر عليه الخوف والحزن ، وفاضت عينه وبكى حتى يرحمه مَنْ بحضرته . وكان إذا خرج في جنازة مع الناس لا يزال يعظ ويُذكر ويبكي حتى لكأنه يودّع أصحابه ؛ حتى إذا بلغ المقبرة جلس واستغرق في الحزن والبكاء .

ومن كلماته الغريبة في هذا الباب قوله : « لو خُيِّرْتُ بين أن أبْعَث فأدخل الجنة ، وبين أن لا أبْعَث — لاخترت أن لا ابْعث » . وكان هذا من طريق الحياء من لقيا الله . وفي نفس المعنى قال أيضاً : « لو خيرتُ بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرى يوم القيامة — لاخترتُ أن أعيش كلباً وأموت كلباً ، ولا أرى يوم القيامة » [1] .

وقال أبو علي الرازي : « صحبتُ الفُضَيْل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكاً ولا مبتسماً إلاّ يومَ مات ابنهُ عليٌّ . فقلتُ له في ذلك ، فقال : إن الله أحبَّ أمراً فأحببتُ ذلك الأمر » [2] .

وكان شديد الاهتمام بأمر الموت . ويرى أنه لو كان الانسان يخاف الموت ، ما نفعه طعام ولا شراب ولا شيء من الدنيا ؛ ولو عرف الانسان الموت حق معرفته لما تزوّج ولا طلب الولد . ولهذا كان يرى أن الأفضل ألا يعرف المرء أمر الموت حق معرفته ، وإلاّ لطاش عقله ولم ينتفع بشيء [3] .

ولشدّة حسابه لنفسه وعدم اطمئنانه إلى عمله كان كثير القلق على مصيره . سئل عن حاله فقال : « عن أيّ حالٍ تسأل ؟ عن حال الدنيا ،

---

(1) راجع : أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٨٤ .
(2) ابن خلكان جـ ٣ ص ٢١٦ ، القاهرة ، سنة ١٩٤٨ .
(3) راجع أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٩٥ .

أو حال الآخرة ؟ إن كنت تسأل عن حال الدنيا ، فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبَتْ بنا كلَّ مذهب . وإن كنت تسأل عن حال الآخرة ، فكيف ترى حالَ مَنْ كثرت ذنوبه ، وضعف عمله ، وفني عمره ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهّب للموت ، ولم يخضع للموت ، ولم يتشمّر للموت ، ولم يتزيّن للموت ، وتزيّن للدنيا . هيه ! [1] » .

ومن كلماته في التخويف من الموت ، وهو يعظ هذا السائل : « ويحك ! أما تذكر الموت ؟ أما للموت في قلبك موضع ؟ أما تدري متى تؤخذ فَيُرمى بك في الآخرة ، فتصير في القبر وضيقه ووحشته ؟ أما رأيت قبراً قط ؟ أما رأيت حين دفنوه ؟ أما رأيت كيف سلكوه في حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة ؟ » [2] .

أمّا طريقته في العبادة وكيفية قضاء أوقاته فيها فكانت على النحو الذي ذكره اسحق بن ابرهيم فقال : « ما رأيت أحداً أخوفَ على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل ! كانت قراءته حزينة شهيّة بطيئة مترسّلة كأنه يخاطب إنساناً . وكان إذا مرَّ بآيةٍ فيها ذكر الجنّة تردد فيها وسأل . وكانت صلاتُه بالليل أكثر ذلك قاعداً : يلقى له حصير في مسجده ، فيصلّي من أول الليل ساعةً حتى تغلبه عينه ، فيُلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً . ثم يقوم ، فإذا غلبه النوم نام ، ثم يقوم هكذا حتى يصبح . وكان دأبه إذا نَعس أن ينام — ويقول : أشدّ العبادة ما يكون هكذا . وكان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث إذا حدث . وكان يثقل عليه الحديث جداً . وربما قال لي : لو أنك تطلب منّي الدراهم ، كان أحبَّ إليَّ من أن تطلب منيّ الأحاديث . وسمعته يقول : لو طلبتَ منّي الدنانير ، كان أيسرَ عليَّ من أن تطلب مني الحديث . فقلت له : لو حدثتني بأحاديث فوائد

---

(١) « الحلية » جـ ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٨٥ — ٨٦ .

ليست عندي ، كان أحبَّ إليَّ مِنْ أن تَهَبَ لي عددها دنانير . قال : إنك مفتون . أما والله لو عملت بما سمعت سليمان بن مهران يقول : إذا كان بين يديك طعام تأكله فتأخذ اللقمة فترمي بها خلف ظهرك كلما أخذت لقمةً رميتُ بها خلف ظهرك- متى تشبع ؟! [1] » .

ويفرق بين عالمين : عالم الدنيا ، وعالم الآخرة . « فعالم الدنيا علمه منشور ، وعالِم الآخرة علمه مستور » . كما يميّز بين العلماء والحكماء ، ويقول : « العلماء كثير ، والحكماء قليل . وإنما يراد من العلم : الحكمة . فمن أوتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » . وبدلاً من قولة البعض : العلماء ورثة الأنبياء ، يقول الفضيل : الحكماء ورثة الأنبياء [2] . ولا ينبغي للعلماء الحكماء أن يغدوا لأبواب الملوك .

---

(١) الكتاب نفسه جـ ١ ص ٨٦ – ٨٧ .

(٢) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٩٢ .

آراؤه

١ – الإيمان :

يرى الفضيل أن العبد لا يبلغ حقيقة الايمان حتى يَعدَّ البلاءَ نعمةً والرخاءَ مصيبة ، وحتى لا يبالي من أكل الدنيا ، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله . ولن يصيب حلاوة الايمان حتى يزهد في الدنيا . وإذن فهو يربط ربطاً ثيقاً بين الايمان والزهد ، بحيث لا يكون الإيمان إيماناً صحيحاً إلاّ مع الزهد (الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٩٤) .

والمؤمن إذا مات ، بكت عليه الأرض أربعين صباحاً (الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٩٦) . « والمؤمن قليل الكلام ، كثير العمل . والمنافق كثير الكلام قليل العمل . كلام المؤمن حكمة ، وصمته تفكّر ، ونظره عبرة ، وعلمه برّ » (الكتاب نفسه جـ ٨ ص ٩٨) .

« ولا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتى يؤدي ما افترض الله تعالى عليه ، ويجتنب ما حرّم الله تعالى عليه ، ويرضى بما قَسَمَ الله تعالى له . ثم يخاف مع ذلك ، أن لا يُتَقَبّل منه » (الكتاب نفسه ، جـ ٨ ص ١٠١) .

وصفات المؤمن هي : « صبرٌ قليل ، ونعيم طويل ، وعجلة قليلة ، وندامة طويلة . رحم الله عبداً أخمد ذكره ، وبكى على خطيئته قبل أن يرتهن بعمله » (الكتاب نفسه جـ ٨ ص ١١٢) .

٢ ــ الزهــد :

ويرى أن مفتاح الخير كله هو الزهد في الدنيا . وسئل ما الزهد في الدنيا ؟ فقال : القناعة ، فهي الغنى .

وكان يقول في دعائه : اللهم زَهِّدْنا في الدنيا ، فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا وجميعِ طلباتنا ونجاح حاجاتنا .

٣ ــ التواضــع :

وعرّف التواضع بأنه : « أن تخضع للحق وتنقاد له . ولو سمعته من صبي قَبِلتَه منه ؛ ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه » (أبو نعيم جـ ٨ ص ٩١ ؛ السلمي ، ١٢) .

وأوصى رجلاً فقال : « يا عبد أخْفِ مكانك ، واحفظَ لسانك ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، كما أمرِك » (أبو نعيم جـ ٨ ص ٩٧) .

ومن كلماته : « من وُقِي خمساً ، فقد وُقِي شَرّ الدنيا والآخرة : العُجْبُ ، والرياء ، والكبر ، والإزراء ، والشهوة » (أبو نعيم جـ ٨ ص ٩٥) .

٤ ــ الحذر من السلطان ووعظ الخلفاء :

وكان الفضيل كثير التحذير من الدنو من السلطان وأصحاب السلطان ، ويقول : « رجل لا يخالط هؤلاء (يعني السلطان وأصحاب السلطان) ولا يزيد على المكتوبة ــ أفضل عندنا من رجلٍ يقوم الليلَ ويصوم النهار ويحج ويعتمر ويجاهد في سبيل الله ويخالطهم » (أبو نعيم جـ ٨ ص ٩٨) . وقال

محذراً : « ما لكم وللملوك ؟ ما أعظم مِنّتهم عليكم : قد تركوا لكم طريق الآخرة ، فاركبوا طريق الآخرة ؛ ولكن لا ترضون تبيعونهم بالدنيا ثم تزاحمونهم على الدنيا . ما ينبغي لعالمٍ أن يرضى هذا لنفسه »[1] .

وله مع هارون الرشيد أمير المؤمنين مواقف تشبه مواقف الحسن البصري مع عمر بن عبد العزيز . من ذلك أنه دخل على هارون الرشيد فقال : « أيّكم هو ؟ فأشاروا إلى أمير المؤمنين . فقال أنت هو يا حَسَنَ الوجه ؟ لقد ولّيتَ أمراً عظيماً . إني ما رأيتُ أحداً هو أحسنُ وجهاً منك . فإن قَدَرْتَ أن لا تُسَوِّد هذا الوجه بلفحة من النار — فافعل . فقال (هارون الرشيد لفضيل) : عظني ! فقلتُ (أنا الفضيل) : ماذا أعظك ؟! هذا كتاب الله بين الدفّتين . انظر ماذا عمل بمن أطاعه ، وماذا عَمِل بمن عصاه . إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً . أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر ، لنالوها . فقال (هارون) : عُدْ إليّ . فقال (الفضيل) : لو لم تَبْعَثْ إليّ لم آتك . وإن انتفعت بما سمعت مني ، عُدْتُ إليك »[2] .

ولا بد أن هذه المقابلة كانت في مكة أثناء حجّ هارون الرشيد ، كما يدل على ذلك الحكاية الأخرى التي تقول إن هارون الرشيد ، أثناء الحج ، حاك في نفسه شيء من أمور الدين ، فأراد أن يسأل عنه أحد العلماء الموجودين ، فأشاروا إلى سفيان بن عُيَيْنة ، فلم يرض به ، وأشاروا إلى عبد الرزاق بن همام ، فلم يرض به ، ثم أشاروا إلى الفضيل بن عياض ؛ فمضى إليه ودخل بيت الفضيل وسلم عليه بكفه ، فقال الفضيل لهارون الرشيد : « يا لها من كفٍّ ما ألينها إن نَجَتْ غداً من عذاب الله عز وجل » . ثم قال : « إن عمر بن عبد العزيز ، لما ولي الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القُرَظِي ، ورجاء بن حيوة فقال لهم : « إني قد ابتليت بهذا البلاء (يقصد الخلافة وولاية

(1) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ١٠٢ .
(2) الكتاب نفسه جـ ٨ ص ١٠٥ .

السلطان) فأشيروا عليَّ » — فعَدَّ الخلافة بلاءً ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة — فقال له سالم بن عبد الله : « إن أردت النجاة من عذاب الله فَصُمْ الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموتَ » . وقال له محمد بن كعب : « إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك أبا ، وأوسطهُم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً . فوقر أبَاك ، وأكْرِم أخاك ، وتَحنّن على ولدك » . وقال له رجاء بن حيوة : « إن أردت النجاة غَداً من عذاب الله فأحبَّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك ، واكرَهْ لهم ما تكره لنفسك ، ثم مُتْ إذا شئت » . — وإني أقول لك لأني أخاف عليك ، أشدَّ الخوف ، يوماً تزلّ فيه الأقدام . فهل معك — رحمك الله ! — مِثْل هذا ؟ أو مَن يشير عليك بمثل هذا » . فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه . فقلتُ (أي الفضل بن الربيع الذي كان في صحبة هارون الرشيد) له : ارفق بأمير المؤمنين . فقال (الفضيل) : يا ابن الربيع ! تقتله أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا . « ثم أفاق (هارون) وقال له : زدني رحمك الله . فقال (الفضيل) : يا أمير المؤمنين ! بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخي ! أذكرك طولَ سهر أهل النار مع خلود الأبد . وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاعَ الرجاء » . فلما قرأ (هذا العامل) الكتابَ طوى البلاد حتى قَدِم على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : ما أقدمك ؟ قال : « خلَعْتَ قلبي بكتابك ، لا أعودُ إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل » . فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال له : زدني رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ! إن العبّاس — عمَّ المصطفى (ص) جاء إلى النبي (ص) فقال : يا رسول الله ! أمِّرْني على إمارة . فقال له النبي ﷺ : « إن الإمارة حسرةٌ وندامةٌ يومَ القيامة . فإن استطعت أن لا تكون أميراً — فافعل » . فبكى هارون بكاءً شديداً وقال له : زدني ، رحمك الله . فقال (الفضيل) : يا حَسَن الوجه ! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يومَ القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجهَ من

النار ، فإيّاك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيّتك ، فإن النبي ﷺ قال : « مَن أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » . فبكى هارون وقال له : عليك دين ؟ قال (الفضيل) : نعم ! دين لربي لم يحاسبني عليه ؛ فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم ألهَم حُجّتي . قال (هارون) : إنما أعني من دَيْن العباد . قال (الفضيل) : إن ربي لم يأمرني بهذا . إنما أمرني أن أصْدُقَ وَعْدَهُ ، وأطيع أمره فقال جل وعز : « ومَا خلقتُ الجنَّ والإنس إلاّ ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعموني ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المبين » (سورة الذاريات ، آيات ٥٦ — ٥٨) . فقال (هارون) له : هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك . فقال (الفضيل) : « سبحان الله ! أنا أدلُّك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟! سلّمك الله ووفّقك .» ثم صمت (الفضيل) ولم يكلمنا (أي الربيع وهارون الرشيد) فخرجنا من عنده . فلما صرنا على الباب ، قال هارون : إذا دللتني على رجلٍ فدُلّني على مثل هذا ! هذا سيّد المسلمين »[1] .

ولا نستطيع طبعاً أن نؤكد أو أن ننفي صحة هذه الرواية ، لأنها نسجت على غرار ما نسج من قصص خرافية عن ورع هارون الرشيد ، إمّا قصد أصحابها إلى الإشارة بمناقبه ، وإما أن تكون وضعت وضعاً لنصح الملوك والحكام المسلمين المستبدين نصحاً غير مباشر بإيراد هذه النماذج العليا من شجاعة نصح العلماء الورعين للحكام المستبدين . هذا من ناحية ، أو تكون هذه الرواية قد وضعت لتمجيد الفضيل بن عياض .

لكننا لا نستطيع نفيها عن يقين ، لأنه لا توجد فيها استحالات تاريخية : فإن الفضيل بن عياض عاش في عهد خلافة هارون الرشيد (تولى الخلافة من سنة

(١) راجع أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ١٠٦ — ١٠٧ . — وراجع عن الفضل بن الربيع : ابن خلكان جـ ١ ص ٥٢١ ، القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .

١٧٠ هـ إلى سنة ١٩٣ هـ ؛ وتوفي الفضيل بن عياض سنة ١٨٧ هـ) . ثم إن الفضيل اشتهر بالورع والشجاعة ، فلا مانع يمنع من أن يقول هذا الكلام لهارون الرشيد ، خصوصاً وكان ذلك في وقت الحج ، وفي مكة ، بعيداً عن مظاهر سلطان الخلافة .

وثم حكاية ثالثة تقول إن « الرشيد قال له يوماً : ما أزهدك ! فقال له الفضيل : أنت أزهد مني . قال (الرشيد) : وكيف ذلك ؟ قال (الفضيل) : لأني أزهد في الدنيا وأنت تزهد في الآخرة ؛ والدنيا فانية ، والآخرة باقية »[1] .

وكان الفضيل يرى أنه بصلاح الإمام يصلح الكثير . وفي هذا قال : « لو كانت لي دعوة مستجابة ، لم أجعلها إلا في إمام ؛ لأنه إذا صلح الإمام أمِنَ العباد[2] » . فسئل : وكيف ذلك ، فقال : « أما صلاح البلاد فإذا أمِنَ الناسُ ظُلْمَ الإمام ، عمروا الخرابات ونزلوا الأرض . وأما العباد فينظر إلى قوم من أهل الجهل فيقول : قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم من تعلُّم القرآن وغيره ، فيجمعهم في دار خمسينَ خمسين — أقل أو أكثر — يقول للرجل : لك ما يصلحك ، وعلِّم هؤلاء أمر دينهم ، وانظر ما أخرج الله — عز وجل — مِنْ فيهم مما يزكي الأرض ، فَرُدَّهُ عليهم — فكان صلاح العباد والبلاد »[3] .

٥ — الخوف والرجاء :

وكان يرى أن « الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجلُ صحيحاً . فإذا نزل به الموتُ فالرجاء أفضلُ من الخوف » — يقصد أنه إذا كان في صحته

(١) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » برقم ٥٠٤ جـ ٣ ص ٢١٥ . القاهرة ، سنة ١٩٤٨ .
(٢) ابن خلكان : « وفيات الأعيان » برقم ٥٠٤ جـ ٣ ص ٢١٦ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .
(٣) أبو نعيم : « حلية الأولياء » جـ ٨ ص ٩١ — ٩٢ .

محسنا ، عَظم رجاؤه عند الموت ، وحَسُن ظنه . وإذا كان في صحته مسيئاً ، ساء ظنّه عند الموت ولم يعظم رجاؤه [1] .

ورهبة العبد من الله هي على قدر علمه بالله ؛ وزهادته في الدنيا هي على قدر رغبته في الآخرة .

٦ — ذم الدنيا :

وقال في شأن الدنيا : « قيل : يا ابن آدم ! اجعل الدنيا داراً تُبَلّغك لأثقالك ؛ واجعل نزولك فيها استراحةً لا تحبسك كالهارب من عدوّه ، والمتسرّع إلى أهله في طريقٍ مخوفٍ لا يجد مَسّاً لما يُقدِم فيه من الراحة ، متبدّلاً في سفره يستبقي صالح ما عنده لإقامته . فإن عجزت أن تكون كذلك في العمل فليكن ذلك هو الأمل . وإيّاك أن تكون لصّاً من لصوص تلك الطريق : « وهُمْ ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون » (سورة الأنعام آية ٢٦) . فإنّ العين ، ما لم يكن بصرها من القلب ، فكأنما أبصرت سهواً ولم تبصره . وإن آية العمى إذا أردت أن تعرف بذلك نفسك أو غيرك ، فإنها لا تقف عن الهلكة ، ولا تمضيه في الرغبة — فذلك أعمى القلب ، وإن كان بصير النظر . فإذا العاقلُ أخرج عقله فهو يُدَبّر له أمره . ومَنْ تدبّر الكتاب : تمضيه الرغبة ، وتردّه الرهبة — فذلك البصير ، وإن كان أعمى البصر » [2] .

وهذا الكلام لعون بن عبد الله ، وقد ردّده الفضيل بن عياض مؤمناً عليه.

وقال أيضاً في ذم الدنيا : « لو أن الدنيا بحذافيرها عُرِضَتْ عليّ حلالاً

---

(١) أبو نعيم جـ ٨ ص ٨٩ .

(٢) أبو نعيم : « الحلية » جـ ٨ ص ٨٩ .

لا احاسَب بها في الآخرة ــ لكنتُ أتَقذّرهَا كما يتقذّر [1] أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه [2] » .

ويزرى بالدنيا لأنها ليست دار إقامة . وإنما أهبط آدمَ إليها عقوبةً . ألا ترى كيف يزويها عنه ، ويمرِّر عليه بالجوع مرةً ، وبالعري مرةً ، وبالحاجة مرةً ــ كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها : تسقيه مرةً حضيضاً ، ومرة صَبِراً ، وإنما تريد بذلك ما هو خيرَ له » [3] .

٧ ــ الجود الإلهي :

ويؤكد الفضيل الجود الإلهي بغير حساب . وفي هذا يقول : « ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليلُ سِرْ بالها وسترها إلا نادى الجليلُ جلّ جلالُه : مَنْ أعظمُ مني جودا ــ والخلائق لي عاصون ، وأنا لهم مراقب ، أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم كأن لم يذنبوا . مَنْ بَيْني وبينهم ؟! أجودُ بالفضل على العاصي ، وأتفضل على المسيء . مَنْ ذا الذي دَعاني فلم أسمع إليه ؟ أو مَنْ ذا الذي سألني فلم اعْطِه ؟! أم مَنْ ذا الذي أناخ ببيتي ونَحيّته ؟! أنا الفضل، ومنيّ الفضل . أنا الجود ، ومِنّي الجود . أنا الكريم ، ومنّي الكرم ؛ ومِنْ كَرَمي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي . ومِنْ كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني . فأين عني تهربُ الخلائق ؟ وأين عن بابي يتنحّى العاصون ؟! » .

وفي رواية أخرى أن الفضيل بن عياض قال : « ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سِرْبال ستره ، إلاّ نادى الجليل من بُطْنان [4] عرشه : أنا

(١) تقذره واستقذره : كرهه لوسخه .
(٢) أبو نعيم ، جـ ٨ ص ٨٩ .
(٣) أبو نعيم جـ ٨ ص ٩٠ .
(٤) جمع بطن .

الجواد ، ومَنْ مثلي : أجود على الخلائق — والخلائق لي عاصون ؛ وأنا أرزقهم وأكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يعصوني . أنا الجواد ومنْ مثلي : أجود على العاصين لكي يتوبوا فأغفر لهم . فيا بؤسَ القانطين من رحمتي ، ويا شقوة منْ عصاني وتعدّى حدودي ! أين التائبون من أمة محمد ؟! » — وذلك في كل ليلة »[1] .

فالله جواد يجود على الجميع : المطيع والعاصي ، والمؤمن والكافر . ولا يتوقف جوده على حسنة أو معصية تصدر عن الناس ؛ بل جوده مطلق ، غير متوقف على شرط .

٨ — الحب الإلهي :

وفي باب الحب الإلهي لا نجد لفضيل غير قوله : « يَنْزِل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا ، فيقول الرب : مَنْ ادّعى محبّتي إذا جَنّه الليل نام عنّي ؟ أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه هأنذا مطلع على أحبّائي إذا جنهم الليل مثلَتْ نَفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة وكلّموني على حضوري . غداً أُقِر أعينَ أحبّائي في جنّاتي »[2] .

ويظهر أنه لم يتوسّع في باب المحبة والعشق الإلهي .

٩ — الصمت :

وكان يرى أن حبس اللسان من أخطر الفضائل ومن أشدّ المجاهدات . قال : « لا حجّ ولا جهاد ولا رباط أشدّ من حبس اللسان . لو أصبحت يهمّك لسانك أصبحت في غم شديد . وسجن اللسان سجن المؤمن . وليس

(١) أبو نعيم جـ ٨ ص ٩٣ .
(٢) أبو نعيم جـ ٨ ص ٩٩ — ١٠٠ .

أحدٌ أشدَّ غمّاً ممن سجنَ لسانه »[1] .

وعلى الانسان ألا يشغل نفسه بما لا يعنيه . قال الفضيل موبّخاً : « تكلمتَ فيما لا يعنيك فشَغَلك عما يعْنيك . ولو شَغَلك ما يعنيك ، تركْتَ ما لا يعنيك »[2] .

١٠ — الريـاء والنفـاق :

وقال في ذم النفاق : « مَنْ أظهر لأخيه الودَّ والصّفاء بلسانه ، وأضمر له العداوة والبغضاء ، لعنه الله : فأصَمّه وأعمى بصيرةَ قلبه »[3] .

وقال أيضاً : « خير العمل أخفاه . وأمْنَعَهُ من الشيطان أبعدُه من الرياء »[4] .

---

(١) أبو نعيم جـ ٨ ص ١١٠ .
(٢) أبو نعيم جـ ٨ ص ١١٠ .
(٣) السلمي : « طبقات الصوفية » ص ١٣.
(٤) السلمي ص ١٣ .



توزيع

دار القلم

بيروت - لبنان